رحلة ذات لرجل شرقي

سناء أبو شرار

obeikandl.com

الكتاب : رحلة ذات لرجل شرقي (رواية)
المؤلف : سناء أبو شرار
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١١
رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٧٥٠٢
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 050 - 8

الناشر
شمس للنشر والتوزيع
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٤(٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

obeikandl.com

رحلة ذات لرجل شرقي

رواية

سناء أبو شرار

شمس
للنشر والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى الرجل في حياتي..

هذا المخلوق الرائع

رغم كل الصراعات

والانتقادات والاتهامات

سناء أبو شرار

sanaa_sharar@hotmail.com

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

في كل ليلة أرتمي على سريري وأقول لها بإنني متعب، وأن يومي كان مليئًا بالمشاغل والأعباء، وأغمض عينيّ قبل أن ترد على كلماتي، وأشعر بأنفاسها الغاضبة، ولكنني أتجاهل ذلك الغضب الصامت، فيوجد لدي أيضًا غضب صامت.

وما أن أتأكد بأنها غرقت في النوم أنهض من الفراش وأتجه لغرفة مكتبي، فمنذ أشهر لم أعد أستطيع النوم، ليست ضغوطات العمل ما يمنعني من النوم ولكن أشياء أخرى تأتي من الماضي ومن الحاضر، كلمات ووجوه تطل وتختفي ولكنها توقظني وتؤرقني..

لا أريد أن أذهب للطبيب وأن تتحول حالتي إلى حالة مرضية مُزمنة، لا أزال أصر على أنني أستطيع السيطرة على هذا القلق، وأنه سيزول، وربما لا أريد أن أعترف بضعفي أمام هذا القلق كرجل يمتلك زمام الأمور في حياته، فحتى جسده لا يحق له أن يخونه..

ربما إنني تقدمت في السن، وربما بدأتُ أملُّ من عملي وزبائني وحساباتي التي لا تنتهي..

وربما لم أعد أحب الحديث مع زوجتي، فهي تُكرر نفس الكلمات وتُبدي لي مشاعر تدربت على إبدائها منذ زمن طويل فلم يعد لها أي أثر في نفسي، كأنها تُعيد شريطًا عاطفيًا مملاً أشاهده منذ سنوات، لم أعد بحاجة لأن أسمعها تقول بصوت رقيق: "حبيبي.. أنت تحتاج للراحة.. ابقى في البيت وسأعتني بك ونُعيد بعض الذكريات القديمة الجميلة، فأنا لا أزال أرى بك ذلك الحبيب القديم المتلهف للقائي"، وتقترب مني لتحتضني وكل ما أرغب به في تلك اللحظة هو الهروب إلى مكتبي.

obeikandl.com

(٢)

لم أعد أرغب بسماع تلك الكلمات المُبرمجة، فأنا أعرف بأن وراء كلماتها حسابات طويلة وطلبات لا تنتهي، كنتُ أجادلها في السابق حين ترغب بشراء أي شيء، ولكنني الآن أعطيها كل ما ترغب به مقابل تجنبي لسماع كلمات حب مُبرمجة ومحفوظة عن ظهر قلب، والأسوأ هو أنني أعرف بأنها تُحبني ولكنها روضت ذاتها وروضت كلماتها لإرضائي، ولتُظهر لي كم هي زوجة مُتفانية، وأنا أشعر بالفراغ العاطفي خلف كلماتها وأعرف بأنني حين أموت لن يهمها سوى حصتها في الميراث والتي سألت المحامي عنها عدة مرات وأخبرني هو بذلك دون علمها.. فهي تحبني مع أموالي ولا أريد أن أفكر هل ستحبني دون أموالي؟

والآن أفكر بأن لا أعطيها أي نقود كي تتوقف عن قول كلمات الحب الجياش؛ فكلما زاد كرمي تجاهها زادت وتيرة تلك الكلمات وازداد تدفقها، وربما هذه الكلمات بالذات هي التي أحضرت هذا القلق لحياتي.. أو ربما هو قلق افتعله عقلي الباطن كي أستيقظ وأراها نائمة وصامتة، أجلس خلف مكتبي وأعبث بأوراقي أو أتمدد على الكنبة الكبيرة.. لا نوم..

الغريب هو أنها ليست سبب قلقي، وإن كانت تقتحم أفكاري رُغمًا عني من حين لآخر، ولكن أشياء أخرى تطفو على صفحة نفسي، أشياء اعتقدت بأنها مضت وكأنها بقايا سفن غارقة من سنوات بعيدة، وأرى قطع من تلك السفن المُهترئة تطفو على السطح ورغم صغرها وبُعدها إلا أنها تُحدث دوائر واسعة لا تنتهي، تمتد دوائرها لتلتف حول واقعي فيدور معها دون مقاومة، وتبدو نفسي منقادة لذلك الدوران الناعم، وحين أعود للواقع تغرق البقايا من جديد وتختفي تلك الدوائر الناعمة، فأستيقظ من جديد رغم أنني لم أكن نائمًا، وأرفض من جديد عودة تلك المشاعر والذكريات، أريد حقًا أن أعيش واقعي وأن اسمع صوت الأشياء الحقيقية من حولي، حتى صوت زوجتي وكلماتها المُبرمجة، لا أريد أن تنزلق نفسي في الماضي فأنا لست من الأشخاص الذين يحبون العودة للماضي، ولا ينتابني الحنين لذلك، ولكن الماضي هو الذي يُلح علي وكأنه رمال متحركة تجرفني نحو الأعماق البعيدة، فهل أستسلم له أم أقاومه؟

(٣)

طوال أشهر عديدة قاومته، وكلما قاومته ازداد حضوره في أفكاري ومشاعري، وربما حضوره في مشاعري هو أصعب من حضوره بأفكاري، فأنا أستطيع أن أتحكم بأفكاري عبر هروبي للعمل أو بغذاء ما أو بعشاء ما مع أصدقائي ولكن المشاعر عالم آخر يصعب السيطرة عليه رغم رقته، فهو شفاف ومُتغير ولكنه مُسيطر وطاغ.

ولكنني الآن وبعد صراع طويل معه أشعر بأن قواي بدأت تضعف، وأنه يهزمني، ربما لابد أن أعقد صلح ما معه ولكن كيف؟ بدأتُ أفكر لأيام طويلة كيف سأتصالح مع هذا الماضي الحاضر، فبدأت في كل ليلة وقبل أن يأتيني الأرق أستيقظ لمقابلة الماضي، أريد أن أراه أمام عينيَّ من جديد، بل وأن أعيشه وأن استمع لما يريد أن يقوله لي، فحين تلح علينا الذكريات دون إرادتنا وحين تمثل أمامنا كأنها جزء من الواقع، تكون هناك رسالة ما تريد أن تنقلها لنا ربما يكون تحذير، أو أمر بأن نعتذر لأحد ما، ربما يكون ذلك الأحد هو ذواتنا نحن التي تسببنا بألمها بأخطاء مُتعمَدة أو جاهلة، وربما تكون إشارة لبداية الرحيل، وأنا كنتُ خائف من كل هذه الاحتمالات، فكان لابد أن أقف أمام الماضي بجرأة وأصفي حسابات قديمة ليس لها علاقة بالأرقام بل بمسيرة حياة.

(٤)

قررتُ أخيرًا أن أستسلم للماضي، أن أدعه يمر بأفكاري ويثير مشاعري وحنيني وربما أحزاني، فحتى رجل في مثل سني يحق له أن يحزن في غرفة ما مغلقة أو في شارع منعزل، يقف بسيارته ويغرق بحزن صامت ولا يعد الدقائق، فالحزن حالة خارج حدود الزمان لأنها قد تحدث لسبب ما، يتعلق بالحاضر أو بالماضي أو بالمستقبل الذي نخشاه أو نُقبل عليه، ولكننا بالتأكيد لا نتطلع إليه بثقة لأنه وببساطه خارج حدود سيطرتنا.

لا أريد أن أسجل الأحداث ولا مشاعري تجاهها ولكنني أريد أرى ذلك الماضي البعيد كأنه شاشة سينما صغيرة تتابع عبرها الأماكن والأحداث والكلمات ولكنني البطل الوحيد في أفلامي، هناك أبطال آخرين ولكنهم اختفوا عن الشاشة، بطولتي لا تكمن بإتقان أدواري بل لبقائي هناك طوال تلك السنوات..

حاولت أن أتحايل مع الماضي بأن انتقي ما أريد من الأحداث؛ خصوصًا تلك التي تؤكد انتصاراتي كرجل، ولكن الماضي لم يترك لي ذلك الخيار، فتلك الأحداث العميقة التي أردت دفنها في النسيان أو التناسي كانت هي أول من استحضرها الماضي على شاشة

الواقع، فوقفت جامدًا لا أمتلك سوى الصمت والمشاهدة، ولكن أعماقي ليست هادئة، بل تنفعل مع كل كلمة وكل حركة..

حين اتخذت قراري هذا اتخذت معه قرار آخر، وهو ألا أخبر أحد حتى أعز أصدقائي بما يدور في عالمي الخاص، لم أكن أريد أن اسمع الجملة التقليدية: "وماذا يُجدي تذكر الماضي؟"، لن يفهموا أننا أحيانًا لا نتذكر الماضي، ولكنه وبفترة ما من حياتنا يفرض نفسه علينا في لحظة ما ولأجل أن يحصل تغير ضروري أو لتصفية حسابات ليست رقمية بين الروح والنفس، أو النفس والآخرين، أو الذات والحياة الماضية والحياة القادمة، أو ربما عقد صلح أخير مع الحياة قبل الرحيل الأخير عنها.. كل تلك الأسئلة والإجابات كانت تدور بذهني قبل أن تدور الأحداث على شاشتي الصغيرة، وللحظات شعرت بالخجل وأردت التراجع عن فكرتي، ولكن الأحداث التي بدأت تدور على شاشتي الصغيرة بدأت تشدني لعالم آخر وكأن من أشاهده ليس أنا، وهذا بالذات ما بدأ يشدني لما أشاهده، أن أبدو غريبًا عن نفسي وعن تلك الأحداث، بدأ التشوق يتجه بي لما سوف تكون عليه النتيجة بعد أن تدور تلك الأحداث على شاشتي الصغيرة هل سوف أتحول لإنسان آخر؟ هل سوف أرى الحاضر بنظرة أخرى؟ هل سوف يصبح للوقت قيمة أخرى؟ وهل سوف تكون لذاتي قيمة جديدة؟ وهل سيكون للحياة مذاق آخر؟

(٥)

وجه واحد يحتل مساحة ذاكرتي، وحين أنتقل للذاكرة تتحول الذكرى لوجود كامل من نوع آخر، وجود يجثم راسخًا في النفس ويُشكّل وبصمت طويل مشاعرنا تجاه الحاضر والمستقبل، وألوان الذكرى الزاهية أو القاتمة تشكل رؤيتنا للواقع والمستقبل، رغمًا عنا، ورغمًا عن المنطق الذي قد نفرضه على حياتنا، فذكرياتنا مُحركنا الصامت، وصاحب القرار، وقلة قليلة منا من يستطيع أن يوقف هذا المحرك الصامت، وأن ينقل جذور القرار من الماضي إلى الواقع.. تحركنا الذكرى تجعلنا نحب ونكره، نيأس ونتفاءل، نضحي أو ننكمش على أنانيتنا، نتجه بخطواتنا للأمام ولكننا نتجه للخلف..

وجه واحد يحتل مساحة مسرحي الصغير على الحياة ويبدو مسرحي صغير جدًا أمام ضخامة ملامح ذلك الوجه، فبعض الأشخاص في الحياة لهم وجود عملاق في الحب أو في الكره، ولكن هذا الوجه الذي يخصني كان يمتلك وجودًا عملاقًا؛ ليس في الحب ولا في الكره؛ ولكن في الخوف والقلق.. إنه وجه أمي..

منذ نعومة أظافري أستمع للكلمات التي تُمجِّـد الأم وحنـان الأم، وكنت أرغب حقًا أن اشعر بهذا الحب العظيم تجاه أمـي، ولكننـي كنت أحزن؛ ليس لشدة حبي لها، ولكن لأنني لم أشعر ولا أشـعر بهذه المشاعر تجاهها، فرغم كل السنوات التي مرَّت ورغم رحيلها لا أجد هذا الحب وأحيانًا أرغب بالبكاء لافتقادي لذلك الشوق الذي يشعر به أصدقائي لأمهاتهم بعد موتهن، وأجلس بينهم صامتًا أهز رأسي كي أوافقهم على كل كلمة شوق وافتقاد لها كي لا يـسألني أحد أي سؤال عنها..

لا أرى وجهها دون صوتها، كانت لها ملامـح واضـحة وعيـون واسعة، شعرها أشقر وبشرتها بيضاء، لقد كانـت أمـي جميلـة ولكنني لشدة خوفي منها لم أكن أشعر بجمالها أو أراه، كنت أسمع الآخرين يرددن هذا لها وكانت تعرف بأنها جميلة ولكنني أنا وإخوتي لم نكن نرى ذلك الجمال، أحيانًا حين كانت تخرج للسهر مع والدي كنا نرى جمالها بالفعل، وتدوم رؤيتنا تلك لـدقائق ثـم تتلاشـى، فقسوتها كانت لا تترك لنا أي مجال لرؤية جمالها الخارجي..

كلما أردت أن أتذكر شيئًا جميلاً بخصوصها، اقتحم صوتها المُدوي عالمي الهادئ فيقبع الجمال صامتًا أو مختفيًـا ويبقـى الـصوت الراعد يملأ سكون نفسي، منذ أن ماتت وأنا أحاول نسيان صراخها الحاد.. طوال سنوات بعيدة أحاول أن أمحيه من الذاكرة ولكنـه لا

يزال مدويًا حادًا وقاسيًا، وكأنها ماتت ولكن الصوت لم يمت معها.. كتبت لها مرة واحدة في أحد السنوات: "أمي الحبيبة، أنت أمنا ونحن نحبك ولكن أرجوك أن لا تصرخي وأن لا تضربينا ولا تغضبي مني فأنا أخاف كثيرًا حين أراكِ غاضبة".

قرأتْ الورقة عدة مرات ونظرت لي بقسوة لن أنساها وتناولت العصى، ولا أذكر كم من الوقت مر وهي تضربني وكانت تلك المرة الأولى التي لا أصرخ بها من شدة الألم وكانت هي تريد أن أصرخ كي تتوقف ولكنني قررت ألا أصرخ وألا أكتب لها حرفًا واحدًا إلى أن أموت، وأمام صرخات إخوتي أيمن وسامح توقفت ولا تزال رغبتها قوية بضربي، ضممتُ جسدي إلى صدري وحبست دموعي ونسيت ألمي، ومنذ تلك اللحظة مات أخر شعور ضعيف بأن أحب أمي.. وفي الليل كتبتُ سطر صغير: "أمي.. لا أحبك ولا أعتقد بأنني سأحبك في يوم ما.. اليوم لم تضربي جسدي فقط بل مزقت قلبي الصغير".

(٦)

جلست زوجتي على طرف السرير بكامل زينتها وقالت لي بصوت رقيق:

- هل نسيت! اليوم عيد زواجنا العاشر، لابد أن نحتفل وأنا أدعوك للعشاء..

ساد الصمت قليلاً وكنت أرغب بأن أقول لها بإنني لا أريد أن أذهب لأي مكان ولكن رؤيتها بتلك الزينة وبتلك السعادة جعلتني أهز رأسي وأبتسم وأقول لها:

- بالطبع سوف نحتفل هيا بنا..

جلستْ أمامي في المطعم الفخم تبتسم بسعادة وتتحدث دون توقف عن أشياء كثيرة، وجلست أستمع متصنعًا الاهتمام لما تقول ولكن أفكاري كانت مع عالمي الليلي وصورة والدتي لم تغادر أفكاري طوال اليوم، حتى أنني فكرت بالتوقف عن لعبة الذكريات هذه لما تجلبه لي من مشاعر متناقضة وما تستحضره في روحي من مشاعر قديمة.. وخلال استغراقي بأفكاري أمسكت بيدي وقالت:

- هذه السنة لن تشتري لي أنت هديتي لقد اخترتها بنفسي وليس عليك سوى دفع ثمنها..

- وما هي هذه الهدية المميزة؟

- إنها خاتم ألماس جميل جدًا وقد أحضرت صورته معي..

نظرتُ للخاتم وعرفت على الفور بأنه باهظ الثمن وعرفت لماذا بذلت كل ذلك الجهد بزينتها وبكلماتها الجميلة.. رغبت بأن انهض وأن أقول لها لا أريد أن اشتريه ولستُ سعيدًا بعيد زواجنا العاشر ولا حتى الأول.. رغبت أن أمنحها ورقة مكتوب عليها أنت طالق بدلاً من الخاتم الألماس، ولكنني ومرة أخرى لم ارغب بالمزيد من التعقيدات بحياتي، وكنتُ قد اتخذت قرارًا قديمًا بأن المال الذي أجنيه ليس فقط لأنفق به على عائلتي ولكنني استعمله أيضًا لأتجنب مواقف أكرهها، وأتجنب مشاعر لا أريد البوح بها، وأفتعل مشاعر لا أشعر بها، المال بالنسبة لي لم يعد مجرد وسيلة بل هو هروب وحل والتفاف على مواقف كثيرة.. ولم أعد اسأل نفسي كيف ستتصرف زوجتي الحبيبة لو أنني أفلست في يوم ما، لأنني وببساطة أعرف الجواب..

ابتسمت من جديد وناولتها الشيك بالمبلغ المطلوب ولكنها اعترضت بدلال:

- لا.. لا.. أنت من سيدفع ثمنه ويقدمه برومانسية لي..

لم يتبقَ لدي سوى قليل من الصبر فقلتُ لها مبتسمًا:

- لا يا عزيزتي.. لا أستطيع فأنا في اجتماعات متواصلة طوال هذا الأسبوع.. والآن هيا بنا فأنا مُتعب..

ومن جديد رغبتْ بأن تحصل على ليلة رومانسية، ولكنني بهذه الليلة بالذات لم يكن لدي أي طاقة للتمثيل، فاعتذرت ولم أهتم لغضبها الصامت، وأغرقت رأسي في الوسادة انتظارًا لنومها، وأن أعود لعالمي الليلي الصامت.

باب خشبي يفصلني عن واقعي الذي أحياه، ولا أدري هل أرغب بالاستمرار به، وهو ما يعيشه الكثير من أصدقائي، يحيون حياة لا يحبونها ولكن ولأن الرجل الشرقي ليس حرًا كما أخبرونا في طفولتنا فنبقى في بيوتنا لا نجرؤ على مغادرتها، كي لا نُتهم بالخيانة، ونعجز عن تغيير الواقع لأن البيت هو بالفعل عالم المرأة، تفرض عليه قوانينها ومزاجها وكرهها أو حبها.. لم أكن أفهم ماذا يعني أن البيت هو عالم المرأة، ولكنني وبعد كل هذه السنوات وبعد معرفتي للمرأة فهمت ما تعنيه هذه المقولة، لذلك لا أستطيع تغيير الكثير في إمبراطورية سنَّت قوانينها المرأة، ودعمت تلك القوانين بدعم اجتماعي صلد يُضفي صفات الخيانة والقسوة والأنانية والبخل كلما رفض الرجل قوانين تلك الإمبراطورية، بمجرد أن ادخل لبيتي أشعر وأشم وأتنفس سلطات زوجتي اللا محدودة، ولا أمتلك سوى

أن أستسلم لتلك القوانين حتى بمشاعري، كي أتجنب صراعات تستنفذ طاقتي التي أحتاج إليها في عالمي خارج بيتي.

لا تزال صورة أمي تقف عنيدة كلوحة جدارية عالية الجودة بتفاصيلها وحِدَّة معالمها.. أتضايق من شدة وضوح الملامح والتعبير النافذ لروحها عبر عيونها التي تسبر حدود الزمان والمكان، وأشعر بهذه اللحظات بمدى سيطرة الأرواح على واقعنا وأقدارنا، بصمتها وثباتها تقف بعيدةً صامتةً تُشكِّل إحساسنا بالحياة وبالأشياء، وأصعب العلاقات مع الأرواح هي حين نرفض وجودها ولكنها تحاصرنا رُغمًا عنا لأنها تمتزج بالماضي والحاضر، بالحزن القديم والغضب المستمر.. أقف عاجزًا أمام صورة أمي وأخشى أن تتحرك الصورة فأرى وجهها الغاضب، وأسمع صوتها المدوي، تجمدتُ في مكاني للحظات لا أدري كيف أهرب من سطوة الذكرى التي تستحضرها تلك الصورة.. كنتُ أرغب بأن أعود لسريري وأن يكون لدي امرأة أحبها وأدفن رأسي بصدرها كي ترحل تلك الصورة للأبد، وأن أخبرها بكل شيء عن ذكرياتي، ولكنني وبهذه اللحظات القصيرة أشعر بمدى وحدتي كرجل وأن هناك نوع من الوحدة لا يستطيع أي صديق أن يعالجها، فقط امرأة أحبها وتحبني تستطيع أن تُخلصني من وحدتي ومن قسوة ذكرياتي..

وفجأة تسللت صورة أخرى عبر الذاكرة، صورة شفافة بدأت تُغطي الصورة الجدارية لأمي وتجعل ملامحها المُتحجرة تختفـــي رغـــم بقائها ثابتة.. صورة شفافة كأنها صفحة مياه صافية عذبة رقراقة تتماوج أمام صورة والدتي، فأنسى والدتي وملامحهـــا، وتتمـــاوج روحي مع الصورة الشفافة الصافية، وأشعر بالهدوء يعود لروحي المضطربة وتستكين حواسي لرؤيتها ويعود الصفاء لوجودي مـــن جديد.

obeikandl.com

(٧)

أنا كرجل شرقي لي صندوق أسود صغير أخبئه في عقلي أو في صدري، أو ألقي به إلى أي مكان، ولا انظر لمحتوياته، ولكن مُحتوياته تُطل من حين لآخر ورغمًا عن رغبتي بعدم رؤيتها، إنها مشاعري، أفكاري، ذكرياتي وآرائي حول ما لا أريد الحديث عنه.. أعيش حياة طبيعية وأفرض الهدوء على كل تصرفاتي، ولكن في أعماقي الدفينة أغضب وأصرخ وأدمر الأشياء من حولي، وحينها تُطل محتويات صندوقي من جديد.. فأضيف إليها محتويات أخرى وأغلق الصندوق من جديد، وهذا الصندوق لابد أن يبقى صغيرًا مهما امتلأ بالمحتويات لكي أستطيع حمله، فإن أصبح أكبر مما أريد له أن يكون لن يعد باستطاعتي حمله، سوف يتحطم ويرى من حولي محتوياته المدفونة، وحين لا يعد باستطاعة الرجل أن يحافظ على حجم ذلك الصندوق؛ تتمزق الأشياء في حياته ولا يعد قادرًا على جمع شتات نفسه..

وهي كامرأة تفخر بمحتويات حياتها تُعلنها للجميع وتتحدث عنها، لأنها سوف تُلاقي كل التعاطف، ولكن من سوف يتعاطف مع رجل هش نفسيًا؟ رجل تتداعى ذاته أمام ناظريه في كل يوم، فيُفضل

الرجل الصمت والمضي قدمًا مدعيًا أنه الأقوى والمسيطر، وقد يكفيه أن تُذعن له امرأته فقط أمام الآخرين، ولا يهم لمن القرار الأخير طالما أن صورته كرجل قوي لا تزال صامدة على الجدار الحجري.

ألقيت صندوقي الأسود في مكان ما، ولكن محتوياته لا تكتفي بأن تُحملق بي من حين لآخر، ولكنها تلح بالخروج، وأن يتداعى كل شيء من حولي.. فرغم شعوري بالضعف لاستعادة كل هذه الذكريات، وشعوري أحيانًا بأنني ألعب لعبة عبثية تناسب طبيعة المرأة أكثر من أن تناسب طبيعة الرجل، إلا أنني بحاجة إلى إعادة تنظيم محتويات صندوقي الصغير قبل أن يتهشم وأرى ذاتي تتناثر من حولي..

obeikandl.com

(٨)

في صالونات الرجال والنساء وفي المقالات الأدبية وفي الصفوف المدرسية؛ كانوا ولا زالوا يرددون بأن الأب هو القدوة الأولى لأولاده، دون أن يذكروا ما هي صفات ذلك الأب القدوة.. طوال سنوات طفولتي كنت أسمع تلك الكلمات وأفكر بها طويلاً، وحين أعود للبيت وأرى والدي لم أكن أرغب بأن يكون قدوة لي في الحياة، ليس لأنني لم أحبه، ولكن الضعف الذي كنت أراه به أمام والدتي كان يسبب لي الخوف من المستقبل، وكلما رأيت ذلك الضعف ألحَّت عليَّ نفسي بألا أكون ذلك الرجل، ولكن شخصيتي كانت تتجه نحوه لأنه قدوتي، والضعف الذي كان يملأ كيانه تسلل لي عبر سنوات من القلق والفزع.

كنت أعيش صراعًا حادًا بين نفسي التي لا تريد أن تكون على صورة والدي، وبين شخصيتي التي تتقمصه رُغمًا عني، وكان ينعكس ذلك الصراع على كلماتي حين أتحدث معه.. أنظر إليه ولكنني أريد أهرب بنظراتي لأي شيء حولي لنافذة ما لطاولة ما، لا أذكر بأنني نظرتُ حقًا لعيون والدي إلا في أوقات معدودة في حياتي.. كنت أحبه وأرى الألم والضعف بعيونه في البداية، وكنت

أكره ذلك الضعف، ثم تحول رفضي لرؤية ضعفه إلى لـــوم شـــديد له.. وفي كل مرة أرى رجولته تنهار أمامي كنت أصرخ بداخلي:

"لماذا تصمت؟ لماذا لا تحطم كل شيء وتعلن أنك رجل؟ لمـــاذا لا تستعيد رجولتك بهذا البيت؟"، لكنني أدركت وبوقت مبكر بأن الرجل لا يمارس رجولته ببيته كي يُثبت من صاحب القرار، ولكن لأن كل ما في البيت لا يستقر إلا إذا مارس الرجل هذا الدور الذي خُلِـق لأجله.. أن يكون رجل.. وأدركتُ أن هنـــاك فـــرق شاســـع بـــين الرجولة وبين تنفيذ طلبات الزوجة، وأن هناك شيء دفين بأعماق المرأة يهمس لها بأن هذا الرجل لابد من تقدير تصرفاته وأفكـــاره وعدم العبث بها، أو يقول لها بإن هذا الرجل لا قيمة لما يفكر بـــه ولا لما يقوم به، وحينها تنهار الأدوار وتستطيع أن تفرض عليـــه الدور الذي تريد، وينفذ هو الأوامر معتقدًا بأنه يمارس رجولته ولا يُدرك أو لا يريد أن يعترف بأنه تم قلب الأدوار دون قلب المُسميات فتتحول الرجولة إلى طاعة وتتحول الأنوثة إلى سيطرة حكيمة.

خلف مكتبه الخشبي الفخم يُصدر أوامره للموظفين بهدوء ولكـــن بسيطرة كاملة.. في الأوقات القليلة التي كنت أذهب بهـــا لمكتبـــه كنت أجلس أمامه على الكنبة الكبيرة وأراقبـــه، وأســـتمع بيقظـــة لكلماته مع الموظفين، وأرى احترام الموظفين له وأتساءل بتعجب هل هذا هو والدي الذي يبدو في البيت ضعيفًا ومشتتًا.. وفي كـــل

مرة يتحدث بها معي لا أجيبه على الفور لأنني أكون غارق بمقارنة صورته في البيت وصورته في المكتب ولا أستطيع التوصل إلى حل منطقي للمعادلة فيردد باستمرار:

"أنت كثير الشرود، لحسن حظك أن علاماتك ممتازة في المدرسة وإلا لغضبت منك"، فأهز رأسي محاولاً رسم ابتسامة ما على وجهي.

طوال سنوات حياتي السابقة كنت أطرد صورته كي لا ينتابني الغضب والحزن، حتى أنني كنت أتناسي مظهره الخارجي وملامحه، ولأنني ولسنوات كنت أعتبره مسؤول عن المعاناة التي كنا نعيشها في البيت بصمته وسلبيته أو بالأحرى بضعفه، ولكنني الآن أسترجع الكلمات وملامح الوجوه والمواقف وأتجرأ على النظر في عيون والدي من خلال ذكرياتي القديمة والمدفونة، فأرى شخص آخر لابد من أن أعيد ترتيب وجوده في حياتي وذكرياتي.

والدي.. ذلك الشخص الهادئ مع الآخرين ومع ذاته.. الأنيق دائمًا حتى في لحظات الغضب والتعاسة، وكأن أناقته كانت تُخرجه من تلك التعاسة الدائمة، فكان يُصرُ عليها حتى ولو انتقدته والدتي مئات المرات.. وأذكر جلوسه لأوقات طويلة في الشرفة الزجاجية يدخن ويشرب القهوة بصمت، لم يكن يتضايق من وجود أي منا معه، ولكننا لم نكن نرغب حقًا بأن نقطع عليه تلك الخلوة الطويلة والتي رافقتنا طوال حياتنا.. والدي كان دائمًا لطيفًا مبتسمًا لم أكن

أدري ما سر تلك الابتسامة الدائمة، ولكنني أعتقد أنه ورثها من والدته التي كانت دائمة الابتسام والبشاشة، ولم أكن أغفل عن نظراتها الحزينة التي كانت تنظر بها لابنها من حين لآخر تقول له بعض الكلمات بصوت هامس خلال غياب والدتي في المطبخ ثم تعود لابتسامتها الدافئة، ولكنني لا أنسى جملة قالتها له واستطعت أن اسمعها ذات مرة: "أرجوك يا ابني.. أن تأتي عندي كلما تعبت من هذه المشاكل، أنا أعرف بأنك ترفض فكرة الطلاق ولكن أرجوك يا حبيبي أن تأتي لبيت والدتك لتجد شيء من الراحة..".

هز والدي رأسه بصمت وعادت هي للحديث معي بحنان ورفق كعادتها، ولكن محطة والدي الدافئة اختفت فقط، ماتت جدتي حين بلغت من العمر عشر سنوات ورأيت أن والدي أصبح أكثر وحدة وتعاسة لأنه فقد ذلك الصدر الحنون وتلك الابتسامة الشافية، حتى أنا بكيت كثيرًا حين ماتت جدتي وكلما تذكرت كلماتها الدافئة وابتسامتها العذبة ازداد بكائي وشعرتُ بأنني أصبحت وحيدًا أكثر بعد موتها، لقد تعلمتُ مبكرًا من جدتي أن الابتسامة تشفي القلوب أكثر مما تشفيها الكلمات، لأنها دافئة صادقة ولا تضطر العقل للتفكير والتبرير، الابتسامة تقول لك بأنها تسامحك وتفهم أخطاءك وأنها تحبك رغم كل شيء، ومنذ وفاة جدتي ورحيل ابتسامتها معها

رسمت على وجهي تلك الابتسامة فقد كانت تلك طريقتي الوحيـــدة لأن أشكر جدتي على الأمان الذي منحتني إياه ومنحته لوالدي..

أولئك الأموات الأحياء الذي تركوا الدفء في الصدور والحب فـــي القلوب والفكر في العقول، وأولئك الأحياء الأموات الذين نزعـــوا الدفء من الصدور والحب من القلوب والفكر من العقول.. فكـــان لابد أن أختار في فترة مبكرة من حياتي أن أكون من الأمـــوات أو من الأحياء، واخترت أن أكون من الأحيـــاء، ولـــم أكـــن أدرك أن اختياري كان شديد الصعوبة لأنه لا يسمح بأي غفوة للـــضمير.. فهل كانت جدتي يقظة الضمير أم أنها صورة عن الإنسان الرائـــع الذي أراده الله تعالى للبشر أن يكونوا عليه.. رحمـــاء عطـــوفين عقلاء ومتسامحين..

obeikandl.com

(٩)

جلستْ بجانبي وقالت بتعبير جاد:

- أريد أن نتحدث حول موضوع ما..

نظرتُ إليها بهدوء ودون أن أرد تابعت قائلة:

- لقد لاحظت بأنك لا تنام طوال الليل هنا وأنك تقضي معظم الليل في غرفة المكتب وأنك..

صمتت ونظرت لي بريبة.. فسألتها:

- وأنني ماذا؟

- وأنك لا تكتب شيئًا بل تجلس صامتًا وترسم بعض الخطــوط أو تتمدد على الكنبة.

شعرت بغضب عارم ينتابني ولكنني تمالكت نفــسي وقبــل أن أرد قالت:

- هل أنت عاشق أم ماذا؟ أم ربما تفكر بالزواج مرة أخرى؟ لأنك إذا كنت..

وقبل أن تتابع قاطعتها قائلاً:

- لست عاشقًا ولا أفكر بالزواج ولكن الأرق.. فمنذ فترة وأنــا لا أستطيع النوم..

obeikandl.com

- لماذا لم تُخبرني؟

- لم أكن أريد إزعاجك.. وقد قرأت أنه في حالة الأرق من الأفضل النهوض من الفراش وعمل شيئًا ما..

- ولكنك لا تعمل شيئًا..

نظرت إليها بضجر:

- وأنتِ كم مضى من الوقت وأنتِ تتجسسين على ما أفعل؟

- أنت زوجي ومن حقي أن اعرف كل شيء عنك وأن أقلق لأجلك.

كنت أكره تلك الكلمات التي ترددها المرأة في كل مواجهة عاطفية مع الرجل، أنها زوجته ومن حقها أن.. وكنت أريد أن أقول لها إنه من حقها أن تقلق ولكن ليس من حقها أن تفرض علي ما أشعر به وما لا أشعر به، وأن كلمة حقها تلك بدأت تخنقني، وأن ترجمتها الحرفية بالنسبة لي هو أنها تخاف على أمنها كأنثى ولا تخاف أن تخسرني كرجل، كنت سأحبها أكثر لو أنها تحدثت معي لتفهم لماذا أقلق؟ ما الذي يُتعبني؟ ولكنها وضعت في البداية حقوقها قبل مشاعري، وهكذا قررتُ أن أعطيها حقوقها الكاملة ولكن مشاعري لا ملكية لها عليها حتى ولو كان بيننا مئات من عقود الزواج..

- لا تقلقي فهذا شيء يحدث مع الكثير من أصدقائي بسبب ضغوط العمل ثم لا يلبث أن ينتهي، ولكنني لا أفكر بالزواج ولا أحب أحد.

- ولا تحبني أنا أيضًا..

- لا.. لا.. أحبك دائمًا فأنتِ زوجتي، ولكنني قصدت بأنني لا أحب أحد غيرك..

وبصوت متردد قالت:

- ولكنك لم تعد ترغب بي مثل السابق!

لم أكن أرغب بالرد، فالضجر أصبح ثقيلاً على نفسي ولكنني تابعت قائلاً:

- ربما هو السن.. أو ربما هو الأرق.

وبانزعاج خفيف قالت:

- ولكنك لست مُسنًا.. ثم إن الأرق يمكن علاجه..

لم أتمالك نفسي وأجبتها:

- إذا كان هذا الموضوع يزيد من اطمئنانك بأنني لا أحب غيرك ولا أفكر بالزواج فاطمئني وأعطيني بعض الوقت فأنا مُتعب قليلاً..

تابعتْ الحديث بأمور كثيرة وكنت أنا في أفكار أخرى.. نظرت إليها وفكرت بأنني ربما أظلمها بأن لا أشعر تجاهها بأي شيء، وأن يقظة الضمير هذه صعبة جدًا في لحظات كهذه، ألا أحبها ولا أحتمل العلاقة الزوجية معها،وبنفس الوقت أصطنع المشاعر التي تريدها. وكي أخفف من شعوري بالظلم تجاهها احتضنتها وطمأنتها بأنني لا أزال أحبها كالسابق، وربما أكثر، وشعرت بأن حواسها هدأت وعادت الابتسامة تعلو وجهها، وعادت الكآبة تسيطر على روحي، ونظرت عبر النافذة انتظارًا لحلول الليل.

(١٠)

لا أزال أتجنب الصورة الجدارية المحفورة بذاكرتي والتي جعلتها وبكل قواي صامتة، ولكنني لم أستطع أن أجعلها تختفي من عالم ذكرياتي، فهي تقف بجمود خلف كل ذكرياتي وكل محاولاتي لطمس معالمها باءت بالفشل، كل ما استطعت فعله هو جعلها صامتة وما يؤرقني في لعبة الذكريات هذه هو أن تسترجع هذه الصورة صوتها، لسنوات استطعت أن أتعايش معها ولكن بصمت، ولا أدري كيف سأواجه هذا الصوت من جديد..

كما في كل الألعاب إذا تم إسقاط أي جزء من اللعبة لن تنجح اللعبة، ولن يستمتع اللاعبون، ولكن لعبتي هذه مؤلمة، ولا أجد بها أي متعة حين يعود لهذه اللوحة صوتها القديم.. ولكنني لابد أن استمر بها لأنها تدفعني لذلك، فلم يعد لدي الخيار بالتوقف الآن، خصوصًا وأنني أدمنت وحدتي الليلة، وهذه الوحدة تجعلني أحتمل عملي وزوجتي ووحدتي وتعاستي، طفولتي تمتزج بصراخها المُدوي: "أحمد.. تعال هنا"، وحين أتأخر بالحضور تنهال ضرباتها على جسدي دون توقف، ويقف سامح وأيمن يصرخون باكين طالبين منها التوقف، ثم يأتي دور التالي منا ليقف الآخرون يبكون

طالبين منها التوقف، كنا نلعب ولكن بكل ما نمتلك من حذر طفولي، ولكن كان لابد من كسر بعض الأشياء وإحداث الفوضى في البيت، فكانت صرخاتها المدوية تشل كل رغبة لدينا في اللعب، فنهرب تحت أي سرير أو في أي خزانة ولكنها وفي كل مرة لم تكن تجد صعوبة في إيجادنا ويبدأ الضرب والصراخ من جديد..

ورغم صراخها الدائم, لم نعتد على ذلك الصراخ، وكانت في كل مرة تصرخ بها نشعر بأنها أول مرة وتنتابنا القشعريرة والخوف منها ومن هجومها المُفاجئ على أي منا.. انتقل ذلك الخوف معنا إلى المدرسة، فما أن تصرخ المدرسة حتى تنتابنا تلك القشعريرة وذلك الخوف ونتجمد في أماكننا دون حراك.. واستمر ذلك الخوف حتى مع أولاد المدرسة، فلم تكن لدينا أي قدرة للدفاع عن النفس، وكانت وسيلتنا الوحيدة هي الهروب، فكُنا نُسمى بالجبناء، في البداية كنا نشكو لأمي ما يحدث معنا في المدرسة وأن الأولاد يضربوننا وكانت تذهب للإدارة وتحاول أن تحل مشاكلنا تلك ولكنني توقفت عن الشكوى لها حين صرخت: "لو أنكم لستم جبناء لما ضربكم الأولاد.. جبناء وضعاف الشخصية.. لقد تعبت منكم ومن مشاكلكم هذه.."، لم أعد أستمع لما قالته بعد ذلك، كان يكفيني أن أستمع لتلك الكلمة التي يرددها الأولاد تقولها والدتي لأنسحب لعالمي ولا أشكو لها أي شيء بعد ذلك اليوم.. أما إخوتي فتابعوا الشكوى وتابعت هي التدخل لأجلهم في المدرسة.

ومنذ أن قالت لنا بإننا جبناء؛ ولأن تلك الكلمة صدرت منها، كان يجب أن أتوقف عن كوني جبانًا تحديًا لها، وفي اليوم التالي قررت أن أضرب من يضربني، وألا أهرب حتى ولو قتلني.. في البداية كان الخوف أكبر مني ولكنني حين تذكرت كلماتها نسيت من كان يقف أمامي وكنت أنهال بالضرب والركل على تلك الكلمات وتلك الصرخات، ولم أتوقف عن الضرب إلا بتدخل أحد الأساتذة، ومنذ ذلك الوقت لم يجرؤ أحد على ضربي خوفًا من شراستي..

كنت سأسامحها لو اقتصر الضرر الذي سببته علي، ولكن كلما رأيت أيمن وسامح وشخصيتهما الهزيلة وخوفهما من أي شيء يتحرك حولهما زاد حقدي عليها.. وفي مرحلة لاحقة أصبحوا يلجئون لي لأدافع عنهم ضد ضربات الأولاد، وكل جهودي بأن أجعلهم أقوياء يدافعون عن أنفسهم باءت بالفشل رغم كونهم أطول من أقرانهم وأقوى بنية، ولكنه ذلك الخوف الذي زُرِعَ بأرواحهم منذ طفولتهم على يد من يُفترض بها أن تكون أرحم الناس بهم.
كانوا من الأوائل في المدرسة ولكن حين يُطلب منهم قراءة أي مقال أو الإجابة الشفوية على أي سؤال يتلعثمون وينظرون حولهم كأنهم يريدون أن تنشق الأرض وتبلعهم.. حاول بعض الأساتذة معرفة السبب ولكن كان ممنوع علينا الحديث عن أي شيء يدور في البيت وإلا أصابنا عقاب شديد.. فاعتقدوا بأنه الخجل لأننا لا نخرج كثيرًا من البيت.

كانت غرفتنا هي الملاذ الوحيد، خصوصًا حين نرها نائمة نلتمس شيء من السكينة والهدوء وربما تبادلنا بعض النكات.. وكنت أنا ملاذهم الثاني، فكانوا يشعرون بأنني أقوى منهم وأنني مصدر حماية لهم، وتلك الحماية كانت تجعلها تتوتر أكثر فأنال أنا القسط الأكبر من العقاب، ولكن ذلك الصوت الصلب بداخلي كان يتحداها ويزداد إصرارًا على المُضي قُدمًا في الحياة.

كان والدي يرى خوفنا ويصمت، ثم نسمعه يتحدث معها بغضب فتصرخ بوجهه وتقول له: "اجلس في البيت وقم أنت بتربيتهم وسوف تتحول إلى مجنون خلال أيام"، فيرد عليها: "ولكن الخادمة هنا اطلبي منها ما تريدين"، ويستمر الجدال لوقت طويل ثم تبدأ بالصراخ وتسير بين غرف المنزل بعصبية شديدة فيزداد خوفنا ونقبع في زاوية إلى أن تجلس في مكان ما، ولشدة خوفنا منها في تلك اللحظات كنا نتمنى ألا يدافع عنا والدي لأنها تُصبح أشد عصبية وعنفًا معنا، خصوصًا بعد أن يغادر المنزل.

في مرات لا تُحصى حاول والدي أن يتدخل وأن تتوقف عن أسلوبها ذلك ولكن دون جدوى، وفي يوم كنت أعتبره تاريخي لدى حدوثه، وقف والدي بوجه والدتي في وسط الصالة الكبيرة بعد أن رأى الكدمات على جسد أخي أيمن، ولم يطلب منها أن يتم الحديث بداخل غرفة النوم وقال لها بصوت حازم:

- هذا يكفي لقد صمت كثيرًا ولا يمكن لهذا الوضع أن يستمر أكثر من هذا.. أنت تؤذين الأولاد كثيرًا، لا أصدق بأنك من تسبب بهذه الكدمات الحمراء والزرقاء على جسد ابنك..

وقفت صامتة ولم ترد بكلمة وتابع والدي ولكن بصوت أقل حدة:

- اسمعي يا نائلة لماذا لا تذهبي لرؤية طبيب نفسي فعصبيتك هذه ليست طبيعية..

وقبل أن يتابع كلامه صرخت بصوت مدوي:

- ماذا؟ أتتهمني بالجنون.. أنت المجنون أنت وأولادك، لا أريد أن اسمع المزيد وسوف أترك لك البيت والأولاد كي تربيهم بطريقتك..

وذهبت مسرعة لأخذ أغراضها ولا يزال صراخها مدويًا في أرجاء البيت.. لحق بها والدي مسرعًا وهو يطلب منها أن تهدأ وأنه لم يقصد أنها مجنونة، ولكنها تابعت الصراخ إلى أن غادرت المنزل وغرق المكان بهدوء غريب..

أتى والدي كي يتحدث إلينا ولكن الكلمات لم تُسعفه فقال بصوت مخنوق:

- سوف تعتني الخادمة بكم وإذا احتجتم لأي شيء وأنا في عملي فاتصلوا بي..

ولأول مرة نشعر بالهدوء يُخيم على المنزل.. في الأيام الأولى كنا سعداء لهذا الهدوء ولكننا وبعد فترة من غياب أمي أدركنا مدى

أهميتها في ترتيب أمور البيت وأمور دراستنا، ومتابعة أمورنا في المدرسة وكان أبي يبدو مُشتتًا وفاقدًا للتركيز بين تلبية احتياجاتنا وبين انشغاله بعمله.. وبعد مرور شهر على غيابها بدأ الأمر يبدو أكثر صعوبة فالخادمة لم تكن تستطيع الاعتناء بنا وبالبيت وبالدراسة، لم نكن سعداء لغياب أمي وكنا نتمنى عودتها ولكننا لم نكن نريد أن يعود ذلك الخوف وذلك الصراخ الذي يهز جدران المنزل، ولكن ورغم كل شيء كنا بحاجة لها..

وبعد مرور شهرين عدنا من المدرسة لنجد أمي في البيت.. احتضنتنا وبكينا لأننا كنا سعداء بعودتها وكنا خائفين منها بنفس الوقت فلم ندري هل نبكي شوقا لها أم خوفًا منها، وفي تلك اللحظة في حياتي تمنيت لو لم يكن لدي أم، لأنني شعرت بصراع لا أزال لهذه اللحظة لا أستطيع أن أتخطاه أن أحبها وأن أخاف منها.. أن أتمنى وجودها وأن أدعو الله ألا تعود، أن تكون أمي أو لا تكون..

وأخبرتني الخادمة لاحقًا بأن أمي قبلت أن تعود للبيت بشرط ألا يتدخل والدي بطريقة تربيتها لنا، وهو ما التزم به والدي إلى أن غادر الحياة وتحول اليوم التاريخي الذي رأيت به والدي رجل حقيقي إلى يوم هزيمة.. وبعد أن أصبح أبي عملاقا عاد ليكون قزمًا أمامها.. وراودني الشك حول نفسي حين أصبح رجلاً هل سأكون عملاقا أم قزمًا؟ كنت أخجل بأن أفكر بوالدي بتلك الصورة

ولكنها صورة كانت تفرض ذاتها علي.. فقط بعد مرور سنوات طويلة أدركت أن والدي كان عملاقا لأنني فهمت ولكن متأخرًا وبعد وفاته بأنه كان عملاقا لأنه ضحى بسعادته وبحياته لأجلنا كي تبقى أمي معنا ولا نتربى على أيدي الخادمات أو مع زوجة أب.. لقد طلبت منه عمتي مرارًا أن يتزوج بامرأة أخرى ولكنه كان يرفض بإصرار لحرصه وحبه لنا، بعد سنوات طويلة فقط أخبرتني عمتي بحقيقة موقف والدي تجاه أمي.. وحينها عدت باكيًا إلى البيت دون أن أجد أحد أشكو له حزني، لأنني وبأعماقي كنت أرى والدي طوال حياته قزمًا ولم أكن أحب حتى الحديث معه لصغر حجمه بنظري وكان يشعر هو بذلك فلم يسألني ولم يوضح لي، لقد رحل تاركًا أسئلة كثيرة دون إجابات.. عمتي كانت هي وسيلتي الوحيدة لمعرفة حقيقة والدي.

(١١)

ينتهي العمل في مكتبي ويغادر جميع الموظفين.. السكون يغلف المكان وأراقب منظر المدينة الغارقة في الظلام من خلال زجاج نافذة مكتبي، تلتمع أضواء المدينة كأنها نجوم وقعت من السماء فأضأت ليل المدينة الفاحم.. هذا الليل الذي يتحول إلى خصم شرس يغرس أنيابه بروحي وأفكاري ويُذكرني بوحدتي العميقة، وأنني مُحاط طوال اليوم بعشرات من الأشخاص، وها أنا في نهاية اليوم أغرق بوحدة عميقة لا قرار لها، طوال حياتي سمعت الآخرين يرددون بأن المرأة تشكو الوحدة، وتشعر بها أكثر من الرجل، وأن الرجل لا يكترث لكلمة الوحدة، لأنه وببساطة دائمًا مشغول.. وها أنا هنا خلف الزجاج اللامع أتواجه أمام تلك الفكرة الشائعة، وأدرك حتى أعماق روحي بأن الرجل أيضًا يشعر بالوحدة، وأنها تنهشه فيُضمد جراح وحدته بأكوام من الأوراق، وبدعوات للغداء والعشاء، ولكنه يعود وفي كل مرة وحيدًا وخاويًا، خصوصًا حين يفقد أي شعور بالحب والألفة تجاه الزوجة التي تنتظره في البيت، وتزداد وحدته حين يعرف تمامًا وبأعماقه بأنها لا تحبه لذاته، بل للامتيازات التي تتمتع بها كونها زوجته، فلا يرغب بالعودة لبيته،

ولا يحب البقاء بمكتبه، فيُراقب شوارع المدينة المُضيئة، ويتخيل بأنه يمشي بتلك الشوارع مع إنسانة ما تحمل له مشاعر حقيقية، وأنه لا يرغب من الحياة سوى أن تكون بجانبه..

هل يحق لي بهذه السن أن أحلم بشيء من الحب؟ هل يحق لي أن أفكر بامرأة أخرى حتى ولو كانت من نسج خيالي، أرسم ملامحها كما أريد وأرتب أفكارها كما أرغب وألوِّن مشاعرها كما أشعر؟ هل يحق لي شيء من الرومانسية وأنا أبلغ الثامنة والخمسون متزوج ولديَّ أولاد؟ أكاد استمع للانتقادات التي ستوجه لي وأرى نظرات الاستنكار، فأنا في مجتمع لا ينتقد الشراهة تجاه الأكل والمال والمنصب، ولكنه يصب جام حنقه وانتقاده حين أعلن بأنني بحاجة لعاطفة ما لحب ما وأن زوجتي لم تعطني هذا الشعور، أستطيع أن أعقد مئات العقود وأن أسعى للمزيد وأن أطمح للتعرف على أهم الشخصيات ولكن لا يحق لي أن ابحث عن حب جميل وحقيقي..

ولكنني وفي حقيقة الأمر كنت ولا أزال أخاف أن أستسلم عاطفيًا للمرأة، هذا هو زواجي الثاني وفي كلاهما أخاف أن أمنح مشاعري بشكل كامل أو حقيقي، فجزء من خوفي كان يأتي من الخوف الذي زرعته أمي بأعماقي من المرأة وطبيعتها المُتقلبة، وجزء زرعه والدي بي عبر جملة كان يرددها لي: " لا تثق بالمرأة، أعطها من مالك ووقتك ولكن لا تمنحها ثقتك الكاملة.. لأنها وفي لحظة

تتحول إلى عدو شرس.. وبحجم تلك الثقة وذلك التعلق العـــاطفي بها تمنحها أسهم أكثر كي تجرحك وتؤلمك بل وتدمرك".

والآن أشعر بالتعب لأنني لم أمنح تلك الثقة، ولم أكن أتصور بأي لحظة من حياتي أن منح الثقة لأحد ما ليس السماح له بالـــدخول إلى أعماقنا الدفينة فقط، بل يجعلنا أيضًا نتخلص من ثقل ما تحمله تلك الأعماق، فبمجرد السماح له بالدخول نشعر بأن الأشياء أخف بل وأحيانًا بأن لا وزن حقيقي لها..

وها أنا وبعد كل هذه السنوات أشعر بثقل ما في أعمـــاقي وأشـــعر بالتعب ولكنني لا أستطيع حتى بعد كل هذا الوقت أن أدع أحد مـــا يدخل لأعماقي، خصوصًا إن كانت امرأة وإن كانت تُجيـــد التمثيـــل مثل زوجتي.. والسماح للمرأة بأن تدخل لأعماقي ليس كما اسمح به لصديقي فلدى المرأة تلك القدرة التي تجعل معاناة الرجل أخف أو واقعه أشد قسوة، فكل أصدقائه مجتمعين لا يستطيعوا أن يقدموا تلك الراحة النفسية التي قد تقدمها امـــرأة صـــادقة بمـــشاعرها، وواعية لدورها كامرأة.. ولكن أين سأجد هذا المرأة؟ وكيف لي أن أهجر موروث ثقافي ثقيل حذرني منها؟ ولكن ودون تفكير اتصلت بصديقي أشرف، لأنه الوحيد الذي قد يجعلني أخـــرج مـــن هـــذه الوحدة الخانقة بهذه الليلة الشتوية الطويلة، وخلال قليل من الوقت وصل أشرف لمكتبي بأناقته وعطره الثمين..

قلت له مازحًا:

- أريد أن أعرف من أين لك بكل هذا المرح منذ أن عرفتك؟

ضحك كثيرًا وقال:

- لأنني لا أفكر كثيرًا مثلك.. تركت التفكير لك واتجهت للتنفيذ.

- وما هو الذي تنفذه؟

- أن أحيا بكامل حريتي وأتمتع بمالي..

- وزوجتك؟

- ماذا بها! هي أيضًا تتمتع بمالي وتحيا الحياة التي أرادها لها والداها، رجل وسيم وغني، وهكذا كل الأطراف راضية.

- أجل.. ولكن..

- ها أنت عدت للتفكير من جديد.. اسمع يا صديقي.. أرى أسئلة كثيرة تدور برأسك ولا تخصني وحدي، بعضها يخصك وبعضها يخصني، ولكن مظهرك يوحي لي بأنك مُتعب وضجر وإلى أخره من مصطلحات التعاسة.. لقد نصحتك عدة مرات أن تتبع طريقتي في الحياة، ولكنك ترفض وتتبرع بنصائح لا أحتاج إليها، وأعتقد أنك الليلة لست بحاجة لنصيحة بل للتنفيذ.. اسمع كلامي فقط هذه الليلة وخض التجربة.. ما رأيك؟

ورغم رفضي لمقترحاته في السابق إلا أنني في هذه الليلة قررت أن أجرب شيء آخر، وأن لا أكيل له النصائح وأدخل لعالمه ولو لساعات قليلة.. فقلت له دون تردد:

- أنت ذكي جدًا ولن أغلبك خصوصًا بهذه الليلة.. أين سنذهب؟

- قبل أن نذهب لأي مكان أريد أن تعدني بأنك لن تعترض ولن تنتقد..

وضحكت ثم أجبته:

- لا انتقاد ولا اعتراض..

أجرى عدة مكالمات هاتفية واتجه نحو فيلته الكائنة خارج المدينة، وفي السيارة الفخمة أشعل السيجار وقال بصوت عميق:

- لقد كنت متأكد بأنك سوف تصل لحالة الملل هذه..

- لماذا؟

- لأن عيونك كانت تقول لي دائمًا إنك لست سعيد، والتعاسة تتقنع تحت مُسميات كثيرة منها الملل والضجر والغضب والشره والشهوة.

- وكيف تستطيع أن تخلع القناع عن هذه التعاسة لدى الآخرين؟

- لأنني وببساطة جربت كل هذه الأقنعة، فاخترت أكثرهم صدقا وقربًا للحقيقة.. أن أتصرف كما أرغب دون قيود، وأن أبحث عن السعادة في أي طريق أو زاوية، وقبل كل شيء لا أبحث عن السعادة الدائمة لأنها ليست موجودة، السعادة بالنسبة لي متناثرة في كل مكان، التقط البعض منها إن استطعت، ثم أشكلها كما أريد لدقائق لساعات أو لأيام، وحين تتلاشي لا أحزن لفراقها لأنه هناك المزيد منها دائمًا في ذرات هذا الكون.. ولكن التعاسة لا تتناثر مع

ذرات هذا الكون، بل تأتي ككتلة واحدة تجثم على الصدر، وكلما مكنتها من صدرك اتسعت مساحتها لتحتل القلب والروح والجسد.. وقد تعلمت جيدًا أن أقاومها وألا أدعها تجثم على صدري ولا تحتل مساحتي في الحياة، فأنا الذي أفتِّت تعاستي لتتناثر في الهواء.

- وكيف تفعل ذلك؟

- لا أفكر بها، وكلما قاومتني سيطرت على أفكاري، وبإبعادها تتقلص مساحتها، حتى ولو استمرت فلا يكون لها تأثير مدمر على وجودي كما لو كانت كتلة جامدة راسخة.. نحن جميعًا نمتلك شيء من السحر في أرواحنا، وهذا السحر هو فهم الأشياء من حولنا وفي أعماقنا، فلو فهمتها وسيطرت عليها؛ تمارس سحر ما على وجودك بأن تجعله أرق أجمل أو أقوى.

وقبل أن أرد عليه اقتربنا من الفيلا، شعرت بالتردد ولكنه وضع يده على كتفي مُشجعًا وقائلاً:

- مرحبًا بك لعالم جديد.

(١٢)

كانت الأضواء خافتة في الصالة الواسعة وصوت الموسيقى الهادئ يغلف المكان بأجواء مخملية رائعة.. اختلطت ألوان الأثاث الخشبي بلون السجاد الخمري، وأحيطت الصالة بالستائر الحريرية البيضاء المنسدلة على الأرض، لم يكن هناك أي إضاءة في سقف الغرفة فقد تناثرت الأضواء الخافتة على جوانب الصالة.. نظرتُ حولي وسألتُ نفسي سرًا: "لماذا لم يخطر ببالي أن أضفي هذه اللمسات الساحرة على بيتي الذي يبدو جافًا وخاليًا من أي أجواء.."، نظرت إلى أشرف وقلت مبتسمًا:

- رائع.. من صمم لك هذه الصالة الجميلة؟

- لقد كانت مهندسة مُبدعة اسمها ربا..

- وأين هي الآن؟

- لا أدري.. ربما سافرت أو بقيت لا أعرف عنها شيئًا..

- هل كانت جميلة مثل تصميمها هذا؟

- لا.. لم تكن جميلة.. ولكنها كانت مُثيرة للاهتمام..

- لماذا؟

- لأنها تستمع لأفكاري كما أريد، لا تتحدث أو تستفسر، وحين تنفذ ما أريد تتقنه بشكل مُدهش.. لقد كانت من أقل النساء حديثًا.. يمكنك أن تقول بأنها كانت تعيش في إبداعها أكثر مما تعيش مع الآخرين، لذلك ورغم كونها مثيرة للاهتمام لم أنجح بأي حوار معها، فتركت موضوع الاهتمام بها، عدا كونها ليست جميلة.. هيا دعك منها الآن..

وخلال دقائق دخلت فتاتين جميلتين إلى المكان، شعرت بالحرج ورغبت بأن أنسحب، ولكنني تذكرت بأنني حضرت بسيارة أشرف فجلست على الكنبة بهدوء أراقب خطواتهن المتمايلة.. جلست إحداهن قربي وسألتني عن اسمي، ثم نهضت وهي تُخبرني بأنها سوف تُحضر شراب لي ولها، ورأيتها من بعيد تُحضر كأسين من نوع ما من الخمر، وحين أرادت أن تناولني كأسي اعتذرت بضيق وأخبرتها بأنني لا أشرب الكحول، وشعرت بندم عميق لحضوري هنا ولكنني وعدت أشرف بعدم الاعتراض..

نهضت إحداهن وقامت بتغيير الموسيقي وبدأت بالرقص على أنغام الموسيقى الشرقية وبدأت أشعر بثقل الجو، وبأنني أريد بالفعل أن أغادر.. فنهضت وطلبت من أشرف أن يلحق بي إلى المطبخ وما أن دخل حتى قلت غاضبًا:

- ما هذا؟ كيف تضعني بهذا الموقف الحرج، فلا سني ولا أخلاقي يسمحوا لي بهذا العبث..

ضحك بصوت عالٍ ثم قال:

- أنت بالفعل تناقض نفسك.. منذ قليل كانت الوحدة تكاد تقتلك والآن لا يُعجبك ما يدور هنا، الكثير من الرجال يتمنون رؤية فتيات بهذا الجمال، أنت غريب فعلاً اسمع، أعطي نفسك فرصة أخيرة وسوف نرى، دع جانبًا ولو لساعة قناعاتك الأخلاقية وانسى موضوع سنك فهن يفضلن الرجال بسني وسنك.. وفي كل الأحوال أنا لن أعود للمدينة قبل انتهاء سهرتي هذه..

عدت للجلوس في مكاني من جديد وجلست إحداهن بقربي، أردت أن انهض من جديد ولكنها وضعت يدها فوق يدي، مكثتُ للحظات لا أدري كيف أتصرف.. فوقعت عيناي على أشرف وهو يحتضن صديقتها فسحبت يدي ونهضت غاضبًا وتوجهت نحوه قائلاً:

- الآن ودون أي تعليق أريد أن تُعيدني إلى المدينة..

وبنبرة غاضبة أجابني:

- قلت لك بإنني لن أعود الآن.. أنا لم أجبرك على الحضور وإذا رغبت أذهب للطابق العلوي لتنام في إحدى الغرف وتدعنا نُكمل سهرتنا...

- لا أريد أن أنام، أريد أن أغادر فورًا وإلا لن ترى وجهي طـوال حياتك.

وبعصبية تناول مفاتيح سيارته وأشار لهن بأنه سيعود ولحقت به باتجاه السيارة، ساد الصمت بيننا بعضًا من الوقت فالتفـت إلـي قائلاً:

- لا أفهم عن ماذا تبحث؟ منذ فترة وأنا ألاحظ عليك هذا الشرود، لقد جعلتك تتعرف على عالم آخر أجد به متعتي، وأخرج من خلاله من روتين الحياة ومن الضجر من حياتي الزوجية المُكـررة منـذ زمن لم أعد أذكره، فزوجتي لم تعد سوى شـريكة بيـت وليـست شريكة حياة.. عمومًا.. أنا لا أفهمك حقًا..

وبعد برهة من الصمت سألته بهدوء:

- هل أنت حقًا سعيد بهذا النمط من الحياة؟

- أجل.. ولما لا! أتسلي وأستمتع، وزوجتي مكانها تصون البيـت وتعتني بالأولاد، هذه هي إحدى امتيازات كونك رجل ولديك المال..

- ألم تفكر بأن هذا حرام وأن الله لا يرضى عن هذه الحياة؟

نظر إليَّ باستغراب وقال:

- لم أكن أدري بأن لديك هذا التفكير الديني!

- أحيانًا لا تستطيع أن تشرح ما تعتقده من ناحية الدين ولكن مـا تتصرفه يقول كل شيء، وأنا لا أعتقد بأنني قادر على أن أستمتع بمثل هذه الحياة لأسباب دينية ثم لأنني..

وبعد أن صمت قليلاً طلب مني أن أتابع:

- أرجو ألا تفهمني خطأ أو أن تغضب مني.. أشعر بالاشمئزاز من هذا النوع من النساء..

- ولكنهن لسن..

- أجل.. أجل.. ولكنهن يبعنك حب رخيص مقابل المال، فما الفرق هل أنهن يتقاضين أجرًا أعلى..

- إنهن صديقات لي..

- أجل.. أجل.. ولكن أريد أن أسألك وأرجو أن ترد بصدق، ما هو شعورك حين ينتهي كل هذا العبث أو مسرحية السعادة هذه؟ هل تشعر حقًا بالسعادة؟

صمت قليلاً وعاد لتدخين السيجار:

- الحقيقة هي.. حسنًا.. في البداية كنت أشعر بالسعادة الفائقة وأنني أتحرر من كل القيود، ولكنني الآن اعتدت على هذه الحياة لم أعد أمارسها لحبي لها بل لاعتيادي عليها، وكأنني لو توقفت عن هذا اللهو سوف أفقد توازني، ثم إنني بحالة بحث دائم عن سعادة ما مع امرأة لم تأتِ بعد..

- وربما لن تأتي.. أو ربما أتت ولم تلاحظ أنها هي، أو ربما أنت لا تستطيع أن تُقيم علاقة حقيقة تجعلك تدرك أن كل هذا اللهو ليس سبب للسعادة.

عاد للصمت، وصمت بدوري.. وبعد حين قال:

- وأنت عن ماذا تبحث؟

- أنا لا أبحث ولكنني أعرف تمامًا ما أريد.. وما لا أريده بالتأكيد هو هذا الحب الرخيص الذي تقدمه شابة بعمر ابنتي مقابل المال أو مقابل خدمة ما.. فلو اشتريت هذا الحب لأصبحت ذاتي أرخص منه، ما أبحث عنه أو انتظره أو أحلم به هو امرأة أثق بها وأرتاح بقربي منها دون كلمات، وألا أهرب من وجودها بحياتي بالجلوس لساعات طويلة خلف مكتب ما، امرأة تجعلني أحب هذا الوجود لأنها معي..

- هذا جميل ولكنه يُشبه الحلم أكثر مما يُشبه الواقع، فأين ستجد مثل هذه المرأة؟

- هذا ليس حلم، وحتى ولو كان صعب التحقق فيحق لي أن أحلم، ألا تحب أن يكون لديك مثل هذه المرأة؟

- أعتقد أن مشكلتي ليس بأن أحلم بامرأة مثلها، ولكن مشكلتي هي أنني بمجرد أن أجدها سوف أعتقد أنه يوجد أخرى أكثر إثارة للاهتمام، أنا لا أستطيع أن أبقى بعلاقة ثابتة وناضجة طويلاً فلتقل بأنني أضجر أو أهرب، يعتقد الناس بأن الرجل الذي يتنقل من امرأة لأخرى سيء ولا يدرون بأنه ضحية نفسه، لأنه لا يستطيع أن يجد نفسه بعلاقة ثابتة، وفي أغلب الحالات ينتهي وحيدًا، وربما لهذا السبب أحرص على ألا تعرف زوجتي بحياتي السرية هذه وذلك كي أضمن بقائها معي حين أتقدم في السن.

عدنا إلى الصمت من جديد ووصلنا إلى مكتبـــي وقبـــل أن أنـــزل ابتسمت قائلاً:

- هل ستعود من جديد؟

- كلا.. لقد أفسدت سهرتي وجعلتني أفكر، لقد غلبتني هذه المرة وأجبرتني على التفكير وهو ما أتجنبه منذ سنوات.

obeikandl.com

(١٣)

استقبلتني ابنتي الصغيرة نهاد بأيدي مفتوحة تريد أن تضمني، فضممتها إلى صدري ولم استمع لما كانت تقوله زوجتي، ولتذمرها لتأخري.. ضممتها لصدري ورغبت بأن أشعر بدفء حبها الصادق النقي، وكانت دقائق من الشفاء لروحي المُتعبة بعد أن أرهقني رؤية مزاد الحب الرخيص، نظرت إلى عينيها الواسعتين، ولم أرغب بأن أنقل نظراتي عن وجهها الناعم والدافئ، وحين لاحظتْ زوجتي عدم استماعي لها؛ طلبت منها أن تعود لغرفتها للنوم، ولكنني أجبرتها على البقاء بحضني، تذمرت زوجتي فقلت لها:

- دعيها فأنا مشتاق لها..

- أجل ولكنك تراها في كل يوم..

- ولكن اليوم أنا مشتاق لها أكثر..

وبسعادة غامرة بدأت تُحدثني عن أحداث يومها الصغير في المدرسة وعن ألعابها وصديقاتها، وأنا أنظر لها وأستمع لكلماتها وكأنني أراها لأول مرة، فقد اكتشفت اليوم بأن هذا الحب الصغير هو ربما السعادة الأخيرة المُتبقية لي، وحين بدأ النعاس يُغافلها حملتها ووضعتها في سريرها ومكثت لدقائق أتأمل وجهها الملائكي..

استلقيت على سريري وحضرت زوجتي تريد أن تتابع الحديث فأشرت لها دون أن أتكلم بأنني مُتعب جدًا، وأغلقت عيني كي تعتقد بأنني نمت لشدة التعب، وبعيون مُغلقة وقلب مستيقظ سألت نفسي مرارًا ودون أن أعثر على إجابة: "لماذا وبهذه السن المتقدمة يتملكني شعور الوحدة الخانق هذا رغم وجود زوجتي بقربي؟ لماذا الآن استيقظ هذا الألم؟ لماذا لا أكتفي بما يقوله بعض أصدقائي بإن الزواج يتغير وتصبح العشرة هي المهمة مع الوقت؟ والأشد قسوة من هذا الألم هو رغبتي المُلحة بأن أبتعد عن زوجتي، ألا أسمع صوتها، ألا ألمس جسدها، أن أتوقف عن التمثيل بكوني زوج مُحب، وكأنني أطلب من ذاتي أن تتحول لذات أخرى"، أتخيل نفسي سائرًا في الشوارع دون قيود مادية أو معنوية أو عاطفية، أسير فقط أنا ونفسي وحيدًا صامتًا، وخلال هذه الصورة المُتحركة أشعر بشيء من الراحة، فأحاول عبر أحلام يقظتي أن أسير في كل شوارع المدينة دون توقف، كي تستمر تلك الراحة وأتذوق تلك الحرية الحالمة ولو لدقائق.

وأستيقظ من جديد لأستمر بلعبتي الليلة والتي لم تعد لعبة أصبحت جزء من وجودي وأدمنتها، أريد أن أذهب بعيدًا وعميقًا في ذاتي وذاكرتي، واليوم تعود الصورة الشفافة تُغطي صورة أمي الجدارية، صورة أم جمال جارتنا في بيتنا القديم والتي علمتني معنى الأمومة وأنها يمكن أن تنشأ بين طفل وامرأة ليست أمه، عادت تلك الصورة

الناعمة لذاكرتي مع كل القيم الدينية التي علمتني إياهـــا، وأننـــي ومهما تعرضت للضغوط في الحياة لابد أن أبتعد عن الحرام كابتعادي عن مرض خطير، أو خطر داهم، وهو ما حصل معي اليوم خـــلال لقائي بأشرف..

لسنوات طويلة كنت أرفض تلك القيم لأنها أتت من والدتي، التـــي كانت تداوم على حضور دروس الدين وتلتزم بالـــصلاة، ولكنهـــا وبمجرد أن تعود للبيت تتحول إلى امرأة طاغية لا تعرف شيئًا عن الرحمة ولا السكينة، تنعتنا بأسوء الألفاظ وتضربنا لأتفه الأسباب، وتُهين والدي في أي مناسبة دون مراعاة لمشاعره ومشاعرنا..

كنت أستمع لكلماتها عن الدين دون أن أنظر لوجهها، وأرفض أن أتقبل تلك الكلمات لأنها تصدر منها، وأرفض الصلاة لأنها تصلي، وأرفض الذهاب إلى المسجد لأنها تذهب.. لم يكن الدين بالنـــسبة لي سوى نظريات تحفظها والدتي دون أن تطبق منها شيئًا، بينما إخوتي التزموا بالصلاة وطبَّقوا كل ما كانت تقول لهم حرفيًا لخوفهم منها، ولكن ما أن تُتاح لهم الفرصة للكذب أو للسرقة أو ملاحقـــة الفتيات لم يكونا يتوانا عن ذلك، فيبدوان كالملائكـــة أمـــام أمـــي وكشياطين أمامي ويترافق كل ذلك مع خوفهم الشديد منها، ورغم أخطائهما المتكررة كانت تكيل لهم الإطراء والثناء لأنهمـــا يـــصليا ويستمعا لما تقوله عن الدين أما فأنا فلم أكن أكذب ولا أسرق ولا

ألاحق الفتيات وأتابع دروسي بجدية فلم يكن ينالني سوى التقريع والإهانة لأنني لا أصلي ولا أذهب إلى المسجد.

كان يمكن لوالدتي أن تجعلني أكره الدين وأن أرفضه لأنه ببساطه يذكرني بأمي، وفي التناقض الحاد الذي كانت تعيشه معنا ومع ذاتها ومع الآخرين، فقط كانت تنهانا عن أشياء كثيرة ثم تقوم بها أمامنا دون أن تبرر ذلك التناقض، كانت تطلب منا احترام والدنا وهي أول من يحتقره، وتطلب منا ألا نكذب وهي تفتعل أي شيء ليتم حرماننا من المصروف أو مما نحب، وتنهانا عن الحديث بشكل سيء عن الآخرين وأستمع لها حين تتحدث عن الآخرين وتقول أبشع الألفاظ..

نشأت وفي داخلي نفور عميق للدين، حتى أنني لم أكن أحب أن أنظر للمسجد حين أمر بقربه، أم جمال هذا الوجه الوديع الدافئ والذي احتضنني مبكرًا، لقد كنت صديق ابنها جمال ولم يكن من الصعب عليها أن تعرف حجم معاناتي لسبب بسيط وهو صوت صراخ والدتي الذي كان يسمعه كل الجيران ثم صوت بكائنا ثم صمت والدي، منذ أن دخلت إلى بيتها في أول مرة استقبلتني بابتسامة واسعة كأنني قادم لزيارتها وليس لزيارة ابنها.

وفي المرة الثانية لزيارتي لجمال أمسكت بيدي وقادتني إلى غرفة الجلوس وطلبت من جمال أن يبقى في الخارج، جلست بقربي ووضعت يدي الصغيرة بين يديها وقالت بحنان دافق:

- اسمع ابني.. هل تقبل أن أناديك بابني؟

فهززت رأسي بخجل وتابعت قائلة:

- لقد تمنيت منذ زمن أن تأتي أنت وأخوتك لزيارتي، أنا أعرف الظروف التي تعيش بها أنت وإخوتك، ولا أريد أن تخجل مني، ولا ألوم والدتك فهي عصبية وربما لها أسبابها..

نظرت لي باحثة عن رفض ما في وجهي، وحين رأت دموعي ضمت رأسي إلى صدرها وقالت بصوتٍ باكٍ:

- الآن أصبح عندي ولدين وليس ولد واحد، في أي وقت تشعر أنك متضايق تحضر إلى أمك الثانية، ولا أريد أن تقول لي لماذا أو أن تلوم والدتك أو والدك، أريدك أن تشعر بأنني أمك بالفعل.. هل تعدني بذلك؟

هززت رأسي من جديد ولم أكن أستطيع الكلام لأن دموعي كانت أقوى مني، احتضنتني بصمت ولم أحاول أن ابتعد عنها فكانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أشعر بها بحنان الأم وكانت تلك المرة الأولى التي أدرك بها مدى حاجتي لهذا الحنان.

أصبحت أم جمال أمي السرية، اذهب إليها حين أحزن وحين أفرح وحين أشتاق لها، أحب طعامها وأحب حديثها وأحب بيتها.. لم

تمنحني حنان الأم فقط بل صححت نظرتي للدين، لقد كانت تصلي وتحفظ القرآن وترحم أولادها وتحب زوجها وتحب جيرانها، كانت تطبق كل التعاليم الدينية التي تعرفها، وبحذر شديد وكأنني أخاف أن أدخل لمعركة صعبة طلبت منها أن تعلمني الصلاة وبدأت أسألها أشياء كثيرة عن الدين.. فعلمتني ومنحتني الكثير من وقتها..

فبدأت أسمح لهذا الدين أن يتسلل إلى روحي وجسدي، مع حرصي الشديد بألا تعرف أمي ذلك، كنت أصلي في بيت أم جمال، وأقرأ القرآن معها، وأشعر بأن هذا الكون كله يبدو صغيرًا ضيقًا مقارنةً مع ما أشعره وأنا مع أمي أم جمال، تحدثني أنا وجمال عن أمور الدين.. وهكذا نشأت ودون أن تدري أمي في بيئة دينية مترابطة متحابة غيَّرت كل نظرتي إلى الحياة وحتى إلى أمي، لأن لقائي اليومي بالله أمددني بالقوة والعزيمة للمضي قدمًا بهذه الحياة، لأنني كنت على يقين بأن الله معي، وأنه بعد العسر يسر، وهذا الإيمان أنقذني من كلمات والدتي التي كانت تكرر بأنني إنسان فاشل، وأن الله غاضب علي لأنني لا أصلي، والكثير من الكلمات التي استبدلتها بكلمات الله تعالى بأنه سيشرح لي صدري ويرزقني ويرحمني ويقف بجانبي ويدافع عني.. فكيف لأي قوة على هذه الأرض أن تهزمني وأنا أحمل هذا الإيمان الذي زرعته أمي أم جمال في صدري منذ نعومة أظافري، فكان نبته خضراء صغيرة، وأصبح شجرة عملاقة يستظل تحتها كل وجودي.

(١٤)

هل نستطيع فعلاً ألا نحب أحد من أولادنا؟ أن نرى في أحدهم صورة من الطرف الآخر الذي سبب لنا ألم لا تستطيع السنوات أن تضمده؟

إنها ابنتي ريم.. أحبها، لأنها ابنتي ولكن كلما أمعنت النظر بتصرفاتها أرى أنها مزيج من والدتي ومن والدتها التي طلقتها منذ عشر سنوات.. لم ترغب والدتها بالاحتفاظ بها لأنها تزوجت مرة أخرى وبقيت معي منذ ذلك الحين.

كنت أحب شخصيتها القوية وهي طفلة، ولكنني أرى وتُخبرني زوجتي بأن هذه الشخصية تتحول إلى شخصية متسلطة وعنيدة، وكلما كبرت أمامي أرى ملامح أمي ترتسم على محياها، فينتابني الخوف.. هل سوف تكون ابنتي الرقيقة ريم نسخة عن والدتي، وأنها لن تستطيع أن ترفض ميراث أتى إليها عبر العروق والدماء، وبكل قوتي أحاول طرد هذه الأفكار التي تجعلني أرى زوجتي الأولى وأمي تتقمصهما ابنتي ريم، ولكن تلك الملامح وهذه التصرفات تجعلاني أفقد تلك القوة، وأتأملها من جديد وأقول لنفسي أكيد أنا مُخطئ.

كان يمكن أن أردد لنفسي بأنني مُخطئ طوال الوقت، وأن أتصرف معها وأتجاهل كل تلك السمات والصفات والملامح التي أحفظها عن ظهر قلب، ولكن الزواج فقط هو الذي يكشف المرأة الكامنة في عقل وقلب أي أنثى.. فمهما مكثتْ في بيت والديها ومهما استمرت فترة الخطوبة، فقط ذلك السقف الزوجي يستطيع أن ينتزع كل الأقنعة مهما حاولنا الإبقاء عليها، فإن لم تسقط بهتت ألوانها، وإن لم تبهت ألوانها اهترئت لكثرة استعمالها.

رن جرس الهاتف وكان المُتحدث زوجها، قال أشياء كثيرة يشكو بها من تصرفات ريم، ولكن كل ما كنت أسمعه هو تلك الصرخات الحادة والإهانات التي توجهها لزوجها، وصراخ ابنها الصغير، ودون تفكير سألته:

- هل تضرب مجد؟

أجاب بصوت حاد:

- أجل وتضربه بطريقة هستيرية، أنا أسف يا عمي لإزعاجك ولكن الوضع صعب جدًا..

أجبته ببضع كلمات طالبًا منه أن يجعلها تأتي للبيت ليوم أو يومين ريثما تهدأ الأمور، ولم أطلب منه تلك المدة لكي تهدأ الأمور، بل لكي اهدأ أنا وأحاول أن أستوعب ما خبأته لي الجينات الوراثية من مفاجآت لم أكن أحسب لها حساب.

وقفتْ أمامي باكية تُكيل الاتهامات لزوجها لإهماله لهـــا ولابنهـــا، وجلس هو هادئًا دون أن يتكلم.. طلبت منها الجلوس وسألتها:

- هل علمتك سنوات الدراسة الطويلة أن حل المشاكل يأتي بالصراخ والضرب لابنك؟

- لا.. ولكن هو يُثير أعصابي..

- هل يُثير أعصابك حتى وهو في عمله لساعات طويلة؟

- أجل.. حتى وهو غائب أفكر ببروده ولا مبالاته وأشعر بالغضب على كل شيء..

نظرتُ إليه وقبل أن أسأله قال:

- لا أدري كيف أرضيها، كل ما أقدمه لها لا يكفي سواء أكان مال أم عاطفة.. وهذا الوضع منذ بداية الزواج، ولكنه ازداد تعقيدًا بعد وجود طفل في حياتنا، لأنني أشعر بالقلق عليه طوال الوقت، فهي تضربه بقسوة ولا أفهم لماذا تفعل ذلك..

صرخت بوجهه من جديد قائلة:

- بل تفهم وتعرف بأنك لا تهتم لي وأن أي شخص في عملك أهم مني..

لم أتمالك نفسي وصرخت بوجهها:

- اصمتي الآن.. لا أريد أن أسمعك تصرخي في وجه زوجك بهذه الطريقة، اسمعي.. لا أرى أن زوجك مخطئ ويمكـــن أن يمنحـــك المزيد من الاهتمام ولكن ليس بهذه الطريقة، أنت تدمرين حياتـــك

بهذه الطريقة ولا تصلحين الأمور، يوجد غضب بـــداخلك ولا أدري ما هو سببه، عليك أنت معرفة السبب ومعالجته، وإذا لم يكن هناك سبب ما؛ فلابد أن تراجعي نفسك كي لا يكبر الخطأ وتصبحين غير قادرة على إصلاحه..

- لماذا تعتقد بأنني مخطئة؟ أم لأنني امرأة لابد أن أكون مُخطئة، ولأنه رجل وزوج ابنتك تريد أن تحافظ عليه بغض النظر عن معاناتي معه..

وبغضب مخنوق طلبت منها أن تلحق بي لغرفة المكتب:

- أنت بالفعل وقحة ولا تعرفين كيف تتحدثين مع والـــدك ولا مـــع زوجك.. اسمعي لا أرى أن زوجك مخطئ، منذ بداية زواجكما وهو يفعل كل ما ترغبين به، ثم أليس أنت من اختارته وأحببتـــه فـــي الجامعة! ماذا تريدين الآن.. هل تريدين..

قاطعتني قائلة:

- أجل أحببته ولكن لا أطيقه الآن، ولا أحتمل أن أعيش معه، كـــل صديقاتي لهن وضع مادي أفضل مني وأزواجهن يُظهرن لهن مشاعر جميلة، أما هو فكأنني متزوجة منه منذ عشرات السنين..

- ولكنك تزوجت به وتعلمين بأنه ليس من عائلة ثرية..

- أجل.. ولكن كنت اعتقد بأنه من خلال عمله سوف يكـــون لـــه وضع مادي جيد ولكنه يضيع الكثير من الفرص بسبب مبادئ بالية عفا عليها الزمن.

- ماذا؟ هل تلومين زوجك لأنه إنسان مستقيم في عمله؟

- لا أسميها استقامة ولكن سذاجة.. لقد مضى زمن المثاليات وعليه أن يتعامل مع الواقع الذي يفرض نفسه عليه، وأن يكون أكثر مرونة، ويتنازل عن بعض الأشياء لتحسين وضعنا المادي، فأنا لم أعد أطيق نظام الاقتصاد هذا ولست مُعتادة عليه..

- ولكنني أعطيك كل ما تريدين من المال.. ماذا تريدين بعد؟

- أريد أن أشعر أن زوجي من يعطيني هذا المال.

- ولكن يا ابنتي زوجك لا يزال شابًا والمستقبل أمامه..

- أعرف هذا المنطق وحفظته منذ زمن، وها قد مرت ست سنوات ولم يتغير شيء بل الأمور أصبحت أكثر تعقيد بعد أن أنجبت مجد..

- هل أفهم أن مشكلتك معه مادية فقط؟

- لا.. بل وعاطفية.. فأنا لا أطيقه ولا أطيق ضعفه..

- ماذا تعنين بضعفه؟

- أعني عدم تجرأه على المغامرة بعمله، صمته تجاه أشياء كثيرة، حتى أنه لا يرد إذا أهانه أحد ما، لقد مللت من شخصيته الضعيفة.

- هل ستشعرين بقوته إذا سرق وأهان الناس واعتدى عليك بالضرب؟

- لا.. لا أنت لا تفهمني لأنك تدافع عنه..

- بل أفهمك جيدًا وأعتقد أنه عليك أن تراجعي نفسك قبل أن تخسري هذا الرجل المستقيم والذي لا يزال يُحبك.. باستطاعتي أن

أصرخ بوجهك ولكن هذا ليس هو الحل السليم، أرجوك يا ريم أن تحافظي على بيتك، وإذا أردت أي مبلغ من النقود اطلبيه مني، وأعرف بأنه يرفض أن تأخذي النقود مني ولكن لا تُخبريه..

- ولكنه عرف أنني آخذ النقود منك ومنعني من ذلك، وكانت تلك المرة الوحيدة التي صرخ بها بوجهي لأنني آخذ منك النقود، بل وهددني بالطلاق وقال لي بإن المرأة يجب أن تعيش حسب إمكانيات زوجها مهما كانت هذه الإمكانيات..

هززت رأسي وقلت لها:

- لديك زوج محترم ومعه حق، أرجو أن تحافظي عليه وأنا متأكد بأن إنسان باستقامته سيكون له مستقبل باهر..

- أنت متفائل كعادتك..

عادت مع زوجها وابنها ومكثت في مكاني غارقا بالتفكير، وحين أرادت زوجتي الحديث طلبت منها أن تتركني وحدي فغادرت صامتة، ومر بتفكيري من جديد مقولة إن الرجل العربي رجل حر بكل الأبعاد، وكلما مضيت في حياتي المُحاطة بالنساء أدركت أنني لست حر، وأن حريتي تتقلص أمام حجم مسؤولياتي تجاههن.. فأبتسم لسذاجة هذه المقولة وأعتقد أن من قالها ليس عربيًا، أو ربما لم يتزوج ولم تكن له عائلة، أو ربما شخص تخلى عن كل القيم الدينية والاجتماعية التي تُكبل الرجل العربي، أو ربما هي امرأة لم

ترَ في الرجل العربي إلا ذلك الشاب المتهور الذي ينتقل من علاقة إلى أخرى دون محاسبة، ولكنها ألغت الفصول التالية لحياته، حين يريد أن يكون بالفعل رجل وينتمي لمجتمع يقدره ويحترمه، وأن هذا المجتمع لا يعترف برجولته إلا بمقدار تحمله لمسؤولياته، وإلا نبذه ولم يسمح له حتى بتناول فنجان قهوة على باب بيت أحد أقاربه أو أصدقائه، وأرى الآن حجم هذه المسؤولية يتضخم حين أشعر بأن ابنتي تكاد تدمر بيتها ولا أستطيع فعل شيء..

لقد حاولت منحها المال لتجنب هذا الطلاق، وحاولت أن أهدأ من غضب زوجها، وأن أعالج أمورها كلما تطلب الأمر ذلك، ولكنني الآن أقف عاجزًا، لأن الخطأ يكمن في طريقة تفكير ابنتي، وإنني أستطيع أن أفعل لها أشياء كثيرة، عدا عن تغيير شخصيتها أو طريقة تفكيرها.. أي أنني أتحمل كامل مسؤولياتي تجاهها ولكن هذا لن يكفي كي يكون لها حياة مستقرة هادئة، وربما في النهاية تُلقي باللوم عليَّ فأنا الرجل والأب والمُربي، لابد أنني أخطأت بشيء ما، فكيف أبرئ نفسي أمام مجتمع يعتبرني مسؤول حتى عن أخطاء غيري.

(١٥)

هناك في العمق الدفين للرجل العربي تكمن صورة الأم بكلماتها وتصرفاتها وآرائها، ومهما حاول التملص من ذلك الإرث الذي يكون أحيانًا أثقل من وجوده بأكمله؛ يبقى ذلك الإرث محفورًا بروحه وقلبه، والأخطر بعقله.. فكل قناعاته وأفكاره حول المرأة تتغذى بشكل أساسي مما تفكر به الأم ذاتها بالمرأة.. فيتزوج في أغلب الأحيان حسب ذوق أمه، وقد يُطلِق أيضًا حسب نظرة أمه للأمور، ويحب ويكره حسب ما أورثته من مشاعر وأحاسيس، أي أنها هي نافذته الأولى نحو العالم الخارجي، فإن استطاع أن يدرك ومبكرًا بأنها نافذته الضيقة؛ استطاع أن يبدأ حياته الخاصة به كرجل، وإن بقى ينظر للحياة عبر تلك النافذة، تحوَّل عالمه إلى وجود ضيق تخنقه الأفكار المسبقة والشكوك والخوف..

في فترة ما من حياتي أجبرتني أمي على النظر للعالم من خلال النافذة الضيقة.. اختارت لي زوجتي الأولى، جلستُ بجانبها على الكنبة الفخمة، وأتت الفتاة الجميلة، وكانت والدتي قد أخبرتني بكل التفاصيل حول ملامحها وتضاريس جسدها، ومَنْ والدها وخالها وعمها وأنه نسب مُشرف، وكأنها تقول لي لا مفر لك من الموافقة

ولم يتبقَ سوى أن تتم الشكليات الأخيرة بأن أراها وأهز رأسي.. وأعترف بأنني وجدتها جميلة، ولم يكن لدي أي فكرة واضحة عما يجب أن تكون عليه المرأة لتكون زوجة ناجحة، وجعلتني أمي خلال سنوات حياتي معها أعتقد أن أهم ما تحتاجه المرأة لزواج ناجح هو بالدرجة الأولى الجمال، والباقي يمكن مناقشته لاحقًا لأن الرجل يستمتع أولاً بما يراه من جمالها، والباقي له أهمية أقل بكثير من ذلك الجمال.. وأذكر قناعتي الكاملة بذلك، وأنني بمجرد رؤيتي لزوجتي الأولى وجدت أن أمي اختارت لي ما أحب حقًا فتاة طويلة وصاحبة عيون سوداوين، وهو ما كنت أقوله لها حين تسألني أي نوع من الفتيات أحب..

خلال فترة الخطوبة لم يكن يدور بيننا أحاديث كثيرة، فلم أكن معتاد على المناقشة لأنني لم أنشأ في بيت يعترف بالحوار والنقاش، كان دوري هو إما تنفيذ الأوامر أو التفكير بكيفية السيطرة على خوفي من أمي، أو بمعنى أدق لم يكن هناك كلمات في بيتنا، كل الكلمات التي أعرفها كانت كلمات تقولها أمي فقط فلم يكن أحد يتكلم غيرها في البيت، وكانت كلماتها أوامر وصرخات لا نهاية لها.. أعترف بأنني نشأت أنا وإخوتي لا نعرف كيف نناقش الآخرين وكيف نحاور أو ببساطة كيف نبدأ أو نستمر بحديث هادئ ممتع، لقد كان الصمت يُغلف قلوبنا ويحتضن بداخله الخوف وروح منكسرة لم

تعرف الفرح، فكيف لي أن أستطيع الحديث مع من كانت ستُصبح زوجتي وأنا أصلاً لا أعرف كيف أتحدث معها أو مع غيرها، والأغرب هو أن أهلها اعتبروا صمتي نوع من التربية الراقية والحياء وأثنوا على ذلك الصمت، أما هي فلم تهتم لصمتي، لأنها كانت تتحدث كثيرًا، وفي بعض الأحيان كانت تتذمر من صمتي فأقول لها بإنني أحب أن أستمع أكثر من أن أتحدث فتبتسم.

وبعد فترة من الزواج بدأت زوجتي تدرك بأنني أعجز عن الحوار، وأنني لا أستطيع الحديث حقًا سوى في مجال عملي، وحتى في مجال عملي كان نجاحي مكتوب على الورق، فلم يكن لدي أي قدرة كلامية مُقنعة، فاخترت منذ البداية وظيفة لا تتطلب أن يكون لي علاقات مع الناس، لمعرفتي المُسبقة بأنني لا أمتلك هذه القدرة، أو أنها دُمرت خلال سنوات حياتي مع والدتي.. وفي لحظة من الانسجام ما بيني وبينها، سألتني لماذا لا أستطيع الحديث عما يدور بأفكاري بارتياح ووضوح وحين ألحت بالسؤال قررت أن أقول لها بعض الأشياء عن طفولتي، وأن والدتي لم تكن تسمح لنا بالحديث كثيرًا، وأنها كانت تلجأ لضربنا كثيرًا، وذكرت لها بعض القصص التي كانت تحدث في طفولتنا فنظرت لي وهزت رأسها قائلة:

- لقد شعرت بأن والدتك امرأة مُتسلطة وأنها....

وفجأة انتابني الغضب والندم لأنني أخبرتها، خصوصًا حين بدأت تتحدث عن أمي بتلك الطريقة، فأنا لم أريد أن تنتقد أمي وتتحدث عنها بتلك الصورة، لقد أردتها أن تفهم، ربما تساعدني على أن أستطيع أن أعبِّر عن مشاعري تجاهها وتجاه الأشياء حولي، فقاطعتها قائلاً:

- أرجوك لا تتحدثي عن والدتي بهذه الصورة.. لقد كانت فترة وانتهت، والحقيقة هي أنني لا أحب أن أتكلم كثيرًا وذلك منذ طفولتي..

نظرت إليَّ باستغراب ولم أدعها ترد على كلماتي التي لم أكن صادقا بها، ولكني أردت أن ينتهي هذا الحديث بأي شكل كان، وأن أسحب الثقة التي منحتها إياها، قبل أن تتمادى بأحكامها التي لا أريد أن أسمعها..

بعد ذلك الحديث القصير تغيرت أشياء كثيرة بيني وبين زوجتي الأولى.. أصبحت باردة ولا تتكلم معي كثيرًا ولم أكن أفهم سبب ذلك التغيير هل لأنني لم أبح لها بكل شيء؟ أم أنها استاءت من رد فعلي الغامض؟، مرَّ وقت طويل ولم أفهم لماذا تغيرت زوجتي معي، وانتقلتْ من حالة البرود إلى حالة اللامبالاة بأي شيء أقوله أو أقوم به، وكنتُ أقرأ نظرات الاستخفاف بكل ما أقوله مهما كان قليلاً، ولم تتغير حتى بعد إنجابها لابنتي مريم.

كنتُ استمع لأصدقائي في العمل يتحدثون عن مشاكلهم مع زوجاتهم، وأنه رد عليها بهذه الإجابة أو تلك، وأقبع صامتًا أتسائل بيني وبين نفسي متى سوف أستطيع أن أعبِّر عن مشاعري وأفكاري أمام زوجتي، وهل إذا عبَّرت عن تلك المشاعر هل سوف تفهمها؟

وحين أرغب حقًا بأن أحاول؛ أتراجع بسبب نظرات الاستخفاف التي تظهر من حين لآخر بنظراتها وأفضِّل الصمت، والأسوء من صمتي هو خوفي من مواجهتها، وأن اسألها لماذا هذا البرود ولماذا هذه النظرات المُستترة وهذا النفور، كنت أخاف أن تقف أمامي وتواجهني، وأنا أدرك بأنني لا أستطيع مواجهتها، حتى ولو لم أرتكب أي خطأ، إنه ذلك الخوف الذي زرعته والدتي في أعماقي الدفينة من كوني ابنًا ورجلاً وزوجًا، كنت أخاف المواجهة معها، وأن تشترط عليَّ ما اشترطته أمي على أبي أن لا يتدخل بأي شيء في البيت، وقد كانت الترجمة الضمنية لذلك الشرط أن يتخلى عن سلطته في البيت، ففضلت أن أحافظ على سلطة مزيفة أمثلها وتصدقها زوجتي، ولكن الحقيقية هو أن القرار بيدها..

كان يمكن للمعادلة الصامتة أن تستمر لسنوات طويلة وأن أنتهي مثلما انتهى له والدي دون سلطات حتى دون صوت.. خلال عدة سنوات من زواجي الأول لم أتصور بأنني سوف انفصل عن زوجتي لأي سبب كان، ذلك لأنني نشأت في بيت لم يكن به أمان نفسي أو

معنوي، فكان تمسكي ببيتي الصغير عميقًا وشديدًا، وكنت مستعد لأي تضحية لأجل هذه العائلة الصغيرة، وأن أشعر بأمان افتقدته طوال حياتي الماضية، حتى أخطاء زوجتي كنت أتغاضى عنها لأجل ذلك الدفء الذي تقدمه لي في نهاية كل يوم وذلك الاحتضان الدافئ لابنتي لدى عودتي للبيت..

كان يومًا خريفيًا جميلاً، وكنت سعيد بذلك اليوم لحبي الشديد للخريف، قررت أن أمكث بعض الوقت في البيت قبل الذهاب للعمل لأستمتع برؤية هذا اليوم الخريفي ومراقبة نسماته الباردة وبرؤية تساقط أوراق الشجرة، الواحدة تلو الأخرى لترسم لوحة من الجمال على أرض الحديقة، كنت سعيدًا وكانت الأشجار سعيدة لأنها تتجدد رغم تجردها من أوراقها.. وخلال جلوسي الصامت سمعت صوت زوجتي على الهاتف تتحدث إلى صديقتها مُعتقدة أنني خرجت من البيت:

- أوف.. أخيرًا خرج، لم أعد أطيق حياتي معه، فضعف شخصيته يكاد يقتلني، ومنذ زواجي به بالكاد يستطيع أن يُركِّب جملة مفيدة، أكاد أختنق..

لم أكن أحتاج لأن أستمع للمزيد أو بالأحرى لم أعد أستمع لشيء، بدأ كل شيء يدور حولي، وكأن وجودي كله تلخص في تلك الكلمات القليلة، أو بالأحرى قيمتي بهذا الوجود.. نهضت بهدوء

وتوجهت نحوها، وحين رأتني اعترى وجهها الشحوب، وقطعت المكالمة مسرعة.. أرادت أن تقول شيئًا ما ولكنني طلبت منها أن تصمت، خرجت الكلمات بطيئة من فمي ودون أن أرتبها ودون أن أفكر، هل سوف أستطيع أن أعبر عن نفسي أم لا وكانت تلك ذاتي الكامنة والمُتمردة:

- الآن وبعد كل هذه السنوات من الحياة معي تخبرين صديقتك بأنني ضعيف الشخصية، وأن وجودي يخنقك، وأنني لا أستطيع أن أركب جملة مفيدة، لن أركب أي جمل مفيدة لك ولن تحتاجي للتأفف مني بعد الآن ولن أجعلك تختنقين بوجودي ولن أكون ضعيف.. فأنت طالق.

كان الخريف باردًا في تلك السنة وكان سريري أكثر برودة من أرض الحديقة، لقد رحلت التي كانت تنشر الدفء به وأخذت قطعة من قلبي وروحي برحيل ابنتي مريم معها، ولأول مرة أبكي كرجل وليس كطفل لأول مرة أعرف ما معنى دموع الرجل، لم أبكي غيابها فقط، ولكن بكيت كوني رجلاً قدم كل ما لديه من مشاعر وتقدير ومال ولم ينل سوى كلمات قليلة على الهاتف تُحقره وتصفع كرامته وحتى إنسانيته..

لقد كانت زوجتي وأم طفلتي ولكنني لم أكن أدرك بأنني أحبها لهذه الدرجة، وأنني أفتقد وجودها بروحي وجسدي وواقعي، ورغم كل

الألم أبت ذاتي المُتمردة أن تستسلم لمشاعري لأنها رفضت أن يكون والدي قدوة لي، رفضت أن أمضي في حياتي مع امرأة تحتقرنـــي، حتى ولو قدِّمت مئات الاعتذارات، ولو أنني قصرت بواجبي في وقت ما معها، لو أنني أهنتها أو كرهتها لاستطعت أن أسامحها، ولكنني وضعت كل ذاتي وكل وجودي بين يديها بمحبة وألفة، وهي ألقـــت بهذه الذات تحت قدميها بكلمات قليلة، ولكنها كانت كافية كي أرى أين مكاني في وجودها، لقد اختار والدي الاستكانة والصمت عوضًا عن الألم الصامت بكرامة، وها أنا أختار كرامتي الجريحة، لأنني لا أريد أن أرى صورة والدي تنعكس على المرآة كلما نظـــرت إلـــى نفسي.

openkandl.com

(١٦)

نظرت لي والدتي بغضب وقالت بصوت حاد:

- كل الزوجات يقلن مثل هذا الكلام ولا يُطلقهن أزواجهــن.. لقــد دمرت بيتك لأجل بضع كلمات، هذا أنت لا تتغير.. أنت..

ولأول مرة أنظر إليها وكأنها امرأة غريبة وقاطعتها دون اعتذار:

- الآن فقط أريد أن أقول لك هذا يكفي، لم أعد طفــلاً تتحكمــين بمشاعره وجسده وأفكاره، يجب أن تنظري لي جيدًا، لقد أصبحت رجلاً، انظري جيدًا.. من الآن فصاعدًا أريد وأطلب أن تتحدثي معي كرجل وإن لم تستطعي ذلك فلن أزورك إلا مرة في الشهر، إلى أن أجد بكلماتك ونظراتك احترام لي كرجل، الكلمات هي الشاهد الوحيد على ما يقبع بأعماقنا، ولا أنتظر أحداث كبرى كي أعرف ما تشعر به زوجتي تجاهي أو حتى أنت، فكلماتك القليلة ونظراتك تقول لي كل ما تفكرين به تجاهي، ولكن الآن لم أعد أهتم بما تفكرين به..

جلس والدي صامتًا كعادته ورأيت في عينيه انكسار حزين وكأنــه كان يتمنى لو كان لديه جرأتي، كنت أرغب أن أحرره معــي مــن سجن أمي ولكن كان ذلك مستحيلاً، فلم يكن بوسعي أن أقــدم لــه سوى الحب والتعاطف، ولكن بداخلي أسف لأجله، وحزن عميــق

لأنني عرفت بعد تجربة زواجي ما هو شعور والدي أن يكون معزولاً في عالمه وهو وسط عائلته، أن يقدم ويُضحي بكل شيء ولا يحصل إلا على الاستخفاف والاحتقار، أن يكون صمته ضعفًا وكلامه بلا قيمة لأنه لا أحد سيستمع إليه، كنت أريد أن أضمه لصدري وأقول له بإنني الآن فقط فهمت حجم معاناته، ولكن نظراتنا كانت كافية لقول كل ذلك دون كلمات.

صمتت والدتي بذهول وغادرت المكان بهدوء ومنذ تلك اللحظة لم تعد تتحدث معي كما تتحدث مع إخوتي أو مع أبي، وكأنني استعدت حريتي من سجن طال مكوثي به، أن أكون سجينًا في أفكار ومشاعر أمي، وحين تحررت منها بدا كل شيء واضحًا ومشرقا.

جلست بقربها ووضعت رأسي على صدرها باكيًا، أمي أم جمال هي فقط يحق لها أن ترى دموعي وأن تربت على كتفي وتضمني..

- ابكي يا بني.. دع الحزن يخرج من قلبك، ولكن لابد أن تنسى الألم، لا تجعله يبني بيوتًا في صدرك، وإلا لن تستطع أبدًا أن تهزمه.. الحزن يا ولدي يحب الاستقرار في النفوس ما أن يدخلها حتى يبدأ ببناء غرفة صغيرة ثم بيت ثم قصر إلى أن يحتل مساحة وجودك، لذلك لابد أن تقاومه كأنه مُحتل عنيد، والمعركة معه ليست سهلة بل شرسة، وهو ما لا يعرفه الكثير من الناس.. يستسلمون له في البداية لأن له مذاقا تُحبه النفس ويريحها، ولكن حين

يستقر يُصبح مذاقه مُرًّا ويبث السم في الروح والعقل ويصبح الصراع معه أشرس، والقليل جدًا من الناس من يكسب المعركة.. فكيف تكسب المعركة مع جنود استقروا في قلب يضخ الدماء لكل الجسد؟

توقفت عن البكاء ونظرت إليها أفكر بما تقول.. ثم أجبتها:

- هذا أغرب ما سمعته بحياتي عن الحزن.. كيف تعرفين هذا؟

- لأن الحزن كان هنا في قلبي ولسنوات.. وحين بدأ ينهش صحتي وأفكاري كان لابد أن أدمر بيته الذي بناه في صدري، ولم يكن تدميره سهلاً، لقد كان معركة حقيقية.. أن أستيقظ كل يوم وأرغب بالبكاء وأن أمنع نفسي وأن أزجرها وأقول لها لا شيء يستحق البكاء وأن الحياة كلها لا تستحق كل هذا الحزن وأنه حتى أكثر الناس سعادة بهذا الكون رحلوا.. كان لابد أن أردد لنفسي في كل يوم كلمات الله تعالى بأن هذه الحياة الدنيا لهو وتفاخر بالأموال والأولاد وأن البقاء للدار الآخرة.. لقد ساعدني الإيمان على تدمير بيوت الحزن في صدري، ابتسم يا بني لأن الله منحك الحياة ومنحك أروع ما بها وهو الإيمان والكرامة.. كنت مُحقًا بتطليق زوجتك لأنني ربيتك على أن تكون رجل، وكنت أعرف أن أمك تهدر هذه الكرامة في كل يوم في بيتكم وأردت أنا أن أرمم هذا الهدم في كل يوم..

نظرت إليها بعمق:

- أريد أن أقول لك بإنك أنت من علمني معنى الكرامة.. حين كنت أشكو لك ضرب الأولاد لي، كنت تنهريني إذا لم أضربهم كما يضربونني وحين ترين رأسي مُطاطا تنهريني طالبة مني أن أرفعه كما خلقه الله.. وحين يخفت صوتي تطلبين مني أن أتحدث بصوت واضح.. لولا وجودك في حياتي لتحولت لنسخة عن والدي عاجزًا حتى عن الدفاع عن نفسي.. لماذا اهتممت بي طوال كل تلك السنوات؟

- كان أبشع ما أراه في الحياة هو أن نهدر كرامة إنسان ما.. قد نعاقبه وقد نضربه وقد نُقاطعه، ولكن هدر الكرامة هو الجريمة الحقيقية، أن تتصرف مع الآخر على أنه عديم القيمة، بل وعديم الوجود.. لم أكن أعطف عليك فقط ولكنني كنت مُصممة على إنقاذ كرامتك وللأسف لم يكن إخوتك يحبوا أن يأتوا لبيتي خصوصًا بعد أن منعتهم والدتك من ذلك، لأنني دون مستواها الاجتماعي، أنت فقط كنت تُصر على القدوم ولو بالسر وتحتمل عقابها لك..

ذهبتْ إلى المطبخ لتُعد الشاي وعادت مبتسمة:

- أريد أن أقول لك سرًا ولا تسخر مني.. طوال سنوات طويلة وحتى هذه اللحظة كان الشاي بالنعناع دواء لروحي وجسدي، أمسك هذه الكأس وقبل أن تشربه استنشق رائحته بقوة في صدرك

وأنسى الألم الذي سببه لك الآخرون فقط دع الرحيق يتسلل إلى كل خلايا جسدك وفكر بجمال عود النعناع وروعته، وأنك تتمنى أن تقابل إنسانة ما تحمل صفات هذا العود الأخضر اللين الجميل الدافئ.. هل فهمت الآن.. الطبيعة علاج وشفاء لنا، وهي أيضًا دليل حي يقول لنا كيف نختار البشر، لا تغضب من الآخرين فهم جزء من الطبيعة يحملون صفات النباتات والأشجار، منهم الورود ومنهم الأشواك، ومنهم شفاء للجسد والروح، ومنهم مرض لها.. المهم أن تعرف كيف تبحث وفي أي تربة تبحث..

رفعت رأسي واستنشقت عبق النعناع لأخر نفس في صدري وابتسمت.. أمسكت بيدها وقبلتها، ساد الصمت بيننا ولم يعد هناك سوى صوت حفيف الأشجار وكأسين من الشاي بالنعناع، وكان للوجود طعم جديد.

openkandil.com

(١٧)

رن جرس الهاتف في مكتبي وكان المُتحدث صديقي أشرف، قال ضاحكًا:

- هل لا تزال تعتبرني صديق لك أم أن قناعاتك الدينية تتعارض مع صداقتنا؟

ضحكت طويلاً وأجبته:

- بل أنت صديقي وقناعاتي الدينية لا تتعارض مع صداقتنا بشرط أن تترك لي الحرية أن أقول رأيي وأن أنصحك إذا أذنت لي..

- بالطبع وها أنا أتصل طلبًا للنصيحة ولكن ليس لي بل لك..

ضحكت من جديد وأجبته:

- هذه أول مرة اسمع بها هذه الصيغة أن تسألني عن نصيحة لي دون أن أطلبها!

- أجل.. أجل، هذا أسلوب عصري اسمه استقراء الأفكار، أو بالأحرى هو أسلوب قديم بقدم الإنسانية ولكننا لا نريد حقًا بهذه العصر أن نستقرأ أفكار الآخرين.. أو ليس لدينا الوقت أو أننا نعجز حتى عن استقراء أفكارنا، المهم سوف تأتي لمكتبي كي تُخبرني عن النصيحة اللازمة لك لأنني أفكر بك منذ أيام..

علقت سماعة الهاتف وعدت للضحك من جديد ولم أستطع الانتظار كي أمنح نفسي تلك النصيحة المُلحة..

استقبلني بحفاوته المُعتادة وأخبرني أنه قام بدعوة أنور صديقنا المُشترك ليكون الحكم ما بيني وبينه في هذه الجلسة الخاصة.. شعرت بالتشوق لأنه جعل كل ما يدور أشبه بلعبة متاهة تُدرك بأنها قد لا تقودنا لشيء، ولكن المتعة كانت تكمن في دخول تلك المتاهة وعدم معرفة نهايتها..

حضر أنور بمظهره الجاد وابتسامته المُتحفظة ونظراته العميقة، وحين رأيته في هذه المرة استغربت من هذه الصداقة التي تجمع هذه الشخصيات المختلفة، ورغم اختلافنا بقيت هذه الصداقة لسنوات طويلة.. قال أنور مبتسمًا:

- أرجو أن يكون منعي من العودة لبيتي وزوجتي لسبب وجيه وإلا..

ضحك أشرف قائلاً:

- ألا تزال بالفعل تحب زوجتك وتحب العودة للبيت؟

ابتسم من جديد ونظر إليه بطرف عينه:

- بل وأكثر من السابق..

- أنت غريب حقًا.. لقد ضجرنا نحن الاثنين من زوجاتنا فهل لديك وصفة سحرية تُبعد هذا الضجر؟

- لا وصفة سحرية ولكننا لا آكل بطبق وأنظر لطبق آخر.. فهذا يمنعني من تذوق طبقي ويجعلني أشتهي ما ليس لي، وأنا أحب الراحة في كل الأمور..

- ولكن ولا تغضب مني.. ألا تحب أن تكون مع امرأة أخرى أصغر سنًا وأكثر نضارة؟

- بلى أحب.. ولكن حين تزوجت زوجتي كانت شابة ونضرة وأنا أيضًا أتقدم في السن مثلها.. ثم إن هناك أمور أخرى في الزواج تتغير مع الوقت وتُصبح أهم من المظهر الخارجي..

- مثل ماذا؟

نظر إليَّ أنور باستغراب وقال:

- ما هي قصة أشرف هل يمر بأزمة منتصف العمر، أم تلك التي يُسمونها أخر العمر أم ماذا؟ من يهتم الآن بالزواج ومشاعر المراهقة هذه.. اعتقدت أنكم أتيتم بي كي نتحدث عن صفقة الحديد القادمة.. ثم أنت أكثر جدية من أشرف أم هل أثَّر عليك أم ماذا؟

أجبته مُبتسمًا:

- لا تنظر لي لقد أحضرني إلى هنا مثلما أحضرك أيضًا..

قاطعني أشرف قائلاً:

- حسنًا أنا وهو نمُر بأزمة منتصف أو أخر العمر كما تقول وهل هذا ممنوع أم عيب..

- وما شأني أنا بهذه الأزمة فأنا لا أمر بها، سوف أختصر لكم سر حياتي مع زوجتي رغم أنني لا أحب الحديث عنها، هي إنسانة صادقة وبسيطة وحنونة معي دائمًا، حتى لو أخطأت أشعر أحيانًا بأنني ابنها ولست زوجها.. في البداية كنت أمل من طبيعتها التي تُذكرني بأمي، ولكن مع مرور السنوات، وفي المواقف الصعبة في الحياة أدركت مدى أهمية هذه الصفات هذا عدا عن حنانها الدافق لأولادها، لا أحبها كحب عاشق ولكن لا أستطيع أن أعيش بدونها، وأقول لكم بإنني في فترة ما شعرت بأنني فاتر المشاعر تجاهها فعرضت علي أن أتزوج بأخرى دون أن أطلقها.. وفكرت جديًا في موضوع الزواج بل وقابلت امرأة أخرى أصغر سنًا منها وأكثر جمالاً، ولكنها لم تكن تمتلك الروح الدافئة التي لدى زوجتي.. صحيح أننا كرجال دورنا هو منح الأمان للمرأة، ولكن لدى المرأة أيضًا نوع من الأمان نحتاج له، ولم أجد هذا الأمان إلا لدى زوجتي.. فعدت إليها وعرفت تمامًا بأنني أنتمي لهذه المرأة..

ساد الصمت لثوانٍ قليلة ورغبت بأن أغادر بعد ما قاله أنور لأنني شعرت بمدى الفراغ النفسي والعاطفي الذي أعيش به بعد أن سمعت أجمل وصف لحالة من الحب النادر بين زوجين، ولكن أشرف قال له فجأة:

- سامحك الله.. لقد جعلتنا نشعر بالاكتئاب، وأين سنجد مثل هــذه المرأة، هذه توجد فقط في الروايات، هل أنت مُتأكد بأنها لا تمثــل عليك؟

- وهل ستُمثل طوال ثلاثين عامًا من الزواج؟

- أجل وستحصل على جائزة أوسكار أيضًا..

ضحك أنور وأجاب:

- لا يا اشرف زوجتي لا تُمثل، حتى لو كانت ممثلة فهي بارعــة وأقنعتني تمامًا بأدائها ولن أغيرها ببطلة أخرى..

غيَّر نبرة صوته ونظر لي قائلاً:

- والآن سنتحدث عنكما بشكل جدي يبدو أنكما في أزمة حقيقية.. وسوف أعطيكم كل وقتي ولكن لا أعرف إن كان يمكنني مساعدتكما.

قاطعه أشرف قائلاً:

- لست أنا من بحاجة للمساعدة.. فأنا أعيش حياتي كما أرغب بل صديقنا أحمد هو من يحتاج للمساعدة..

ابتسمت لأخفي الحرج الذي اعتراني وتابعت قائلاً:

- ليست أزمة بل تساؤلات تراودني من حين لآخر..

أجاب أنور:

- جميعنا تراودنا تساؤلات ولكن لا نُغيِّر حياتنا.

- أجل.. أجل.. حسنًا.. أعتقد أنني يجب أن أغادر الآن.

لم أرغب بمتابعة الحديث وأن أجد نفسي موضوع يُطرح للمناقشة، نهضت وقال أشرف مستغربًا:

- ما هذا لقد أتينا لأجلك وها أنت أول من يريد الذهاب!

- لدي اجتماع هام غدًا.. سوف أتصل بكما..

لا يحق لي كرجل شرقي أن أشعر بوجود أزمة نفسية أو عاطفية بحياتي، أن أصرح بأنه لم تعد لدي مشاعر تجاه زوجتي، عدا عن كونها أم أولادي، وأنني لا أشعر بأي شوق لها، ولا بأي رغبة لاحتضانها، رغم كونها سيدة بيت ممتازة وأم مثالية.. ولكن يحق لي أن أبحث عن متعة ما مع فتاة هنا أو هناك، صغيرة السن وجميلة، وسوف يفهم الجميع ذلك ويقولون إنه رجل، وهذا يحدث في حياة كل رجل ولو لمرة واحدة..

كان في زمن بعيد يحق لي أن أتزوج امرأة أخرى أو اثنتين والشرع والقانون يسمح لي بذلك، ولكن في هذا الزمن زوجتي والمجتمع سوف يقفون بوجهي ويعاقبونني، وقد تفرض علي زوجتي عزلة اجتماعية، بألا يحتفظ أصدقائنا المشتركين بأي علاقة معي تعاطفًا معها وتأديبًا لي، وقد أخسر محبة أولادي لأنني ارتكبت الخيانة العظمي بزواجي من غيرها، ولكن لو كان لدي عشرات العلاقات مع نساء أخريات دون زواج لن يُعاقبني المجتمع، وسوف تردد زوجتي في كل اجتماعاتها هو زوجي وسوف يعود في النهاية

لبيته.. أي أنه يحق لي أن أعبث ولكن لا يحق لي أن أكون جـديًا في علاقة ما أشعر بالحاجة إليها..

أنور هو مرآة مجتمع تقليدي، صنف المشاعر والأفكار في فهرس حسب الحروف الأبجدية، وإذا خرجت أحد المشاعر عن التـصنيف المُعتمد أتهم بأنني خارج عن هذا المُجتمع.. إذا أرادت أفكاري أن ترحل لعالم آخر أكثر حرية أشارت لي الأصابع بتهمة الخيانة، لست خائنًا فأنا أريد الاحتفاظ زوجتي، ولست خارج عن المجتمع، لأنني أفهمه وأطبق تعاليمه، ولست عابثًا فأنا رجل متدين.. ولكنني أرى أن التقاليد أصبحت أقوى حتى من نصوص الشرع التـي فهمـت عميقًا حاجات الرجل النفسية والجسدية.

يمتد الشارع أمامي بلا حدود، وأقود سيارتي ببطء وقطرات مـن المطر تتساقط على زجاج السيارة، وتبدو أضواء المدينـة أكثـر بهجة تحت المطر وكلما اقتربت من بيتي سرت في شارع آخر كي أؤخر عودتي.. ففي هذه الليلة بالذات لا أريد أن أستمع لأي كلمات مدروسة ومعسولة..

obeikandl.com

(١٨)

جلست في المستشفى أنتظر جلسة غسيل الكلى التي تُجريها عمتي سلوى كل أسبوع، وأنا من يتولى هذه المُهمة منذ سنوات، لقد مات زوجها بعد عشر سنوات من زواجهما تاركًا بنتين صغيرتين، وكنت أنا من تولى رعايتهن والإنفاق عليهن، خلال جلوسي الصامت تذكرت أحداث ارتبطت بعمتي سلوى وبتأثيرها على حياتي.

كثيرًا ما لامتني زوجتي على المال الذي أدفعه لعمتي وبناتها، بل واعترضت بشدة، ولكن كان جوابي دائمًا بأنني كرجل أفهم ديني تمامًا؛ لا أستطيع أن أهرب من مسؤولياتي، وأن هذا الدين حمَّل الرجل مسؤوليات كبيرة، حتى الحقوق التي مُنحت له كانت جميعها أمانة كبيرة يُحاسب عليها، في سلوكه مع أهل بيته وأقاربه وجيرانه وأمواله بل وشهواته.

كنت أعتقد أن الدين صلاة وصوم وحج وعدد من الفرائض، ولكن موت زوج عمتي سلوى غيَّر الأمور في مجرى حياتي، خصوصًا الكلمات التي قالتها لي عمتي بعد انتهاء العزاء..

جلستُ بقربها على السرير ولاحظت أنها لم تبكِ طوال فترة العزاء وترددت بسؤالها عن السبب لأن الجميع لاحظ عدم بكائها، رفعت حجابها الأسود وجعلته ينسدل بين يديها دون أن تطويه وقالت:

- لقد أجبرت نفسي على أشياء كثيرة خلال حياتي معه، وبكيت كثيرًا من قسوته وأنانيته، ولكن الآن وبعد موته لن أجبر نفسي على البكاء لأجله، هذه هي المرة الأولى التي أخبر أحد ما بمدى تعاستي مع زوجي، لقد كانت هذه الجدران تشهد على قساوته وضربه وإهانته لي، وتشهد على دعائي عليه ودموعي بسببه، سنوات طويلة من الألم والعذاب يا أحمد، والأشد قسوة هو التمثيل أمام الناس بأن كل شيء على ما يرام لأن والدي همس بأذني قبل أن أغادر بيته بأنه لا طلاق بهذه العائلة، ولكن الصبر في كل الأحوال، وأن بيته مفتوح لي فقط للزيارة، ولن يكون بديلاً عن بيت الزوج إلا في حالة وفاته، وقد حفظت قوانين والدي وطبقتها، وأمسكت الجمرة الحارقة بين يدي دون أن أصرخ من الألم، ولكن الآن يحق لي أن أرمي هذه الجمرة، وأسكب على يدي ماءً باردًا.

صمتت لدقائق ولم تقاوم دموعها:

- لا أبكي الآن عليه بل على عمر ضاع مع إنسان لم يقدم بحياته سوى القسوة وشراسة الطباع والبخل، ورغم سيطرته على كل تفاصيل حياتنا وحياته كان شديد التعاسة، أحيانًا لا أفهم الحياة أو

لا أفهم الناس، ها هو قد حصل على كل ما يريد مني ومن بناتـــه، من طاعة مُطلقة وانصياع لكل رغباته ولكنه لم يكن سعيد، أتسائل الآن فقط وبعد موته ماذا كان يريد من الحياة؟ ماذا كان هدفه؟ هل نمر بهذه الحياة دون هدف؟ لقد كان يُصلي، وحج إلى بيـــت الله، ويؤدي جميع الفرائض، ولكنه كان قاسي بخيل..

لقد كان الإيمان بالنسبة لي طوق نجاة، فهو ما جعلني أصبر طوال تلك السنوات، ولكن هو لم يُغيِّر الإيمان به شيئًا، كيـــف يمكـــن أن يكون هذا؟ أن تلين بعض النفوس لكلام الله وتحب وتعفو وتُعطي، ونفوس أخرى تُطبِّق كل التعاليم بحرفيتها ولكنها قاسية جافة، وكأن الإيمان مطر غزير يمر على حجارة ملساء لا تحتفظ حتى بقطـــرة من تلك المياه الدافقة..

عادت لتُمرر المنديل بين يديها وتابعت:

- ما قلته لك يبقى بيننا، لا أريد أن أتحدث عنه بأي كلمة ســـيئة بعد موته، لأنني لم أفعل ذلك حتى خلال حياته، ولكني أعتبرك مثل ابني، وأبوح لك بما لا أبوح به لغيرك، اسمع يا بني قبل أن تستمر في رحلتك بهذه الحياة، لابد أن تعرف دينك، وهو لـــيس العـــادات اليومية التي نقوم بها، بل هو أعمق وأشمل من ذلك.. لقد منحني الله حب القراءة ليعوض وحدتي مع زوجي خلال حياته وبعد موته، أريد أن تأخذ كتاب من مكتبتي هذه وتقرأه ثم تُعيده كي تأخذ غيره،

أنت تتعامل مع أنواع مُتعددة من الناس وتعقد صفقات كثيرة، لابد أن تعرف ما هو حرام وحلال، ولكن وقبل كل شيء بناتي أمانة في رقبتك، وهو واجبك الديني لا تفعله لأجلي بل تُحاسب عليه، يمكنك أن تنسحب الآن مثلما فعل إخوتك دون أن تسألني كيف سأدبر أموري مع بناتي اليتيمات، ولكنه واجبك ولا تفعله حبًا بي بل تنفيذًا لأوامر رب العالمين، كونك رجل في هذا الدين يا بني أمانة عظيمة وثقيلة لو فهمتها النساء لحمدن الله على عدم كونهن رجال..

لا أنسى حرفًا واحدًا من تلك الكلمات لأنها كانت بداية لمسار حياتي، ومثلما طلبت مني عمتي بدأت أقرأ الكتب التي بمكتبتها، كتابًا تلو الآخر، وأعرف وأفهم أشياء كثيرة لم أعرفها أو أفهمها من قبل.. والدتي زرعت النفور في نفسي للدين ولكن أم جمال استطاعت أن تضع الحب مكان النفور، لقد كانت هي مدرستي الأولى لحب الدين وأن أضعه بصدري كحصن حصين يُنقذني من قسوة الحياة، وكصدر دافئ ألجأ إليه حين تشتد البرودة من حولي، أما عمتي فقد علمتني أن الدين ليس حبًا فقط بل علم لابد من تحصيله..

عادت ذاكرتي إلى زوج عمتي بمظهره المُتحفظ ونظراته الباردة، وبالصورة التي رسمتها له عمتي والتي لم نكن نعرف عنها شيئًا، ودون إرادة مني تذكرت والدي بعطفه وهدوءه، أذهلني التناقض، رغم أن صاحبي الصورتين من الأموات إلا أن وجودهما بهذه اللحظة

بذاكرتي يبدو حيًا، حتى أنني أكاد أشعر بأنفاسهما، وأتعجب لاختلاف وتناقض الذات البشرية، من قوة وضعف وهشاشة وصلابة ورقة وقسوة، المشكلة ليست بتنوع هذه الصفات وتناقضها، ولكن أن تتناقض مع من تعيش معه، فوالدتي كانت قاسية وجافة ووالدي كان حنون وعطوف، وزوج عمتي كان قاس وبخيل، وعمتي إنسانه رقيقة أخفت كل مشاعرها بين صفحات الكتب الدينية ورحلت عن الحياة قبل أن ترحل عنها الحياة..

أيقظني صوت رهام ابنة عمتي وهي تتحدث معي يرافقها زوجها، نهضت واحتضنتها وسألتها عن أختها ميسون وعن دراستها في الجامعة..

- كل شيء على ما يرام، ولكن نحن نُتعبك معنا، ولكن أنت تعرف بأنني موظفة وأن ميسون لديها محاضرات في الجامعة وإلا لحضرنا نحن مع والدتنا فنحن نعرف كم أنت مشغول..

- أنت لا تتحدثين عن عمتي بل عن أم لي، حتى لو كان لديكن كل الوقت لما تركت عمتي..

ابتسمت وهزت رأسها وقبل أن تُجيب كانت عمتي قد خرجت من غرفة العلاج، في كل مرة تنتهي من جلسة العلاج هذه، ولدى رؤيتي لوجهها المُتعب؛ ينتابني الخوف بأن تموت، فأنا لا أحتمل فكرة موتها رغم إيماني بأن الموت حق وأنه قدر لكل البشر، ولكن

أجده صعبًا جدًا بهذه السن وبهذه الوحدة التي أشعر بها في حياتي الخاصة، فأنا كرجل لا أحتاج لحب المرأة فقط كأنثى أو زوجة ولكن لذلك الاحتضان الدافئ الذي أشعر به بوجود امرأة تُحبني، سواء كانت من أحد أقاربي أو امرأة غريبة عني مثل أم جمال، وربما تزداد تلك الحاجة لافتقادي لحب الأم الحقيقي، الذي لم أشعر به طوال حياتي.. أمسكت بيدها برفق وقدتها نحو باب المستشفى، وقفتْ قليلاً تنظر لي ثم قالت:

- أحمد منذ زمن لم أذهب للمسجد، هل تستطيع أن تأتي لاصطحابي من حين لآخر لصلاة الفجر؟ أستطيع أن اذهب للمسجد أحيانًا برفقة زوج رهام حين ينام في بيتنا ولكن أريد أن اذهب معك من حين لآخر..

هززت رأسي بالموافقة ولم أفهم سبب هذه الرغبة المُفاجئة، ولكنني أحببت فكرة اصطحاب عمتي للمسجد معي في الفجر، فذلك جعلني أنسى فكرة موتها..

(١٩)

في كل يوم وعندما يفرد الظلام وشاحه الأسود على المدينة المترامية الأطراف، أراقب سيادته المُطلقة على المكان وعلى النفوس، يذهلني هذا اللون الأسود الذي يغلف كل المخلوقات، والسماء والأرض، ومنذ طفولتي كانت هذه اللحظات لحظات دهشة وانبهار بقدرة الخالق، لقد كانت لي علاقة خاصة مع هذه اللحظات حين ينسحب النور عن الأرض بخجل وتواضع، تاركًا المكان كله لهذا العملاق الأسود، وأشعر أن حياة الإنسان بأكملها هي هذا التتابع اللانهائي للنور والظلام في علاقته مع ذاته والآخرين، وفي رؤيته للحياة، وفي مُعتقداته الدفينة، إنه دائمًا وأبدًا بين هذين الخيارين، الذي يفرضه عليه كل يوم جديد بنوره وظلامه.

ولقد تعلمت منذ صغري من خلال النصوص الشعرية ومن خلال أقوال الناس بإن الظلام يحمل المعاني الحزينة والألم والوحدة، ولكنني وكلما تقدمت بي السن توطدت علاقتي بهذا الوشاح الأسود وأحببت أكثر فأكثر أن أتدثر به، فهو يحمل فرصتي الوحيدة بأن أستعيد نفسي التي وزعتها ما بين العمل والبيت، هذا الظلام هو الفرصة اليومية لكل إنسان بأن يُعيد ترتيب أوراقه الخاصة في

عبادته وفي حياته وفي علاقاته، التفكير له شكل آخر خلال النهار ويخضع لتأثيرات عديدة، ولكن الليل يأتي صافيًا نقيًا يهمس بأذنك بأسئلته الصريحة ويعطيك إجابات أكثر صراحة، لا نستطيع أن نتحايل على الليل وإن برعنا في ذلك في النهار فهو يكشف خداعنا ودموعنا ومشاعرنا ونزواتنا ورغباتنا وآلامنا..

منذ أن بدأت بإفراغ صندوقي الأسود من محتوياته على أمل أن أستطيع ترتيبه من جديد، أرفض أن أضع خارج الصندوق صورة أخواي أيمن وسامح، أخرجت أشياء كثيرة ولا يزال يوجد المزيد ولكنني أتجنب أن أرى صورتهما، ليس لأنها حزينة ولكنها أثقل من أن أستطيع أن أسيطر على مشاعري تجاههما، فأنا تعلمت أن أسيطر على مشاعري فيما يتعلق بي، ولكن ما يتعلق بالآخرين يبدو أكثر إيلامًا، خصوصًا حين نقف عاجزين عن مساعدتهم، أو حين يرفضون هم المساعدة، فتبقى صورتهم مُحجوزة في إطار المعاناة، يرفضوا هم الخروج منه، ونعجز نحن عن الدخول إليه..

أشد ما يؤلمني في كل ذكرياتي، هو أن اضطر لمواجهة نفسي بحقيقة مشاعري تجاه أمي، رغم كونها لم تعد في عالم الأحياء، ولكن ذكريات وأحداث معينة تجعلها ماثلة أمامي، وكأنها لم تفارق هذه الحياة، فيما يخصني سامحتها منذ زمن بعيد، وأدعو لها بالرحمة، ولكن فيما يخص إخوتي لا خيار لي بمسامحتها، ولكنني

حين أرى مدى الدمار الذي ألحقته بهما تتجمد مشاعري أمام صورتها، وأمنع نفسي من الانجراف في لومها كي لا ينزف جرح عميق بداخلي صارعت طويلاً كي يتوقف نزفه..

كلما رأيت أيمن وسامح امتلأ صدري بتلك المشاعر القديمة، حين كنا نختبئ خوفًا منها، وحين تجدنا نرتجف خوفًا من ضربها وصراخها، ونظراتنا المستجدية لوالدي بالدفاع عنا، فيقول بضع كلمات ثم يبتعد تاركًا الساحة لمعاركها التي هي دائمًا بطلتها الوحيدة.

لقد كانت أم جمال قشة النجاة التي أنقذتني من الخوف والقهر وانعدام الثقة بالنفس، وهو ما لم يحصل عليه أيمن وسامح.. لقد عاشا تحت سيطرتها الكاملة، أيمن لم يتوقف عن الصلاة في أي يوم من حياته تمامًا كما علمته أمي، ولكنه لم يتوانَ عن اختلاس مبلغ كبير من الشركة التي كان يعمل بها وقضى بضع سنوات في السجن، ويعيش تحت سيطرة زوجته الكاملة كما كانت علاقة أمي بأبي، ولولا إصراري على زيارته لما فكر في زيارتي أو رؤيتي، وحين سألته عن السبب قال دون تردد:

- حين أراك أرى فشلي وضعفي، فأنت استطعت أن تتغلب على أمور كثيرة، ولا أدري لماذا رغم أننا نشأنا في بيت واحد، لا أحقد عليك ولكن نجاحك وقوة شخصيتك يجعلاني أشعر بالألم، فنجاحك

يقول لي بإنني أخطأت بشيء ما وأنه رغم كل ما مر بنا كان يمكن أن أحاول وأن أتخطى كل الصعوبات..

كنت أريد أن أقول له بأنه ليس أنا من كان بطلاً بل أم جمال التي أنقذتني من الفشل المحتوم، وأنه لا يجب أن يلوم نفسه، ولكن الكلمات لم تعد تجدي نفعًا أمام حطام إنسان بدأ تدميره منذ الطفولة وعلى يد أقرب الناس إليه، ساد الصمت بيننا وتابعت زيارته والسؤال عنه رغم تهربه بأحيان كثيرة من زياراتي..

أما سامح فقد كرَّس حياته للدراسة والحصول على أعلى الشهادات وأصبح مُحاضر في إحدى الجامعات المهمة، لقد كان يعرف تمامًا بأنه ضعيف الشخصية، وأنه لا يستطيع أن يكون في أي مركز يحتاج لقرار قوي، ففضل أن يكون عالمه بين الكتب والمحاضرات، وصمم ومنذ البداية على الزواج بامرأة ضعيفة الشخصية لا سيطرة لها عليه، فهو الآمر الناهي وهي الزوجة المُطيعة، ومارس مع أولاده دور الأب القاسي المُسيطر فما أن كبروا حتى بحث كل منهم على عمل بعيدًا عن والده، ولكنه ورغم هذه الحياة التي أعتقد أنه سيطر عليها فاقد للسيطرة على نفسه، فتمر عليه فترات من الغضب أو الكآبة لا يعرف لها سببًا، ولولا طاعة زوجته الكاملة له لطلبت الطلاق أمام طباعه المُتقلبة والصعبة، كلما رأيته قرأت بعينيه تلك التعاسة القديمة وعدم الأمان والقلق والتوتر، لا يتهرب

من لقائي ولكنه وفي كل مرة يقول لي مُتهكمًا: "أتُريد زيارتي ليكون لك المزيد من الحسنات أليس كذلك!"، وفي كل مرة أتحدث بها معه لا ينسى أن يقول لي بإن هؤلاء المتدينون يُخفون كل أخطائهم خلف قناع الدين، لذلك لا يحب الدين ولا يحب الحديث عنه، بقيت صامتًا عدة مرات حين سمعته يردد ذلك إلى أن سألته مرة بغضب عميق:

- ما سر هذا الحقد على المتدينين، بل وعلى الدين وكأنه عدو لك، ألا تخشى الله..

أجابني بتهكم لاذع:

- ألا تعرف حقًا السبب؟ أم أنك لمبادئك الدينية ترفض الحديث عن الأموات، السر هو أمي.. التي كانت تؤدي الفروض الخمسة طوال حياتها وكانت تتابع الدروس الدينية، بل وتحفظ أجزاء كبيرة من القرآن، لقد علمتنا كل العبادات، ولكنها لم تُطبق أي من تعاليم هذا الدين.. لم يستطع هذا الدين أن يُزيل القسوة التي في قلبها ولا أن يُقنعها بحسن معاملة زوجها ولا أن يُجبرها على خفض صوتها، هذه الأم الحنون غرست في قلبي الخوف من كل شيء، وحين سيطرت على خوفي من بعض الأشياء، لم أستطع أن أسيطر على الخوف في أعماقي، لا أزال أتردد وأقلق وأخاف إن سمعت صوت صرخة هنا أو هناك، وأخاف لو ظهرت أي بادرة تمرد من زوجتي، والمأساة هي أنني كنت نسخة عن والدتي بتعاملي مع أولادي دون

أن أتمكن من كبح جماح نفسي، وكأنني أتقمص شخصيتها، فرحل أولادي عن بيتي بمجرد أن سنحت لهم الفرص أو بالأحرى هربوا مني، أما زوجتي فصمتها أكثر من حديثها، وابتسامتها لم تعد تستطيع أن تُخفي حزنها المكتوم، هل عرفت السر الآن؟

أجلس اليوم في غرفة مكتبي والهدوء يلف المكان بحزن غريب، ربما لأنني أغرق في الذكريات الأشد إيلامًا في حياتي، حين لم يعد باستطاعتها ضربنا بدأت تصرخ وتكسر الأشياء أمامنا وكي نتلافى صراخها الذي يسمعه كل الجيران كنا نُنفذ كل ما تطلب، فأصبحت تُطالبنا بتنظيف البيت وغسل الصحون والملابس ثم إعداد الطعام، وتجلس هي في الصالون تشاهد التلفاز وتُدخن الأرجيلة، وإن لم ننظف كما تريد أو أخطأنا في الطبخ عادت للصراخ ورمي الأشياء علينا أو على الأرض، وحين يأتي أحد لزيارتنا لا تتوقف عن الحديث عنا وعن كوننا متعبين ونكاد نكون عاقين..

أصعب ما كان يمر بنا هو رؤوسنا المُطأطأة أمام كل من يعرفنا ويعرف والدتي وأننا أولاد سيئين، وكذلك لا كرامة لنا، وأننا نحن من يقوم بكل الأعمال المنزلية، ونكاد أن نكون حشرات في منزلنا، فكيف للآخرين أن يحترموننا! حين أصبحنا شبابًا كان أصعب ما نقوم به هو السير في الحي الذي نعيش به، وكنا نرفض دعوة أي من أصدقائنا إلى البيت، أو أن نزور أحد ما في بيته، لقد كان

عالمنا مغلقًا نقبع به مع أمي وصراخها الهستيري ووالدي الصامت ونظرة الاحتقار أو الشفقة التي نراها في عيون كل من يعرفنا..

لقد سامحتها مرارًا وتكررًا ولكنني وفي كل مرة أزور بها أحد من إخوتي لا أستطيع أن أسامحها على الدمار الذي خلفته في حياتهما، لقد ماتت ولكن كل تلك المعاناة وتلك التجارب العنيفة رسمت لهما طريقًا نحو الفشل والمعاناة النفسية الحادة، وأتساءل وفي كل مرة كيف أن الجسد يستطيع أن يقاوم مرض ما ولكن من أصعب الأمور على العقل أن ينسى وأن يمحى تلك الذكريات المُدمرة أن يستطيع إيقاف دوي تلك الإهانات من دائرة أفكاره أن يمضي بلا ذكرى بلا ألم، لقد ساعدتني أم جمال على إدراك أن تلك الإهانات لم تكن لي بل هي غضب جارف يجتاح أمي لا علاقة لي به وأنني مجرد عابر سبيل في طريق ذلك الغضب، فإما أتابع مشواري كعابر سبيل ولا أحمل من غضبها شيء، وإما أن أملأ حقائبي وروحي بذلك الغضب وأسمم حياتي حيث لا يُجدي أي ترياق على علاج تسمم النفس، في كل مرة كانت تطلب مني أن أفكر وبقوة أن تلك الكلمات ليست موجهه لي، بل لصورة ما لا أعرف لمن هي في تفكير أمي، وأن أتخيل نفسي رجلاً قويًا له مكانته واحترامه، وألا أنام قبل أن تمر بخيالي صورة هذا الرجل القوي..

حاولتُ كثيرًا أن أصطحب أيمن وسامح معي لبيت أم جمال ولكنهما كانا يرفضان لخوفهما من أمي ولأن بيتها كان بسيطًا متواضعًا لم يكن يُثير اهتمامهما، فكان قدري أن يكون لي أم ثانية وكان قدرهم أن تبقى لهم أم واحدة نقشت في قلوبهم وأرواحهم ما شاءت من الرسومات وبكل الألوان ثم رحلت، أو اعتقدنا بأنها رحلت، ولكنها حية، حية بمعاناتهم.. بفشلهم.. وبذاكرتهم الثقيلة التي شوهت واقعهم..

obeikandl.com

(٢٠)

أخبرتني السكرتيرة بأن أشرف يريد أن يراني وأن أحدًا ما بصحبته فطلبت منها أن تدعه يدخل.. دخل ضاحكًا وقال:

- اسمع.. دون مقدمات.. لقد رفضتَ أن تذهب لرؤيتها فأحضرتها لك..

- من هي؟

- زوجة المستقبل..

- ماذا تقول؟ أي زوجة؟ أرجوك لا أريد أي حماقات..

- لا.. لا يوجد أي حماقات، اسمع.. أنا أعرفها منذ عامين، كانت تعمل مديرة مبيعات في إحدى الشركات التي أتعامل معها، وأقولها لك بصراحة إنها جدية، لقد حاولت مرات عديدة أن أقيم علاقة ما معها دون جدوى، وحيث أنني لا أريد الزواج مرة أخرى فنسيت موضوعها، وحين فكرت بك خطرت هي على بالي لأنها مناسبة لك، فهي تريد العلاقة لتكون طريق للزواج، كما أنها جميلة، قبل أن تسأل لقد قلت لها إنك صاحب القرار في صفقة ما بين شركتي والشركة التي تعمل بها وأنه من الضروري أن تقابلها كي تشرح

لك الامتيازات التي تقدمها شركتها أي أنه ليس عليك سوى النظر إليها والاستماع لما تقول.

صمتُ قليلاً ثم أجبته دون تفكير:

- حسنًا.. ولكن لن أوقع على شيء..

- أجل.. أجل..

غاب للحظات وعاد معها، نظرت إليها ببرود مُتعمد كي لا تُلاحظ فضولي الشديد، دون مقدمات بدأت بالحديث عن الصفقة المذكورة وبدأت أتأمل وجهها وعينيها، تتحدث بطلاقة عن موضوع تعرف كل جوانبه، عيناها واسعتين وشعرها بني منسدل على كتفيها، سمراء البشرة ورقيقة الملامح، كانت يداها ناعمتين ولكنها طلت أظافرها بلون أحمر غامق، وكلما حاولت أن أبعد نظري عن أظافرها؛ قفزت تلك الأظافر في وجهي لأنها تُكثر من تحريك يديها محاولة إقناعي بكل الوسائل، والتي درستها وأعرفها جيدًا، ابتداء من اختيار الكلمات وتعابير الوجه، ثم حركات اليدين الواثقة، وكلما تكلمت بحرفية عالية أكبر شعرت بأنوثتها تتلاشى أمام تلك الكلمات التي تدربت جيدًا على قولها وعلى طريقة أدائها، ولم أعد أشعر بأنني أتحدث إلى أنثى بل لجهاز مُبرمج بكفاءة عالية، كنت أعتقد أن مجرد الاستماع لامرأة ما لن يُكلفني شيء، ولكن ها أنا أشعر بالحرج بل وببعض الضيق، وكأنني أتفحص بضاعة ما معروضة للبيع فغريزتي كرجل تدفعني إلى اختيار ما أريد وملاحقة

ما أريد، ومجرد كونها هنا أمامي بهذه البساطة، جعلني أشعر بالفتور تجاهها رغم جاذبيتها ونضارتها..

بدأت أتململ في مكاني ثم قلتُ لها مبتسمًا:

- حسنًا.. يكفي هذا، سوف أدرس الموضوع وأخبرك برأيي بمجرد أن أشاور محامي الشركة..

فتدخل أشرف ملاحظًا النبرة الباردة التي أتحدث بها:

- أمل.. اتركي تليفونك وبريدك الإلكتروني كي يرد عليك..

ناولتني كارت الزيارة الخاص بها واستأذنت وغادرت المكتب، وبمجرد مغادرتها للمكتب وقف أشرف قائلاً:

- يا لك من إنسان قليل الذوق، كان يمكن أن تُنهي كل شيء ببعض من اللطف، أوف منك، لقد أتعبتني، الحقيقة هل أنك تحب هذه الكآبة التي تحيا بها.. عن إذنك..

- انتظر قليلاً.. لا تغضب سوف أحاول أن أتصل بها وأصلح الموقف، ولكن صدقني لم أحتمل فكرة أنك أحضرتها، وأن أنظر لامرأة غريبة على أنها زوجة لي، هذا غريب وإن كان في البداية مشوق ولكن حين بدأت تتحدث بتلك الطريقة المهنية العالية فقدت رغبتي بالاستماع إليها، وشعرت بأنها جلست مع العشرات من الرجال لمناقشة الصفقات والعقود، اعذرني أنا تقليدي في تفكيري،

بل وأقول لك صراحة بأنني لن اتصل بها، ثم أنا لم أعدك بأنني سوف أعجب بها، لقد اتفقنا على أن أراها..

- حسنًا.. حسنًا.. اعتقد أنني في المرة القادمة سوف أحضر لك نوعية أخرى..

- لا.. لا أرجوك لا تُحضر أحد..

سكت قليلاً وحك رأسه ثم قال بحماس:

- لقد وجدتها.. لن يُنقذك من هذه الورطة سوى الإنترنت، سوف اكتب لك عنوان موقع متخصص لإيجاد الزوج أو الزوجة، تتحدث مع من تهتم بها بشكل مباشر ولماذا واحدة بل عشرات منهن وتختار على ذوقك..

وقبل أن أرد كتب العنوان الإلكتروني وغادر مسرعًا..

نظرت إلى الورقة الصغيرة ولم أرم بها إلى سلة المُهملات، إن لم يكن بسبب ترددي، كان احتفاظي بها بسبب فضولي، لم استعمل الإنترنت من قبل للتعرف الناس بل لأمور العمل والأخبار، وبعد أن طويت الورقة عدت لفتحها من جديد، فالفضول كان أقوى مني، بدأت الصور تتوالى أمامي لفتيات من كل شكل ولون، بأوضاع تقليدية أو مُشينة، فاخترت أحد المواقع العربية للمدينة التي أعيش بها، اسمها نجوى في الثلاثين من عمرها، تعمل مدرسة لغات بأحد المدارس، وقبل أن أبدأ الحديث معها ترددت لأنني كنت

دائمًا أسخر من أولئك الذين يُقيمون علاقات عبر شبكة الإنترنت، وأرى أنها دائمًا علاقات فاشلة، ولكنني ورغم كل شيء أردت أن أدخل لهذا العالم الغريب.. سألتها دون مقدمات:

- ألا تشعرين بالحرج للحديث مع شخص غريب عنك بهذه الطريقة؟

لم ترد لقليل من الوقت ثم أجابت:

- إذا كنت من ذلك النوع التقليدي فأرجو ألا تعاود الحديث معي.. وسوف أرد على سؤالك، لا أشعر بالحرج ومن حقي أن أتعرف على شخص ما وأعجب به وربما أحبه وأتزوجه، لقد كنت متزوجة زواجًا تقليديًا فاشلاً، والآن أريد أن أختار حياتي كما أريد حتى لو أخطأت..

- لا أدري هل أنا من النوع التقليدي أم لا، أحيانًا أكون تقليديًا وأحيانًا لا، عمومًا لا أعرف بالضبط تعريفك للشخص التقليدي، هذه أول مرة أتعرف على امرأة عبر الإنترنت، وكان مجرد فضول وليس استفزاز لك..

- الشخص التقليدي هو الذي يرى الحياة عبر قوالب صغيرة، وغالبًا لم تعد تصلح للاستعمال، يكرر نفس الأشكال والأحجام لهذه القوالب، ربما يُغيِّر مادتها ولكن شكلها وتصميمها يبقى محدودًا، المهم.. هل أنت متزوج؟

صمت قليلاً وترددت قبل أن أخبرها.. ثم كتبت:

- لا أريد الإجابة على هذا السؤال قبل أن أتعرف عليك جيدًا..

- إذًا أنت متزوج..

- هل يمكن أن تنسي هذا السؤال كي لا أشعر بأنك تبحثين عن زوج ما! وأريد أن أصارحك بأن الرجل بمجرد أن يشعر أنها رغبة مُلحة لدى المرأة يهرب من العلاقة معها حتى ولو كانت تُعجبه..

صمتت قليلاً ثم كتبت:

- حسنًا.. ربما أنت مُحق.. عمومًا أنا مُطلقة منذ سنتين و..

استمر الحديث لبعض الوقت ولم أشعر بمضي الدقائق, اعترف بأنني شعرت بمتعه كبيرة بحديثي معها، خصوصًا وأنني لا أعرفها فكان ذلك الغموض شيء سحري، رفضتْ أن تُرسل لي صورتها، فبدأت أنسج بخيالي ملامحها، ولكنني وبعد حين فكرت بأنها ربما تكون قبيحة أو حتى ليست في الثلاثين من عمرها أو.. أو.. فأقنعت نفسي بأن أتوقف عن الاستمتاع بالحديث معها، وأن أكتفي بحوار هادئ من حين لآخر إلى أن أراها وأقرر شيء ما بشأنها..

(٢١)

في هذه المرة لم تحضر ابنتي مريم مع زوجها، بل أتت وحدها ومعها حقائبها، نظرتُ إليها بقلق وقبل أن أسأل قالت باكية:

- لا أستطيع أن أستمر بالحياة معه.. لقد..

- ماذا؟

- لقد طلقني..

وكأن الكلمات تسربت من ذاكرتي، لم يتبقَ لي سوى تلك النظرة المذهولة، وكأنني أقف أمام امرأة لا أعرفها، هي ابنتي ولكن لا أعرف جوانب كثيرة في أعماقها كامرأة، واقف عاجزًا أمام عالم المرأة رغم أني أدعي معرفتي بها، ولكن ها هو موقف جديد في حياتي يجعلني أتعرف على شيء جديد، المرأة المُطلقة في حياة رجل شرقي وخصوصًا حين تكون ابنته، أفكاري ومشاعري ترفض هذا الطلاق، بل وتلوم ابنتي حتى ولو لم تكن هي المُخطئة، إنه الشعور الأول الذي يترافق مع الصدمة؛ لأنني وفي ميراثي الثقافي تربيت على إلقاء اللوم على المرأة حين حدوث الطلاق، ولأنه يُفترض بها أن تصبر وتصبر إلى أن يعجز الصبر عن الاحتمال،

وقد قررت ومنذ زمن بعيد بأن هذا مفهـــوم خـــاطئ، وأن للرجـــل أخطائه البشعة التي تجعل من الطلاق نتيجة حتمية..

ولكنني وفي هذه اللحظة وأمام هذه الصدمة أجد ذلـــك المـــوروث الثقافي ماثلاً أمامي كجدار صلد يأبى الانهيار، وألقي باللوم علـــى ابنتي عشرات المرات، دون أن أقول لها كلمة واحـــدة، أرى بهـــا صورة امرأة جديدة مهشمة وضعيفة وأرى الآن فقط كم أن وجود الزوج بحياة المرأة يمنحها قوة، حتى ولو أخذ منها أشياء كثيرة، أرى ابنتي ورُغمًا عنى ورغم وجودي بجانبها امرأة وحيدة، وأنني ورغم كل رعايتي الأبوية لا ولن أعوضها غياب الزوج..

كان يجب أن تتقبل مشاعري واقع ابنتي الجديـــد دون أن أعـــرف سبب الطلاق، أن أتقبل كونها مُطلقة وكأنني أبرمج صورة جديـــدة لها في عقلي، أن أختار كلمات مُختلفة وتعابير أخرى غير الكلمات والتعابير التي كنت أقولها لها في السابق.. منذ يوم زفافها أدركت بأنها أصبحت امرأة ولكن هذا اليوم هي امرأة أخرى تبـــدو جـــزء مني، ولكنها وبنفس الوقت غريبة عني، وغربتها عني تكمن فـــي أن لها عالم خاص تحيا به، حتى ولو شاركتنا حياتنا، وأن لها ألم خاص لن نستطيع أن نُخلصها منه، وأدركت أننا في رحلات الألـــم لابد أن نكون بلا شركاء وأننا نواجهه دائمًا بوحدة حتى ولو رافقنا

مئات الأشخاص، لأنه يريد أن يغرس أنيابه عميقًا في أرواحنا ولا يستطيع ذلك إلا في وحدتنا وغربتنا عن أنفسنا وعن الآخرين..

كان لابد وبهذه اللحظة بالذات أن أتجاهل موروثي الثقافي حتى ولو كان موجود، لابد أن يبقى صامتًا ولا يُملي عليَّ ردود أفعالي، نهضتُ من مكاني واحتضنتها ومسحت دموعها:

- لا تبكي.. الطلاق يحصل في كل العائلات ولست أول من تطلقت ولا الأخيرة، ثم أنه توجد شهور العدة وقد يطلب رجوعك..

- أنت لا تعرف يا والدي، لقد طلقني ثلاث مرات ولن يفكر بإعادتي

- وابنك..

- سوف يعيش معي.. هل تمانع أن يبقى معي..

- لا أبدًا.. ولكن.. حسنًا.. لا أريد أن نتحدث الآن عن الأسباب، أريدك أن تذهبي لغرفتك وترتاحي ثم لنا حديث آخر..

وما أن غادرت الصالة حتى رن جرس الهاتف وكان زوجها من يتحدث وبصوت مخنوق قال:

- لقد طلبتْ الطلاق وبإصرار وعدة مرات، أستطيع أن أتنازل عن أي شيء عدا كرامتي، وهي لا تتوقف عن إهانتي سواء بكلماتها أو بتصرفاتها أنت تعرف بأنني أحترمك كثيرًا ولهذا السبب اتصلت

لأوضح لك ما حصل، ثم إن هناك أمور بين الرجل وزوجته لا يستطيع أن يقولها حتى لوالد زوجته فلا تُحرجني أرجوك.

- أنا أفهم موقفك ولكن أريد منك أن تفكر مليًا، فهي في العدة ولديك المجال لمراجعة نفسك، وكان من الخطأ أن تترك بيت الزوجية لأنها من الناحية الشرعية وخلال العدة لابد أن تكون في بيت زوجها..

لاحظت الاستياء الذي بدا واضحًا على وجه زوجتي، فمريم لم تكن ابنة زوجها المُطيعة، لقد ورثت الكثير من شخصية أمي.. وقبل أن أقول شيئًا قالت لي بامتعاض واضح:

- هل سوف يبقى ابنها معها هنا؟

- هل هذا ما يُقلقك؟

- أجل هذا يُقلقني.. أنا أعرف مريم منذ طفولتها وأعرف كم هي عنيدة ومتكبرة، ولا أُخفي عليك بأنني توقعت أن تجد صعوبات بزواجها بسبب شخصيتها هذه، لطالما نصحتها ولكنها عنيدة..

- أجل.. أعرف هذا ولكن ماذا تريدين مني أن أفعل؟ لقد ربيتها أحسن تربية وحاولت كل جهدي أن تتوقف مشاكلها مع زوجها ولا أفهم ما سبب كل هذه المشاكل فهي متزوجة منذ ثلاث سنوات ولا أرى أي سبب واضح لما يحصل..

- ربما كانت تريد زوج ثري..

- ولكن هي التي اختارته، لا أفهم.. تحدثي معها ربما تجدي أنت السبب الحقيقي ونستطيع معالجته قبل انتهاء العدة..

كم من الليالي في حياة الرجل لا يعرف خلالها النوم، ولا يريد أن يقول لزوجته أو لمن يعيش معه أنه قلق مضطرب، ولا يجد حلاً لمشكلة ما، أو أنه يقف عاجزًا أمام مشكلة ما؟ كم من الليالي تمضي وهو يُحدق بالسقف المُظلم، ويشعر بأنه وحيد على هذه الأرض وأن كل الكلمات لن تُعبِّر عن إحباطه وتعاسته وفي الصباح لابد أن ينهض قويًا، ويمارس حياة طبيعية تأمره بكل يوم أن يتصرف كرجل، وأنه لا حق له ولا مبرر له بالضعف!

في هذه الليلة بالذات أريد أن أكون وحيدًا مع ذاتي ومع مشاعري ومع أفكاري وحتى مع دمائي.. هل طلاق ابنتي فشل لي أم لها؟ هل سيلومني المجتمع لأنني لم أحسن تربيتها أم سيعترف بأن لكل منا حياته التي يُسأل عنها؟ لم يعد يهم ما يفكر به المجتمع ولكن ما يهم هو ما أشعر به، واعترف بأنني أشعر بالفشل رغم كل الصفقات الناجحة التي أعقدها، ورغم كل القدرات المالية التي امتلكها، أشعر بفشل من نوع آخر.. نوع مُر وملتصق بقلبي لا أستطيع انتزاعه ولا أستطيع جعل طعمه أقل مرارة..

اقترب موعد آذان الفجر، ودون تفكير لبست ملابسي بهدوء وخرجت لأذهب لبيت عمتي نادرة، كانت مستيقظة انتظارًا لصلاة الفجر.. قلت لها مبتسمًا:

- لقد وعدتك أن آخذك للمسجد لصلاة الفجر كلما سنحت لي الفرصة و..

توقفت عن الكلام أمام نظراتها التي اخترقت أعماقي:

- ماذا هناك يا أحمد.. لا تبدو كعادتك..

ودون مقدمات أجبتها:

- لقد تطلقت مريم اليوم، وهي عندي في البيت مع ابنها..

- ماذا؟ ولماذا هذا الطلاق؟

- تقول أشياء كثيرة وكلها ليست مُقنعة على الأقل بنظري، طلبت الطلاق واستجاب لطلبها، هيا نذهب الآن وإلا فاتتنا صلاة الفجر..

وفي الطريق أمسكت بيدي وقالت:

- لا تلوم نفسك على شيء ليس لك ذنب به.. إنها حياتها..

- المشكلة أن صفات مريم تُشبه صفات أمي..

- لا تفكر بهذه الطريقة، الطلاق يحدث وهذا شيء عادي خصوصًا في أيامنا هذه، وربما بعد فترة سوف يطلب زوجها أن تعود له، نحن لسنا من نقرر مسار الأقدار بهذه الحياة يا أحمد، نحن أضعف وأشد جهلاً من أن نقرر مصائر الآخرين، إنه رب العالمين القدير والمدبر.. إذا وضعت نفسك في مكان صاحب

القرار لمصير إنسان ما بهذه الحياة فلابد أن يأتيك الرد سـريعًا، وأن تعترف عاجلاً أم آجلاً بأنك لست سوى عابر سبيل بهذه الحياة مررت وعشت التجربة بأحزانها وأفراحها، ثـم غـادرت دون أن تتمكن من وداع كل من تُحب أو مُسامحة كل من تكره، ألق عنـك هذا العبء الثقيل واقبل الحياة كما أرادها الله لنا لا كما تريدها أنت بآلامها وجمالها، وبأننا بالنسبة لها لسنا سوى ضيوف، فلا تجعل منها قلعتك الحصينة..

وقفت خلف الإمام استعدادًا للصلاة، وأردت وبكل قـوتي النفـسية والروحية أن أرحل بعيدًا هناك إلى ملكوت السماوات، وأن لا يبقى لي أي أثر على هذه الأرض، وحين أصلي بهذه المشاعر تبدو كل الأشياء صغيرة بل ليس لها وجود، حتى أولادي لا يعود لهم مكان في قلبي، إنها فرصة اللقاء بالله تعالى وفرصة الرحيل عن الأرض ولو لدقائق بعيدًا إلى آفاق روحانية طاهرة، يتلو الإمام القرآن ولا أمنع دموع صغيرة أذرفها أحيانًا حين أستمع لتلاوة القـرآن، ولا ابحث عن سبب هذه الدموع، ولكنني كلما ذرفتها شعرت بأنني حر من كل قيود الدنيا، وأنني إن غادرتها لن أكـون شـديد الحـزن لفراقها.

(٢٢)

- لماذا لم تكتب لي طوال هذه المدة؟

نظرتُ إلى الإيميل ولم أرغب بالرد لأنني شعرت بنبرة الإلحاح والتعود، وهو ما لم أشعر به بعد أو لا أرغب به، لم أرد على رسالتها ليومين آخرين، ليس لأنني أريدها أن تنتظر، ولكن لأني أريدها ألا تشعر بأنني جزء لا يتجزء من وجودها، فلستُ سوى عابر سبيل على طريق عنوانها الإلكتروني، كنت أرغب بأن تتوقف هذه المحادثة التي تكاد تكون سخيفة مع إنسانة لا أعرفها ولا أعرف حتى شكلها.. وصلتني رسالة أخرى بعد أسبوع:

- أنا آسفة لإزعاجك لن تستلم مني رسائل بعد الآن..

حين كتبت هذه الرسالة رددت عليها على الفور:

- اعذريني.. لقد كنت مشغول جدًا سوف أكتب لك مرة أخرى..

إنه الفضول دائمًا وأبدًا، هذا الآخر المجهول الذي قد لا يمثل لنا شيء وقد يمثل شيء ما أو أحيانًا كل الأشياء، نتعلق بالأمل الذي يحمله حتى ولو كان وهمًا.

- أرجو أن تردي على رسالتي هذه وأعتذر مرة أخرى، أنتِ تعرفين أنني دائمًا مشغول.. هل أستطيع أن أراك؟

وبعد يومين أجابت:

- سوف نتقابل أكيد.. ولكنني بحاجة لأتعرف إليك أكثر وأفضل أن نتحدث مدة أطول..

- حسنًا..

- ولكن أريد أن أسألك.. بما أنك متزوج، ألا تعتبر أن حديثك معي هو نوع من الخيانة؟

صمتُ طويلاً قبل أن أجيبها، خصوصًا وأنا لم أفكر بهذا الأمر ولم أعتبره خيانة، عادت لي الرغبة من جديد بعدم الحديث معها ولكنني تراجعت وبدأت أجيبها:

- لا أعتبرها خيانة، فأنا ومنذ زمن لم يعد لدي أي مشاعر تجاه زوجتي، وأفكر جديًا بالزواج مرة أخرى ولهذا تحدثت معك، هدفي منذ البداية أن أتزوج مرة أخرى هذا إذا تم التفاهم ما بيننا..

- وماذا لو لم نتفاهم هل تكون حصلت على ما يكفي من التسلية؟

- أعتقد أنك أيضًا تكوني قد حصلت على شيء من التسلية..

- لم أتوقع منك هذه الإجابة الفظة!!

- لا أفهم لماذا يجب علي كرجل أن أحتمل أي كلمة فظة منك بينما أنا لا يحق لي مجرد التفكير بها، سوف أقول لك منذ البداية أشد ما ينفرني من زوجتي هو كلماتها المُنمقة، والتي حفظتها من والداتها والتي ورثتها من جدتها، لا أشعر بصدقها ولا بدفئها حين تتحدث، أرى عداد حسابي يعد المشاعر ويحسبها بدقة، وفي أي

اتجاه تتجه، هل تتجه إلى رصيدي في البنك، أم إلى خوفها من أن أتزوج عليها.. وربما ما أعجبني بك هو صراحتك، ولكن من حقي أن أكون بهذه الصراحة أيضًا..

لم ترد للحظات وعادت لتكتب:

- الصراحة عندنا نحن النساء ليست مُخيفة، فهي جزء من طبيعة البعض منا ولكن الصراحة لدى الرجل تبدو مُخيفة بل وقاتلة، لذلك وفي حقيقة الأمر نتجنب أن نتواجه معها فنضع فرضيات نفترضها نحن لتُرضي غرورنا، ولكن يوجد نوع واحد من المصارحة الصامتة والمُدمرة للمرأة لدى الرجل وهو أن يدير ظهره ولا يعود ولا يتصل، وكأنها لم تكن توجد يومًا ما في أفكاره أو على جهازه الخلوي أو على الإيميل الخاص به..

صمت بدوري أمام كلماتها العميقة وعدت للكتابة:

- لديك تحليل جيد ولكن لا أدري هل ينطبق على جميع الرجال! ولكن أعرف بأن الرجل بمجرد أن يمل من علاقة يجد أن أصعب الأشياء ليس البدء بالعلاقة ولكن إنهائها، خصوصًا إذا تعلقت به المرأة وبنت قصور في الهواء، هي المُقيمة الوحيدة بها..

استمرت محادثاتنا لشهرين وبدأت أشعر بالتعلق بها وبطريقة تفكيرها، ولم أعد أحتمل عدم رؤيتها فأرسلت لها إيميل أخير:

- إما أن أراك أو ينتهي كل شيء، فأنا رجل ناضج ولست مراهق يُغذي مشاعره بالأوهام..

لم ترد لأسبوع وكنت أعرف أنها تفكر وبدأ الشك يراودني هل يوجد بها عيب ما؟ لماذا هذا التهرب من رؤيتي؟ وبدأت أشعر بأنني لا أستطيع ألا أتحدث معها على الإيميل، وأنها أصبحت جزء من حياتي، فكان أمامي أنا أيضًا قرار بأن أستمر بالحديث معها دون أن أراها، أو أصمم على رؤيتها أو قطع العلاقة، وبدأ الألم يخنق صدري بمجرد تفكيري في الخيار الأخير..

نظرت إلى شاشة الكمبيوتر وتذكرت حين كنت أسخر من أولئك الذين يدمنونه ويقيمون علاقات من خلاله، وها أنا أقع في مصيدته، وبدا صمت الإيميل قاتلاً يومًا بعد يوم، ورغم سنوات حياتي الطويلة لا أزال أتفاجئ بالطبيعة البشرية، هذه التي تعتاد وتنفر وتكره وتحب وتتعلق بالوهم والحقيقة، هذه الطبيعة المتحركة المتفاعلة مع كل ما يدور حولها ومع كل ما يدور بأعماقها، ولا أستطيع فهم هذه الطبيعة إلا بمعرفة قدرة الخالق على إبداعه بخلق أجسادنا وأرواحنا وأنفسنا، هذه الأرواح والأنفس التي لا نراها ولكنها تحرك العالم بأسره وترسم للجسد طريقه وتفاعله مع السعادة والحزن والإرادة واليأس وحتى المرض، وقررت في النهاية أنها حتى لو لم تتصل سوف أفكر دائمًا باللحظات السعيدة

التي قضيتها معها وكان تفكيري هذا مُنقذي من الوحدة ومن ألـم الحب، أقولها بخجل لأنني لا أدري كيف أحب إنسانة لا أعرفها..

وبعد أسبوع من المعاناة والألم كتبتْ:

- أراك غدًا الساعة الرابعة في..

لم أصدق عيناي وكأنني مراهق طائش، قرأت الإيميل مرات عديدة وكأنني أخاف أن أنسى الموعد ومكانه، لم أنم في تلك الليلة بسبب الأرق، توالت الصور في خيالي كيف سيكون وجهها وعيناها.. هل طويلة أو قصيرة سمراء أم.. أم.. ولأنها رفضت أن تـصف لـي نفسها كانت الصور أكثر غزارة وتنوعًا، وفي نهاية الأمر كبحـت جماح نفسي بألا أتأمل كثرًا فربما لا تكون جميلة أو.. أو..

جلستُ في المقهى في زاوية بعيدة عن الضجة أنظر لساعتي تارة وأنظر عبر النافذة تارة أخرى، كنت أريد أن أراها تـسير أمـامي كانت تلك اللحظة مهمة بالنسبة لي، لا أريد أن أرها فجأة أمـامي أريد أن أرى خطواتها وطريقة حركتها، أن أستقرأ هذه الشخصية القادمة من العالم الوهمي والذي أحاول أن أتقبله فـي الواقـع.. وللحظات راودتني فكرة مغادرة المكان وأن أكتفي بالجلوس خلف مقعد سيارتي، وأن أراها من بعيد ثم أقرر هل أستمر بهذه العلاقة أم لا.

وما أن نهضت كي أغادر حتى رأيت امرأة شابة تقترب من بـــاب المقهى، فعدت إلى مكاني بهدوء لأراقب هذه القادمة بروية وبدقة، دخلتْ إلى المقهى ونظراتها تبحث عن أحد ما فعرفت أنهـــا هـــي، وتقدم النادل ليسألها هل تبحث عن السيد.. هزت رأسها بالموافقة وأشار لها على الطاولة التي أجلس عليها..

حين رأيتها أول لحظة فكرة واحدة استحوذت على تفكيري، وهـــي أنها جميلة وأنها يجب أن تتزوج شخص أصغر مني سنًا، ولكن لم يكن هناك وقت للاسترسال بهذا التفكير، فقد مدت يـــدها الدافئـــة لمصافحتي، وحين جلـــست وبـــسرعة خاطفـــة توالـــت رســـائلها الإلكترونية في تفكيري وكأنها تتوالى على صفحة الحاسوب، وكنت بحاجة لربط تلك الكلمات الوهمية بهذه الشخصية الحقيقيـــة حتـــى أنني كنت مستعد أن أطلب منها أن تصمت للحظات إلى أن تكتمـــل الصورة بذهني، ولكنني خشيت أن تعتبر ذلك تصرف فظ من طرفي.

ابتسمت بهدوء وقالت:

- أخيرًا.. ها أنا وها أنت.. مرحبًا في العالم الحقيقي..

ضحكت لتعليقها وأجبت:

- أتمنى أن يكون العالم الحقيقي بجمال العالم الوهمي..

- وإذا لم يكن كذلك؟

- الميزة في العالم الوهمي هو أننا نستطيع دائمًا الدخول والخروج منه دون قيود، أما في العالم الحقيقي فكل خطواتنا محسوبة، ولذلك السعداء في العالم الحقيقي قلة، لأنهم فئة من الناس يدخلون ويخرجون من حياتنا دون شروط أو قيود، يدخلون لأنهم يحبون ذلك، ويخرجون حين يذبل الحب، وهم في كل الأحوال سعداء بحريتهم المعنوية لا يعرفون الحقد ولا يتوقعون الكثير ويقبلون ما يُقدم لهم من حب دون آمال كبيرة.. تمامًا مثل العالم الوهمي..

- هذه إجابة تحتاج لتفكير.. ولكنها تجعلني أقلق لأنني أفهم من هذا أنه إذا لم تستمر علاقتنا بعد تعرفنا على بعض، فأنت مستعد لمتابعة علاقتنا خلال الإنترنت؟

- هذا إذا رغبت بذلك.. عمومًا هذا ليس موضوعنا الآن، أنت جميلة فلماذا تبحثين عن علاقة عاطفية عبر الإنترنت؟

- لأنني فشلت في أهم علاقة واقعية في حياة المرأة وهي الزواج، فقررت ألا أتزوج مرة أخرى قبل أن أعرف الشخص الذي سأرتبط به بعمق ولمدة كافية..

- ولكنني أكبر منك بسنوات عديدة..

- لا يهمني العمر، أريد علاقة مستقرة تمنحني الدفء والاستقرار..

- اعذريني لسؤالي.. ولكن ما سبب طلاقك؟

- لقد كان إنسان بخيل وجاف، ولم أكن أدرك أن البخيل بماله بخيل أيضًا بمشاعره، عشت معه ثلاث سنوات من الوحدة والألم

النفسي والحرمان المادي، وفي ليلة هادئة جلست في سريري ونظرت إليه وهو نائم بقربي وسألت نفسي: هل يمكن أن أقضي بقية عمري مع هذا النائم بجانبي؟ وحين كانت الإجابة: لا.. لا.. لا، نهضت من نومي وأشعلت ضوء الغرفة وطلبت منه أن يستيقظ، وقلت له بهدوء: أريد أن تطلقني الآن.. نظر لي كأنني مجنونة واتهمني بأنني غير طبيعية ولكنني كررت الطلب ودون أن أنتظر أن يقول تلك الكلمة كنت قد جمعت أغراضي ولم أعد اهتم إن كان سيقولها أم لا.. حاول منعي من الرحيل وشد الحقيبة من يدي فتركتها له وغادرت دون رجعة، لم يطلقني ولكنني رفعت قضية طلاق وصدر قرار بطلاقي منه..

تحدثنا عن مواضيع كثيرة، فقد كانت على درجة من الثقافة بحيث لم يكن لديها صعوبة بإيجاد أي موضوع للنقاش، من الممتع للرجل أن يراقب هذه المرأة على الطرف الآخر من المائدة ومن الحياة ومن الحب، أن يُدقق بملامحها، بطريقتها في الحديث، وأن يتسلل إلى أفكارها لأنه يعلم جيدًا بأنها وبأحيان كثيرة تقول شيء ما وتفكر بشيء آخر، أو تُعبِّر عن أحساس ما وبداخلها أحساس آخر، وأدركت خلال هذا الوقت الذي انساب سريعًا أن الحب هو هذه اللحظات التي ينظر بها الرجل لتلك المرأة التي يُحب ويدعها تتحدث ويراقبها، كأنه يرى امرأة لأول مرة بحياته..

لم أرد على أسئلة زوجتي المُعتادة وقلت لها بإنني متعب جـدًا لا أريد الحديث.. نظرت لي غاضبة وتجاهلت نظراتها فأنا في عـالم آخر لا مكان لها به، وأريد أن أمكث في ذلك العالم المدة التي أرغبها قبل أن يأتي النهار ويختلس هذا العالم السحري من صدري.

حين يحب رجل في مثل سني يقولون إنه مراهق، وكأنـه يرتكـب خطيئة الحب، ولأول مرة أقبل أن أكون مراهق دون خجـل لأننـي شعرت اليوم بأنني أحب هذه المرأة..

ولأنني رجل يرتبط الحب لدي بالجمال وبما أرى، وهـي جميلـة مشرقة وأنيقة، وكأنها حلم رائع تسلل من إحدى صفحات المجلات النسائية، فلم يكن أمامي سوى الوقوع بحبها، وأن أمرر ملامحهـا الناعمة في مخيلتي المرة تلو الأخرى وأن أسترجع كلماتها الكلمة تلو الأخرى دون ملل.. وعند آذان الفجر كنت قد أخذت قراري بأن أتزوج وأن أخبر زوجتي بقراري هذا، فمشاعري تجاهها لم تعـد تحتمل الانتظار لم يعد يكفيني إيميل أو مكالمة هاتفية أو لقاء عابر أريد أن أكمل ما تبقى من حياتي معها..

(٢٣)

استيقظت على صوت زوجتي الغاضب تتحدث مع ابنتي مريم:

- يجب أن تعتني بابنك وأن تراقبي تصرفاته، فهو يعبث في الأوراق والأشياء والتحف.. لماذا لم تعلميه النظام والترتيب؟

أجابتها مريم بوقاحة:

- وبأي حق تُلقين مثل هذه التعليقات السخيفة، إنه طفل ثم أن هذا بيت أبي يفعل به ابني ما يشاء.. هل تفهمين..

- لقد كان مُحقًا زوجك بأن يُطلقك ولا يطلب حتى زيارتك فأنت لا تُطاقي بالفعل.. لقد أصبحت أسوء من السابق كنت أعتقد أن فشلك في زواجك سوف يجعل منك إنسانة عاقلة ومُتزنة ولكن لا فائدة.

صرخت مريم بوجهها:

-هذا بيت أبي وليس بيتك.. لقد تجاوزتِ كل حدودك، ثم أنك لست أمي كي تحكمي على تصرفاتي هذا ليس شأنك..

- أريد أن أصلح معلوماتك وأقول لك إن هذا البيت لي وباسمي، وأنك ضيفة به، فتأدبي بآداب الضيف..

وقبل أن ترد مريم نهضت سريعًا بعد أن سمعت جملتها الأخيرة وقفت أمامها وقلت لها:

- أرجو أن تُعيدي جملتك الأخيرة.. هذا البيت بيت من؟

ترددت في الإجابة ثم قالت بعصبية:

- إنها تردد طوال الوقت أن هذا البيت ليس بيتي وإنه بيتك، وأنت تعلم أنه بيتي بموجب السجل العقاري لأنك سجلته باسمي، وكذلك بحقي كزوجة لك..

وقبل أن أرد صرخت مريم بوجهها قائلة:

- أنت كاذبة كعادتك..

فابتسمت زوجتي وقالت بتهكم:

- بل أنت الكاذبة، وكاذبة كبيرة لأنني الوحيدة التي تعرف سبب الطلاق، لقد أخبرت والدك بلائحة لا تنتهي عن عيوب زوجك ولكن الحقيقة أنه لا يوجد سوى سبب واحد..

نظرت إليها بدهشة وقلت دون تفكير:

- أريد أن أعرف الآن ودون مواربة..

عادت مريم للصراخ ولكنني أمرتها بلزوم الصمت فقالت بهدوء:

- ابنتك تحب شخص آخر تعرفت عليه على الإنترنت، وتقضي ساعات طويلة في الحديث معه تاركة ابنها مع الخادمة دون رعاية.

للحظات نسيت موضوع البيت ونظرت إلى مريم أريد أن أستمع لردها عما قالته زوجتي.. بدا الارتباك واضحًا ثم قالت بعدائية:

- زوجتك تكذب فهي لا تطيق وجودي في البيت ومنذ أن..

قاطعتها زوجتي:

- أنت الكاذبة.. لقد عثرت على صور من رسائله لك احتفظت بها ووجدتها الخادمة بالصدفة وأحضرتها لي لاعتقادها بأنهـــا أوراق تخصني، لقد صورتها وطلبت من الخادمة إعادتها لمكانها كـــي لا تشكِّي باختفائها، ولكنني لا أستطيع أن أخفي هذا الأمر عن والدك بعد الآن..

بدأت مريم بالبكاء وجلست على أول كرسي وجدته بطريقها وقالت باكية:

- أجل يا والدي أحب شخص آخر ويريد الزواج بي ولا مانع لديه أن يبقى ابني معي.. لقد كنت أريد أن أخبرك لدى انتهاء عدتي..

وقفت من جديد صامتًا لا أدري أي موقف يجب أن أتخـــذه، هـــل أصفعها وأمنعها من هذه العلاقة؟ أم أقول لنفسي بأنها حياتها ولها حق الاختيار؟ ورغم كل مهاراتي في ضبط نفسي إلا أنني فـــشلت في هذه اللحظات، فانهارت يدي على وجهها بصفعة أوقعتها على الأرض ودون تفكير قلت لها:

- أنت امرأة خائنة.. ولا يهم في الخيانة أن يكون لـــديك علاقـــة جسدية مع الطرف الآخر لقد خنت زوجك بمشاعره وكرامته وماله، لا أريد أن أستمع لأي أعذار من قبلك، ولكن أريد أن أسألك سؤال

واحد هل أنت من طلب الطلاق أم أن زوجك كان يعرف بوجود هذه العلاقة؟ لا تكذبي لأنني سأذهب إليه لأعرف الحقيقة..

ساد الصمت للحظات وقالت بصوت مضطرب:

- الحقيقة هي أنه.. أنه طلقني بعد أن عرف بموضوع هذه العلاقة، وهو من طلب مني أن أقول بإنني طلبت الطلاق لأنه أراد أن يحافظ على صورتي أمام ابني حين يكبر، وكان له شرط واحد وهو أن يسترجع ابنه إذا تزوجت.. وقد وافقت على شرطه..

- من هو هذا الرجل؟

- إنه.. إنه أحد زملائي القدامى في الجامعة..

- لا أريد الحديث عن أي شيء الآن.. اذهبي لغرفتك..

وقفت زوجتي ونظرة الانتصار تبدو واضحة على وجهها وقبل أن تغادر مريم المكان قلت وأنا أنظر لزوجتي:

- انتظري قليلاً.. أريد أن تسمعي ما أقوله ثم تغادري لغرفتك.. لأنني أريد أن أقول شيئًا يجب أن تسمعانه أنتن الاثنتين، لِمَنْ هذا البيت يا مرام؟

اضطربت قليلاً.. ثم أجابت بتردد:

- إنه.. إنه لك ولكنك سجلته باسمي هل نسيت؟

- لا لم أنسَ.. ولكن ماذا كان شرطي حين سجلته باسمك، ألم يكن أن يبقى مفتوح لأولادي وأنه بيت العائلة كلها؟

- أجل.. أجل ومن قال غير هذا؟

- أنت من قال غير هذا.. لقد سمعت ما قلته لمريم.. وترجمة مـــا قلته لها هي أننا ضيوف عندك تُحسنين استقبالنا..

قاطعتني بتوسل:

- أرجوك.. أرجوك يا أحمد لا تفهمني خطأ.. لقد كنت أقصد..

- لا يهم ما كنت تقصديه..

غادرت المكان باتجاه مكتبي لأنني لم أعد أستطيع الحديث أو النظر إليهن.. وغرقت في هدوء المكان وظلامه، ولم أتمكن من التخلص من فكرة أنني لم أكن بالقسوة الكافية تجاه ابنتي وزوجتي كـــي لا تحدث مثل هذه الأخطاء، هل كنت مثاليًا أم ضعيفًا مثل والدي ولكن بصورة أخرى بحيث تنهار الأشياء من حولي وأكون أخر من يرى دمارها! أم أنني كنت ضعيف الشخصية بحيث تجاهلـــت ســـيطرة زوجتي الصامتة على حياتي وعلى أموري المالية؟ وهل كنت الأب الغائب الحاضر والذي لم يعرف ابنته وعيوبها ولم يستطع معالجة مشاكلها حين كان لا يزال هناك وقت للعلاج؟ هل.. هل..

كل تلك التساؤلات كانت ترجمة لاتهام لذاتي، لأنني وببساطة رجل شرقي مسؤولياته تبدأ وتكبر وتتضخم، ولكنها لا تنتهي إلا حـــين موته.. وأصعب ما في تلك المسؤوليات ليس تنفيذها ولكن النجاح بها، تبدو الصفقات والأسواق أمور سهلة بجانب هذه المـــسؤولية

اللامنتهية في حياتي الخاصة، فشل ابنتي فشل لي، وفشل زواجي فشل لي، وأي فشل هو عنوان شخصي لصورتي الذاتية حتى أنني أخشى أن يسألني أحد أصدقائي عن ابنتي وأخبارها..

والآن وبعد هروب طويل من واقع تجاهلته لسنوات، أقف وجهًا لوجه مع حقيقة زوجتي المادية، لقد كتبت البيت باسمها ولكنني رهنته لصالح شركتي وأستطيع الحجز عليه واستعادته بأي لحظة وهو ما لا تعرفه، لقد كنت أشعر بأعماقي بأنني لا أستطيع الثقة الكاملة بها وها هو موقف واحد يكشف لي حقيقتها الدفينة، ولم تكن مفاجأة بالنسبة لي..

obeikandl.com

(٢٤)

بعض البيوت ليست جدران وأبواب، ولكن صدر دافئ يحتضننا ويُخفف آلامنا، وبعض البيوت ليست سوى جدران وأبواب باردة جافة تذبل بها الروح وتهاجر رغم بقاء الجسد.

أقف أمام بيت عمتي في ساعة مبكرة من الصباح وما أن تفتح الباب حتى أدخل دون كلمات، أقبل يدها وجبينها وتعرف على الفور بأنني لست على ما يرام، لا تسألني عن شيء وتُعد كوبين من الشاي وتجلس أمامي صامتة كأنها تقرأ أفكاري، ثم تقول لي مبتسمة:

- ألم تتعلم؟

- ماذا تقصدين؟

- ألم تتعلم أن تكون زائرًا بهذه الحياة وألا تحمل الكثير من الأمتعة؟ ألم أقل لك هذا عدة مرات، ولكنك في كل مرة تحمل كل الأمتعة ثقيلها وخفيفها..

- ولكنك لا تعرفين ماذا حدث.

- لا يهم ماذا حدث فهو أيضًا حقيبة جديدة تُضاف إلى أمتعتك الكثيرة..

- ولكن الحياة يا عمتي تجعلنا رغمًا عنا نحمل أثقال لا نرغب بحملها..

- أجل.. ولكن هذا يعتمد على مشاعرك تجاه هذه الأثقال أو المسؤوليات، لابد أن تدرك وتعترف بأنك لست المسؤول عن أخطاء الآخرين، ولا حتى عن خطأ ابنتك أو زوجتك..

نظرت إليها باستغراب وقلت:

- وكيف عرفت؟

- لقد تحدثت معي زوجتك بالأمس وأخبرتني عن كل شيء وهي قلقة من رد فعلك و..

مكثت لدقائق أو لساعات أو لأيام لم يعد للزمن أي معنى ولا قيمة، أريد أن تحتويني لحظات الاطمئنان التي أشعر بها مع عمتي أن أنسى كل ما يدور هناك خلف هذا الباب الصغير وأن أبقى هنا دون أن أسمع حتى صوت ذاتي الهامس..

عدت للبيت وقد أثلجت عمتي صدري وجعلتني أرى الأمور بوضوح أو بالأحرى بهدوء.. طلبت من مريم أن تلحق بي لغرفة المكتب وسألتها:

- هل هذا الرجل مستعد للزواج بك؟

نظرت لي بتردد وخوف وحين ألححت بطلب الإجابة قالت:

- أجل..

- وماذا يعمل؟

- يعمل محامي..

- حسنًا.. لقد تبقَّى أسبوعين لانتهاء عدتك.. هل تفكرين بالعودة لزوجك لو طلب ذلك؟

- لن يطلب ذلك.. لقد تحدث معي اليوم..

- أسألك.. هناك إمكانية للعودة لزوجك؟

- لا.. لا أريد..

- حسنًا.. بمجرد انتهاء العدة يمكن لهذا المحامي التقدم لخطبتك ولكنني أريد اسمه الكامل لأسأل عنه..

كتبت لي أسمه ووقفت أمامي والذهول يبدو على وجهها فنظرت إليها وقلت:

- هذه المرة ومهما حدث معك الطلاق مرفوض، ولا أريد أن أستمع لأي شكاوى، هذا الزواج الثاني سيكون مسؤوليتك الكاملة.

وقبل أن تُجيب بدأت بقراءة الأوراق الموجودة على مكتبي لأتجنب أي حديث آخر معها، فلم يعد هناك ما أقوله لها.. لم تتحرك من مكانها وقالت بهدوء:

- أبي.. أتسمح لي أن أسألك عن ما قالته زوجتك حول البيت.. هل هو بيتها حقًا؟

رفعت رأسي لأُجيب وقلت باقتضاب:

- سوف تعرفين لمن هذا البيت لاحقًا..

- ولكن هل كتبت لها أموال أخرى.. أعذرني لا أقصد..

- ليس مهم ما تقصدين ولكن هذه أموالي أتصرف بها كما أشاء..

فتحت الإيميل الخاص بي ووجدت عدة رسائل أرسلتها نجوى وفي الرسالة الأخيرة كانت غاضبة واعتقدت بأنني لا أريد أن أرد ولكنني كتبت لها جملة واحدة:

- هل تقبلين الزواج بي ولدي ثلاثة أولاد؟ ابنة من زواجـــي الأول وولد وبنت من زواجي الثاني..

وخلال ثوان كان ردها أمام ناظري:

- أجل.. دون تردد حتى ولو كان لديك عشرة أولاد..

obeikandl.com

(٢٥)

كرجل اتخذت قراراتي حسب ما يُمليه عليَّ المنطق والعقل، لم يكن للمشاعر حيز كبير في حياتي، وخلال فترة طويلة من حياتي كنت أهرب من المشاعر وكأنني إذا ما اتبعتها سأفقد الطريق إلى بيتي، وبيتي كان أمني النفسي، هذا الأمن الذي كان مُهددًا طوال سنوات طفولتي، وزاد من هشاشته ما كان يقوله لي والدي، أو بعض أصدقائي من حين لآخر بأن الرجل يجب أن يخاف حين يحب المرأة حبًا حقيقيًا، وأنه يبدأ بفقد السيطرة على المواقف، وكانت الرسالة المختبئة وراء تلك التحذيرات هي أنه يحق لي أن أعرف امرأة أو أكثر، وأن تحبني، ولكن لابد أن أبقى على الطرف الآخر مهما اقتربت هي ومهما أحبتني لابد أن أحافظ على المسافة التي تضمن لي الأمن..

ولكن كل تلك الاحتياطات الأمنية، وكل تلك الحدود التي رسمتها للمرأة بحياتي ورسمتها لنفسي لم تجلب لي أي سعادة، وكأنني أسير في واحة خضراء متدفقة المياه، ولكنني لا أريد أن أستريح تحت ظل شجرة ولا أريد أن أشرب حتى أرتوي، أبقى أتأرجح بين العطش والارتواء، وبين الظل والشمس.. الآن فقط وبعد كل هذه

السنوات الجافة رغم دخول امرأتين لحياتي؛ أفتقد لوجود المـــرأة التي أحبها حبًا حقيقيًا، والتي أتخلى أمامها عن كل حواجز الأمـــن التي فرضتها عليها وعلى نفسي، وأدرك الآن أننـــي لـــن اشـــعر بالراحة إلا حين أتخلى عن قيود أمني الداخلي، وأن أستسلم بكامل وجودي لهذه المرأة، التي أريد أن أبدي أمامهـــا ذاتـــي بـــضعفها واحتياجها للأمن بوجودها، هذا الأمن الذي اعتقدت أنني أمتلكـــه، ولكنني في الحقيقة كنت في رحلة طويلة للبحث عنه، هذا الأمـــن الذي أفتقده مع زوجتي التي تشاركني سريري، ولكنني لا أشـــعر بالأمن معها، ففي أي موقف ضعف أشعر به أو تواجهني به الحياة سوف تكون أول من يتخلى عني..

ولأول مرة ومنذ أن أصبحت رجلاً أتخذ القرار الأول بحياتي وفقًـــا لما تُمليه عليَّ مشاعري، لا أريد أن أفكر ولا أن أستعين بالمنطق، أحب نجوى وتُعجبني صراحتها وعفويتها وجمالها، وأريد أن أكون معها ببساطة دون تحليل ولا تفكير، وحين بـــدأت خيـــوط الفجـــر تتسلل عبر النافذة كانت مرام زوجتي فـــي أفكـــاري ومـــشاعري، ونهضت من سريري بعد ليلة من التفكير والتقلب على فراش لـــم يعد فراش زوجية بالنسبة لي، نظرتُ إلى زوجتي النائمة وشعرت ولأول مرة بأنها لم تعد زوجتي، وأن ورقة الطلاق ليـــست ســـوى التذكرة الأخيرة لرحلة انفصال دامت طويلاً، ولكن تلك التـــذكرة أو ذلك الطلاق هما مجرد إعلان لنهاية الرحلة.

جلست على طاولة الفطور حيث كانت تجلس زوجتي ومريم، ولاحظت بأنهن لا يتبادلن الحديث وتجاهلت الأسباب.. لم أتناول الطعام وقلت بهدوء:

- أريد أن أقول شيئًا مهمًا..

نظرت زوجتي باستغراب، فتلك لم تكن عادتي بالبدء بالحديث قبل تناول الأكل.. تابعت وأنا أنظر إليها:

- سوف أتزوج مرة أخرى..

نظرت لي غير مصدقة أو كأنها لم تسمع جيدًا فعدت للقول:

- سوف أتزوج مرة أخرى خلال هذا الشهر، وأحب أن تعرفي هذا مني لا من أحد غريب..

لم ترد ولكن مريم قالت بعصبية:

- هل جُننت؟

نظرت إليها دون أن أجيب.. ونهضت زوجتي من مكانها قائلة:

- لن يتم هذا الموضوع وأنا على قيد الحياة، أنا مستعدة لعمل أي شيء لمنعك، جرب أن تتزوج وسوف ترى ماذا سأفعل، لست أنا من يرميها زوجها لأجل أخرى مهما كانت هذه الأخرى، لن أقول لك اختار بيني وبينها لأنه لا خيار، أنت زوجي وستبقى زوجي ولن يفرق بيننا إلا الموت..

- هل هذا تهديد أم تحدي؟

- يمكنك فهمه كما تريد..

نهضت مريم بدورها وقالت ناظرة إلى زوجتي:

- وأنا معها.. لن نقبل بزواجك هذا..

قلت بهدوء محاولاً السيطرة على أعصابي:

- هل هذا بدافع الحب لي أم خوفًا على ذهاب أموالي لجهة أخرى؟

قالت زوجتي دون تردد:

- نحن نحبك ولكن لي حق بأموالك أيضًا فقد وقفت معك لسنوات طويلة وأنجبت لك ابنه..

- لا أنكر هذا ولا أنوي أن أطلقك ولكنني أريد أن أتزوج وهذا حق أجازه الشرع لي، حتى ولو لم يكن هناك أسباب للطلاق.. سوف تبقي زوجتي ولن أقصر بأي من حقوقك..

- هذا الكلام ليس معي.. لست أنا من يتم رميها بعد كل هذه السنوات، ولا أقبل أن تكون هناك امرأة أخرى بحياتك..

- أرجوك يا أبي فكر جيدًا.. في مثل سنك الرجال يفكرون بالزواج مرة أخرى، ومن يتزوج منهم يندم لأنها دائمًا تجربة فاشلة، أنت نسيت أنك لم تعد شابًا..

أجبتها بغضب:

- أنت وقحة.. كيف تتكلمين معي بهذه الطريقة، هذا الموضوع لا يخصك اخرجي فورًا..

أرادت أن تتابع كلامها ولكن حين رأتني أنهض لأجبرها على المغادرة خرجت وهي تقول كلمات لم أكن أريد أن أسمعها..

نظرت إلى زوجتي:

- والآن.. أنت تعرفين بأنني أكره لهجة التهديد وأنه أسلوب فاشل معي..

- لا أهددك أنت، فما سأفعله ليس بك ولكن بنفسي.. سوف أقتل نفسي إذا تزوجت بامرأة أخرى، يمكنك أن تُقيم ما تشاء من العلاقات ولكن الزواج لا..

- هذا يعني أنك تقبلين أن أزني وأخون على أن يكون لدي زوجة ثانية بعقد شرعي..

- أجل..

- أنا آسف.. لا أستطيع أن أعيش بالحرام..

قاطعتني قائلة:

- انتظر هنا.. اخبرني بماذا قصرت بحقك؟ لقد عاملتك أفضل معاملة وربيت ابنتك صعبة المراس وصُنت بيتك، ماذا تريد أكثر؟

- أعترف لك بكل هذا ولكن أنت..

- أنا ماذا؟

- أنت أفضل من يُحسن التمثيل، وكنت قد صدقت تمثيلك إلى أن أخبرني المحامي باتصالك به وسؤالك عن أملاكي وكم ستكون حصتك بحال موتي، وحين رفض إخبارك هددتيه بأن يسحب والدك وكالاته من مكتبه.. لقد أخبرني لأنه وبعد فترة طلب من والدك أن لا يكون وكيلاً له، أخبرني لأنك نسيت أنه أيضًا صديقي وقال لي

احذر من زوجتك، وطوال هذه السنوات الثلاث وأنا أشعر بمراقبتك لي وبأسئلتك المُلحة حول الشركة والعقارات، وطلبك تسجيل البيت باسمك وطلبات أخرى لا تنتهي، سؤال واحد كان يدور بخاطري طوال الوقت: ماذا لو أفلست، هل سوف تبقين مخلصة لي بل هل سوف تبقين معي؟ أشك بذلك..

عمومًا شيء أخير أطلبه منك هو أن تتوقفي عن دور العاشقة الذي تلعبينه منذ سنوات طويلة، وتعرفين جيدًا أنك لست صادقة.. ألم تتعبي من هذا الدور أم أنك برمجت حياتك على هذه الاسطوانة القديمة والتي لم تعد تُطرب أحد، كنت أفضل لو أنك كنت امرأة صادقة عفوية وطيبة تحبني لذاتي لا تقول لي كلمات الحب الكبيرة ولكنني أعرف بأعماقي أنها معي في السراء والضراء، وأنها صادقة بمشاعرها حتى ولو لم تقل الكثير من كلمات الحب، لقد أخبروك منذ الصغر بأن الرجل يحب كلمات الحب، وأن الزوجة المثالية هي التي تقول هذه الكلمات اللطيفة طوال الوقت، ولكنهم لم يقولوا لك أو ببساطة لم يعرفوا بأن الرجل هذا المخلوق الذي يعتقد البعض بأنه حيوان غرائزي يفهم ويشعر ويعرف التمثيل والصدق، ويعرف متى يكون محل ابتزاز عاطفي ومتى يكون محل حب حقيقي، ويعرف متى يكون حصان سباق يُراهن عليه، أو مجرد رجل بسيط يُحِب ويُحَب دون مراهنات ودون حسابات..

صرخت قائلة:

- أنت فظيع وأناني.. كل ما قدمته وكل ما فعلته لك تعتبره تمثيل؟ والآن وبعد كل هذه السنوات، مهما قلت لن يكون هناك مبرر لخيانتك، أجل لقد تربيت على أن أقول كلمات حب لزوجي وأن أجامله حتى ولو لم أكن أحبه.. ولكنني أحببتك..

- أعرف أنك أحببتني ولكن مع أموالي، لم أخنك وأريد أن أتزوج وهذا حقي الشرعي شئتِ أم أبيتِ..

وقبل أن تُجيب عادت مريم وقالت بكل ما لديها من وقاحة:

- لن نسمح لك بالزواج ليس لأجلها فقط ولكن لأجلنا نحن أيضًا لن يشاركنا أحد آخر بأموالك وحياتك..

رفعت يدي لأصفعها ولكنني تراجعت وغادرت دون أن أرد..

opelkandl.com

(٢٦)

من خلف النافذة راقبت المدينة المُترامية الأطراف، لم يكن في ذهني إلا صوت زوجتي وابنتي، في لحظات قليلة ولمجرد إعلاني بأنني أريد الزواج مرة أخرى تحولت زوجتي إلى عدوة تترصد بي وابنتي إلى حليفة في العداء، في لحظات قليلة تحولت كل تضحياتي وإخلاصي لهن إلى غبار تحملها أول عاصفة صيف إلى أرض بعيدة ومهجورة، نظرتُ إلى نفسي بالمرآة ولم أنسَ أن أمعن النظر في تجاعيد وجهي وفي شعري الذي امتلأ بالشيب، وتذكرت عمرًا طويلاً قضيته في خدمة زوجتي وبناتي، يتواصل الليل والنهار في أداء المسؤولية، ولا يحق لي أن أتذمر، ولا أن أتراجع، ولا أن أدَّعي التعب أو المرض، والآن وبعد كل تلك السنوات التي حطمت جسدي وروحي وحين أردت أن أستعيد شيئًا من أنفاسي أصبحت خائنًا وأستحق التهديد والاحتقار..

لابد أن أحب زوجتي حتى ولو لم أحبها، ولابد أن أبدي لها الحب حتى ولو عجزت روحي وعجز جسدي عن أداء طقوس الحب، لابد أن أردد لبناتي بأنني سعيد في كل يوم وبكل لحظة وأن حياتي عبارة عن جبل لا تهزه الريح، وإلا كانوا هم أول من يهجر الجبل

المُتشقق، لابد أن أكون تلك القلعة العتيدة حتى ولو كانت جدرانها آيلة للسقوط، فلابد أن أحافظ على شكلها العنيد، ولكن هذه المشاعر التي تتسلل من خلال أرواحنا والتي لا نستطيع لمسها ولا رؤيتها تأتي هامسة بكل هدوء ودون ضجيج: "لستُ سعيدًا.. أكاد أختنق"، نتجاهل هذا الصوت الصامت لأشهر أو لسنوات أو ربما طوال العمر ولكل منا طاقة معينة للاحتمال والمضي في الحياة، أقصى ما يمكن فعله هو تجاهل ذلك الصوت، ولكنه لا يرحل لا يتعب ولا يصمت..

لقد قررت ألا أتجاهل ذلك الصوت الصامت واتصلت بنجوى:

- سوف أسألك للمرة الأخيرة إن كنت تودين الزواج بي رغم فارق السن بيننا وأن لدي أطفال؟

- أجل أنا موافقة..

- أرجو أن ترتبي موعد مع أهلك الأسبوع القادم..

- حسنًا.. لن أدعي الخجل، وأقول لك بإنني متشوقة لهذا اليوم ربما أكثر منك..

- ولكن هل سيوافق أهلك على زواجنا رغم..

قاطعتني قائلة:

- بعد فشل زواجي الأول أخبرتهم بأنني في المرة التالية لن أتزوج إلا باختياري أنا، مهما كان الشخص الذي سأختاره، لا

تقلق لقد قبلوا بهذا الشرط لأنني هددتهم بأنني لن أتـــزوج مـــرة أخرى إن لم يقبلوا به..

حين سمعت صوتها نسيت كلمات زوجتي وابنتي وانتابني شـــعور غامر بالسعادة، وبدأت أفكر بالتحضير للزواج وإنني لابد أن أجهز البيت الذي سأعيش به معها، وبدأت أفكر هل ترغب بحفل زفـــاف أم لا وبكل تفاصيل الزواج التي كنت قد نسيتها في..

لم انتبه للوقت وأنا أسجل قائمة بالأشياء التي لابد من القيام بهـــا وشعور بالحرية والسعادة يملأ صدري، إنها حياة جديدة من امرأة بمواصفات خاصة أحبها وأريد أن أكون معها، انتزعنـــي صـــوت رنين الهاتف من أفكاري وكانت ابنتي مريم على الهاتف:

- أبي.. يجب أن تأتي على الفور لقد حاولتْ زوجتك الانتحار وقد اتصلت بالإسعاف..

لثوانٍ قليلة لم أعد أدري بما أفكر أو بماذا أشعر، وتلاشت صورة نجوى من أفكاري، وخرجتُ راكضًا باتجاه سيارتي، لم أدر كيـــف وصلت للبيت، لم أجد أحد فاتصلت بمريم وأخبرتنـــي بـــأنهم فـــي المستشفى، خلال دقائق كنت في المستشفى، وجدت مريم بانتظاري وقالت وهي تبكي:

- لقد تناولت عدد كبير من الحبوب المنومة..

- كيف عرفت أنها حبوب منومة؟

- كنت أريد أن أسألها عن شيء ما وحين دخلت لغرفتها لم ترد على ندائي ووجدت علبة الحبوب فارغة بجانبها وكان لونها أزرق فأدركت على الفور بأنها حاولت الانتحار..

وقبل أن أتابع كلامي أتى الطبيب باتجاهنا قائلاً:

- لقد استطعنا إنقاذها بأخر لحظة ولكنها بحاجة للراحة وأنصح بأن تبقى في المستشفى يومين أو ثلاثة..

طلبت من مريم العودة للبيت لأجل ابنها، اتجهت نحو غرفتها وطلبت من الطبيب أن أبقى بجانبها، جلست بهدوء أراقب وجهها المُتعب وملامحها التي رافقتني لسنوات طويلة من حياتي، هذه المرأة التي شاركتني أيام وليالي طويلة من عمري أراها الآن بين الحياة والموت لأجلي، هل تحبني بهذه القوة لدرجة أن يصبح الموت شيء هين بالنسبة لها؟

للحظات فكرت بأنها تحبني وأنني ربما كنت قاسيًا في حكمي عليها ولكن شعور آخر سيطر علي دون أن أستطيع تحليله أو إبعاده، وهو أنني أصبحت أسير هذه العلاقة، وأنني لا أملك الخيار في حياتي، وأنها استطاعت فعلاً أن تُجبرني على البقاء معها فإما هي وإما لا أحد، لأنني أخاف الآن أن تكرر محاولتها بالانتحار، وفكرت أنها ربما بعد أن تستيقظ وتدرك خطورة ما قامت به في الدنيا والآخرة أنها قد لا تجدد هذه المحاولة..

ولكنها وما أن فتحت عيونها ورأتني أمامها قالت بصوت ضعيف:

- لقد أخبرتك بأنني سأفعل أي شيء لأحافظ عليك حتى ولو كان هذا الشيء هو موتي..

شعرت باضطراب عنيف ولكني أخفيت مشاعري وأجبتها:

- ولكن يا مرام.. هذه معصية كبيرة والذي ينتحر يكون خالدًا في نار جهنم.. كيف..

لم تدعني أتابع كلامي وقالت:

- لا حياة لي بدونك، لابد أن تفهم هذا، وإذا أردت أن تتزوج أخرى افعل هذا بعد موتي، لأن الموت أهون عليَّ من رؤيتك زوج لأخرى..

بدأ النعاس يغلبها ولم تعد لدي رغبة بالبقاء في الغرفة، خرجت وجلست على أول كرسي وجدته ووضعت رأسي بين يدي محاولاً استيعاب ما قالته لي، وأن أشكل حياتي وفق هذا التهديد، إما بقائي معها أو انتحارها، وشعرت بخطوات تقترب مني ووجدت الطبيب يقف أمامي.. قال مبتسمًا:

- هذا موقف صعب ويحصل أحيانًا.. هل أنت بخير؟

أجبت دون تفكير:

- لا لست بخير.. هي تفكر بالانتحار ثانية إذا..

صمت فجأة.. جلس بجانبي وقال:

- اعذرني للتدخل.. ولكن ما الذي تعاني منه زوجتك؟

كنت أريد أن أتحدث مع أي شخص حتى ولو كان غريبًا عني فقلت له بصراحة:

- لا تعاني من شيء.. ولكنها ترفض فكرة زواجي مـــرة أخـــرى، وتهددني بالانتحار إذا تزوجت امرأة غيرها..

- يبدو أنها تحبك كثيرًا لتتصرف بهذه الصورة..

- هل تعتقد أن هذا حب؟

- أجل بالطبع.. وإن كان بالنسبة لك تهديد ولكنه طريقتها الوحيدة للمحافظة عليك، وهي طريقة معقدة وبسيطة بنفس الوقت..

- كيف ذلك؟

- معقدة لأنها تُجبرك على البقاء وهو ما يُضعف الحب بل ويقتله، وبسيطة لأنها طريقة.. يمكنك القول شبه بدائية للتعبير عن الحب والدفاع عنه حتى ولو بالتضحية بالروح والجسد، المهـــم هـــو رد فعلك أنت، إذا اعتبرت أنها تحبك حقًا وتريد الاحتفاظ بهذا الحـــب فلا مشكلة لديك، أما إذا لم ترغب بهذا الحب فأعترف لـــك بأنـــه وضع صعب..

هززت رأسي وأجبته دون تفكير:

- تتحدث عن خبرة عميقة بهذا الموضوع..

ضحك قائلاً:

- لقد مررت بتجربة مماثلة ولكن مختلفة بعض الشيء، فزوجتي أجنبية وكانت تهددني طوال الوقت بأخذ الأولاد مني إذا تزوجت امرأة أخرى، تراجعت عن فكرة الزواج لأجل أولادي وبقيت معها إلى أن كبروا، والآن لم يعد لدي الوقت ولا الطاقة للزواج مرة أخرى..

نظر إلى ساعته وقال مبتسمًا:

- رغم صعوبة الموقف إلا أنني سررت بالحديث معك، أتمنى أن تجد حلاً يناسبكما، لابد أن أذهب الآن، إذا أردت الاستفسار عن أي شيء بخصوص زوجتك يمكنك القدوم مباشرة إلى مكتبي..

openkandl.com

(٢٧)

بعد عودة زوجتي للبيت لم تعد حياتي تمضي كالسابق، لـم أعـد أشعر بأن هذه المرأة زوجتي ولكنها إنسانة غريبة فرضت وجودها على حياتي، وكأن الزواج يتم على ورقة تربط بين شخصين وهو يتم أيضًا في المشاعر الدفينة للرجل والمرأة، وأنا عقـد زواجـي العاطفي معها قد انتهى، لم أعد أشعر بأنها زوجتي لأننـي أسـير تهديدها، لم يعد موضوع الزواج مرة أخرى هو المهم بهذه المشاعر ولكن رد فعلها على الموضوع هو المهم، لقد أصبح عقد زواجـي معها عقد ملكية أبدية مهما كانت الظروف والمتغيرات..

استسلمت لزوجتي لأن ضميري لا يستطيع أن يمضي في الحيـاة تاركًا خلفي مأساة أنا السبب بها، لو انتحرت وماتت لن تسامحنني بناتي وسوف يعتبرن دائمًا بأنني السبب بموتها، خصوصًا بعد أن قرأت الرسالة التي تركتها حين حاولت الانتحار، موضحة بهـا أن سبب انتحارها هو زواجي من امرأة أخرى، وأنها لا تـستطيع أن تعيش مع هذه الحقيقة.

كتبت لي نجوى بأنها رتبت للقائي مع أهلها وأنهم ينتظرونني في الأسبوع القادم، وطلبت مني الاتصال لتأكيد الموعد...

اتصلت بها وبصوت متردد تحدثت معها:

- آسف يا نجوى ولكن.. لا أعتقد أن موضوع الزواج سوف يستمر، من الصعب عليَّ أن أخبرك ولكن لابد من ذلك كي لا تفهمي موقفي بشكل خاطئ، لقد حاولت زوجتي الانتحار حين علمت برغبتي في الزواج مرة أخرى وتم إنقاذها بأخر لحظة..

ساد الصمت قليلاً وعدتُ للحديث:

- المشكلة إنها أكدت أنها سوف تعاود المحاولة مرة أخرى إذا تزوجت امرأة أخرى..

أجابت بعصبية:

- وأنت تستسلم بهذه البساطة لتهديدها!

- لا أستسلم ولكن هناك البنات.. ثم أنني لا أستطيع..

- أجل.. أجل كلكم لا تستطيعون، حسنًا لقد فهمت، ولكن لماذا تبحث عن زوجة وأنت لديك هذا النوع من النساء؟ سوف أحاول أن أنسى، ولكني اعتقد بأن موضوع انتحارها حررك من الالتزام بالزواج بي..

- لم أتوقع أن يكون هذا رد فعلك، أنت لا تصدقينني، ثم ماذا تريدين أن أفعل؟ أن أقول لها لا بأس افعلي ما شئت..

- بل أن تقول لي افعلي ما شئت، المهم.. أتمنى لك السعادة معها.

قاطعتها قائلاً:

- نجوى.. لماذا لا نبقى على اتصال ربما تُغير موقفها ونستطيع..

- نستطيع ماذا؟ ومتى سوف تُغير موقفها، بعد شهر أو سنة أو.. أرجوك لقد انتهى هذا الموضوع، لقد كنت صريحة معك منذ البداية بأنني أرغب بعلاقة زواج وليس تسلية.. وداعًا..

شعرت بأنني أصبحت شظايا تتناثر، لم أعد أستطيع أن أستجمع أفكاري ولا مشاعري، كل ما أريده هو الصمت والوحدة، عسى أن أستطيع جمع هذه الشظايا المتناثرة والتي تُسمى ذاتي، لقد أرادت زوجتي الاحتفاظ بي دون شريكة وها هي تحتفظ بإنسان تجمدت مشاعره وفقد الرغبة حتى في الحياة، بقيتُ معها حفاظًا على حياتها، وبقيتْ معي لتشاركني العزاء في حياتي الجافة..

يحق لي أن أعترض على طريقة اعتناء زوجتي بالأطفال وبالبيت وباحتياجاتي الخاصة بل وعلى طريقة تفكيرها وارتدائها لملابسها وعلى أشياء كثيرة، ولكن حين أشعر بأنني لا أستطيع أن استمر معها كزوجة، وأن روحي تبدو خاوية مهجورة حين أكون معها، ينتقدني الجميع ويعتبرون أن هذا مطلب كمالي، وكأن الحياة هي هذه الصورة الظاهرية التي لابد أن تُرضي المجتمع قبل أن تُرضي زوجتي، وما أشعر به كرجل، وما أحتاجه كإنسان، يبدو كماليًا، أو بالأحرى مرحلة مراهقة متأخرة..

تنظر لي بعيون العاشقة المستعدة للتضحية بحياتها لأجلي وتجعلني افهم بأنني يجب أن أكون ممتن لتضحيتها هذه لأجلي، وأن أدرك

وبكل لحظة أنه لا توجد امرأة في الكون يمكن أن تحبني مثلما تحبني هي، أستطيع أن أبقى الزوج المخلص الذي يعود في كل يوم بوقت محدد، والذي يلبي كل الاحتياجات لأسرته، أستطيع أن أبقى الرجل المسؤول عن حياته وحياة الآخرين من حوله، ولكن أصعب ما في الأمر هو أن تطلب مني زوجتي أن أكون العاشق أو الزوج المُحب، قالت بغضب:

- اعذرني ولكنك تحرمني من حقي الشرعي، أنت لم تلمسني منذ شهرين، هل هذا طبيعي؟

لم أكن أريد أن أرد ولكن لابد من إيجاد كلمة ما أو بضعة كلمات:

- آسف.. ولكن لا رغبة لدي..

- لماذا ألا تجدني جميلة؟

- لا.. لا.. أنت جميلة.. ولكن..

قالت كلمات كثيرة وجلستُ صامتًا، كانت جميلة ولكنها لم تعد زوجتي في مشاعري، أصبحت ندًا وخصمًا في جزء ما من عقلي اللاواعي، لا أستطيع الاقتراب منها ولا لمسها، لقد كان ذلك أقوى مني، حتى أنني لا افهم هذه المشاعر الغريبة ولكنها تقودني دون تفكير، وحين تعبت من إلحاحها وعتابها الدائم مرات عديدة كان هناك جواب واحد قلته لها دون تفكير أو ربما بتفكير عميق:

- إنه السن يا مرام.. أنا لم أعد شاب.. ربما يجب أن تتقبلي هذه الحقيقة..

- ماذا؟ ولكنك كنت تريد الزواج؟

- أجل، ربما أردت الزواج لأنني شعرت بهذا الضعف لدي وحاولت أن أجد طريقة ما لتجنبه، لابد أن تتقبلي الوضع فنحن نتقدم في السن..

- ولكنني لست عجوزًا بعد ولا أنت..

- أجل.. أجل ولكن لكل رجل طبيعة خاصة به..

صمتت لبرهة ثم قالت:

- أعتقد أنك لست صادقا، أنت لا ترغب بي..

- هل تريدين أن أعمل تقرير طبي لك كي تتأكدي؟ يكفي هذا، إذا كنت لا تريدي تقبل الأمر يمكنك طلب الطلاق..

شهقت بذهول:

- الطلاق.. لا.. سوف نذهب لاستشارة طبيب متخصص..

- لا أريد.. لأنني استشرت طبيب دون أن أخبرك، لابد أن تصبري ربما مع الأيام يتحسن الوضع، الآن أنا متعب تُصبحين على خير..

كنت قد ذهبت فعلاً للطبيب وأخبرني بأنه لا مشكلة عضوية لدي، وأن السبب نفسي، وكنت أعرف تمامًا ما هو السبب فهو في عقلي وأفكاري، فهي زوجتي ولكنها لم تعد زوجتي في مشاعري ويمكنني التحايل على أفكاري وعقلي، ولكن المشاعر هي الشيء الوحيد الذي لا يمكنني أبدًا التحايل عليها لأنها صادقة وشفافة، وهي مرآة

أرواحنا فلا تقبل التحايل ولا تعيش معه، وأدرك الآن فقط أن الرجل ليس هذا الحيوان الغرائزي، بل له مشاعر تجعله يقبل الطرف الآخر أو يرفضه، أو حتى يتخلى تمامًا عن هذا النصف الآخر إذا اهتزت صورته تجاه ذاته وإذا تحول ذلك النصف الآخر إلى نصفه المسموم والمدمر.

قد تعتقد المرأة بأن لديها السطوة لإخضاع من حولها، وأن لديها الأدوات اللازمة للإخضاع ولكنها تنسى بأنها بمجرد البدء بعملية الإخضاع تفقد كل قوتها وهي أنوثتها، حين تتحول إلى ند وخصم لم يعد يبقى لها لدى زوجها سوى المعاملة بالتساوي ولا يعد هناك مكان للرجولة أو الأنوثة، ويصبح هناك جنس ثالث فاقد للهوية، تحكمه المصالح والسيطرة والأنانية، تبدو الأنوثة ضعف لبعض النساء فيكسرنها بالتسلط وممارسة القوة، وقد تنجح، ولكنها تفقد سعادة كونها أنثى، وقد تبدو الأنوثة سلاح لبعض النساء فيتمسكن به ويُعلنَّ أنهن ضعيفات في بعض المواقف وأنهن بحاجة للحماية وللحب، ومهما كانت مرارة الإعلان عن الحاجة للحب فهي ليست بمرارة فقد السعادة تحت شعار ممارسة السلطة، وممارسة السلطة لا تكون بشكلها العنيف فقط، بل بالابتزاز العاطفي والاجتماعي والمادي، وبالتهديد بالعبث بكل موجودات الرجل المعنوية، كأولاده وسمعته وقيمته النفسية تجاه ذاته، ولقد مارست زوجتي هذا الابتزاز العاطفي بإدراك، أو ربما دون إدراك لخطورة هذا التصرف.

لم تعد زوجتي تهتم بسهري أو بنومي، ولم تعد تسألني لماذا تأخرت، شعور بالاطمئنان يكمن بأعماقها بأني لن أستطيع أن أقيم علاقة مع أي امرأة، تشعر بالمرارة ولكنها تشعر بالأمان، لم يعد هناك خطر من رحيلي عن حياتها، فهي تقبل بي حتى ولو كنت عاجزًا، المهم هو أمانها الاجتماعي والمادي.. تمر الأيام بهدوء غريب ويبدو كأنني أطفو على تيار هادئ وصامت.

لا أنتظر الآن أن تنام كي أتسلل إلى غرفة مكتبي لخلوتي الليلة، بل اذهب لغرفة مكتبي حتى وهي مستيقظة، ولا تسألني لماذا ولا متى سأعود؟ لم أكن أتصور أن العلاقة الخاصة بين الرجل وزوجته تُحدد نوعية أغلب ما يربطهما معًا وأن تلك الحميمية في العلاقة لا علاقة لها فعلاً وفي كل الأوقات بمجرد متعة جسدية ولكنها أعمق من ذلك، فهي تحدد طبيعة الارتباط النفسي والعاطفي بالطرف الآخر، تترجم وبالحروف العريضة ما لا تقوله الكلمات، وبمجرد انسلاخ أحد الطرفين عن تلك العلاقة تبدأ العلاقة بفقد بقية روابطها الواحدة تلو الأخرى، فلا يتبقى سوى عقد هزيل ينتظر أن يمتلك أحد الطرفين الجرأة لفسخه.

لا أدري لماذا أفكر بوالدي! أرى صورته في أفكاري بحزنه وصمته واستسلامه لقدره مع والدتي، وفجأة أدركت سر هذه العودة لذكراه ولصورته، فهل بدأتُ استسلم لقدري مع زوجتي؟ الآن فقط أستطيع

أن أفهم والدي وأفهم صمته واستسلامه، لم يكن له خيار آخر كما أنه ليس لي خيار آخر، الآن فقط وبعد كل هذه السنوات من لومه وعدم فهم موقفه أستطيع أن أفهم، لأنني وببساطه أتقمص نفس الدور، ولكن تحت ظروف أخرى، لأنني لا أستطيع أن أغيِّر شيء من حياتي، لدى المرأة أساليب كثيرة لتتحايل على واقعها، لتجعله أخف وطأة، لتلونه بألوان زاهية ولو لدقائق فحيويتها تفوق حيوية الرجل وتفاعلها مع الأشخاص والأشياء أكثر عمقًا من الرجل، والأشياء الصغيرة قد تُسعدها أكثر من الأشياء الكبيرة، وهي تُتقن التعبير عن مشاعرها وأفكارها ورغباتها، ولكن الرجل حين لا يستطيع تغيير واقعه يجثم ذلك الواقع، على صدره ثقيلاً لأنه لا يمتلك تلك الوسائل لجعله يبدو أخف وطأة، الرجل الذي لا خيار له بحياته ضحية صامتة لا عزاء لها.

(٢٨)

مرَّت عدة شهور على زواج مريم من المحامي الذي أحبتـــه ولـــم تحصل أي خلافات بينهما مما جعلني أشعر بالاطمئنان لأجلها، ولكن زوجها وبمجرد زواجها طلب استرداد ابنه، وهو ما وافقت عليـــه فورًا، أصبح لديها طفلة من زوجها الجديد، ولكن هذه الراحة لـــم تدم طويلاً.. ففي صباح يوم خريفي بارد أتت تحمل ابنتها وكدمات حمراء تبدو واضحة على وجهها وحين سألتها زوجتي عن سببها:

- لا شيء لقد وقعت بالأمس..

فقلتُ لها غير مصدق:

- هذه كدمات..

قالت بتلعثم:

- لا.. لا.. لقد وقعت على الدرج..

صمت وخبأت القلق الذي انتابني بأن زوجها يضربها، وبدأت أرى هذه الكدمات كلما رأيتها، إلى أن أتت في مساء أحد الأيام بـــشعر منكوش والدماء تسيل من فمها، نهضتُ من مكاني مذهولاً وارتمت على الكنبة الكبيرة باكية:

- لم أعد أستطيع يا أبي، إنه يضربني حتى دون أن أفعل شيئًا،

حتى أنه أراد ضرب ابنته الصغيرة، أرجوك سامحني لقد أخطأت.. إنه وحش وليس رجل، الآن فقط أعرف قيمة زوجي الأول..

لم تعد لدي كلمات أقولها لها، انسحبت إلى غرفتي تاركًا الموقف لزوجتي لأنه أصعب مما أحتمله، وتذكرت زوجها الأول بأخلاقه وأدبه وبرفضها له، شعرت برغبة شديدة بالنوم أو بالأحرى بالهروب من واقع لم أعد قادر على معالجته..

أيقظتني يد ابنتي الصغيرة والناعمة نهاد، قبلتني ومررت يدها الصغيرة على وجهي، نظرت إليها للحظات وكأنني لا أريد أن أرى بهذه الحياة سوى هذا الوجه الدافئ وهذه العيون الممتلئة محبة لي، احتضنتها وأبقيتها بين ذراعي بعضًا من الوقت وقالت بصوتها الناعم:

- لقد نمت كثيرًا يا أبي، أختي مريم تبكي كثيرًا لأن زوجها أخذ منها ابنتها الصغيرة، وأمي تبدو غاضبة..

صمت قليلاً ثم أجبتها:

- أنت حزينة لأجل أختك مريم؟

- أجل.. وحزينة لأن ابنتها الصغيرة لن تأتي لزيارتنا، لماذا أخذها والدها؟

- هذا سؤال سوف نعرف أجابته.. هل كتبت دروسك؟

- أبي.. لماذا أنت غير مهتم ببكاء مريم؟

- أنا مهتم ولا أحب أن أراها تبكي ولكن من الطبيعي أن تبكي لأنها تشتاق لابنتها، سوف أحاول حل هذا الموضوع، والآن حدثيني عن المدرسة..

بدأت تتحدث عن المدرسة وعن زميلاتها وألعابهن وحديثهن وذهبت معها لرحلة بعيدة نحو عالم البراءة، ذلك الوقت الذي قضيته معها جعلني أنسى كل ما أفكر به، وانتقل لحالة من الهدوء والسكينة، هذه الكلمات البسيطة البريئة والصادقة أزالت كل كآبتي وغضبي، فاستسلمت بكليتي لحديثها الصغير بكل تفاصيله اللغوية والحركية، وتأملت عيونها السوداء التي تلتمع كلما تذكرت قصة جديدة، لقد كانت في غاية السعادة لأنني استمع لها باهتمام دون أن أقول لها كالعادة مرة أخرى فأنا مشغول الآن، وقالت مبتسمة قبل أن تغادر:

- أبي.. هل تحب أن أخبرك بقصص المدرسة كل يوم؟

- أجل، حضري لي كل القصص كل يوم لأنها مُشوقة خصوصًا حين تكوني أنت البطلة في كل القصص..

احتضنتني من جديد والسعادة تغمرها، وكنت أتمنى لو يكون لدي مثل هذه الروح الصغيرة التي تفرح لكلمات قليلة ومشاعر بسيطة وكل ما تريده من الحياة هو هذا الحب اللا مشروط...

اليوم فقط اكتشفت سعادة صغيرة في حياتي لم أكن أراها من قبل، إنها هذه الروح الصغيرة التي حملت وجودي إلى عالم من الفرح.

جلس زوج مريم أمامي صامتًا ولكن كل حركة في جسده تنم عن عصبية لا حدود لها بداخله.. سألته بهدوء:

- لماذا يا بني.. كان يمكن أن تتحدث معي قبل أن تطلقها ربما كان يوجد حل..

رد محاولاً السيطرة على عصبيته:

- لم يكن هناك أي حل..

- ولكنني لا أرى أي سبب مباشر لهذا الطلاق وكأب من حقي معرفة سبب طلاق ابنتي سواء كنت أنت المُخطئ أم هي..

تململ في مكانه مبديًا عدم رغبته بإجابة سؤالي فتابعت قائلاً:

- أنا لا أزال اعتبرك كابن لي رغم كل ما حدث، ولكن موضوع الطلاق لا يحق لك أن تُخفي سببه عني..

تململ مرة أخرى ولوى أصابع يديه مُحدثًا صوتًا عاليًا ثم أجاب:

- لا أدري ماذا أقول لك.. لقد أحببت مريم وكنت مستعد لعمل أي شيء لأجلها، ولكن وبعد أشهر من الزواج لم يعد يُعجبها شيء أفعله أو أقدمه لها، ولكن حين قارنتني بزوجها السابق لم تحتمل أعصابي تلك المقارنة وأصبحت علاقتنا متوترة، رغم كونها قارنته بي مرة واحدة ولكن شيء ما انكسر بداخلي تجاهها، لا أدري هل كنت أتخيل ذلك أم لا ولكن نظراتها وكلماتها كانت تحتقر كل ما أفعله وأقوله، وكأن زوجها السابق كان يقف طوال الوقت بيننا، وأعترف لك أنني لا أجيد فن إرضاء النساء، حين تُثير أعصابي

المرأة لا يهمني شيء وأضربها دون تفكير، ولكن مـــريم بـــشكل خاص كانت تستفزني ولا تتوقف عن لومي، وفي النهاية لم يعـــد لدي طاقة للاحتمال فطلقتها.. لا أدري هل أنا السبب أم هي..

سألته من جديد:

- اعذرني، ولكن أريد أن أسألك سؤال خاص ويمكنك رفض الإجابة عليه.. هل كان والدك يضرب أمك؟

نظر لي باستغراب ولم يرد، وساد الصمت لدقائق وأبـــدى رغبتـــه بالخروج، فقلت له قبل أن يغادر:

- اسمع يا كريم.. لا تعتقد بأنه من السهل علي كأب أن اجلس مع رجل أحب ابنتي وهي متزوجة وأقام معها علاقـــة، وكـــان ســـبب طلاقها، ثم تزوجها وكان يضربها ثم يُطلقها دون أن يعـــرف هـــل الخطأ منها أم منه وبعد ذلك يحرمها من ابنتها الصغيرة، اعتقد أن أي أب آخر مكاني لن يستقبلك ولن يتحدث معك وسوف يتم اللقاء في مركز الشرطة أو المحكمة، لابد أنك مستغرب من هذا الموقـــف بل وربما تستهين بي لأني لم أعاملك كما تتوقع أن يعاملك أي أب في مجتمعنا، حتى ولو كانت ابنته مُخطئة سوف يدافع عنها، بـــل ويذهب معها للمحكمة وللشرطة..

وقف ينظر لي صامتًا ينتظر أن أتابع كلامي بفضول شديد وتابعت قائلاً:

- ولكنني لم أفعل كل هذا لأن الرجل الذي يضرب زوجته هو ضحية نفسه أولاً، هو من يدمر ذاته ثم يدمر البيت الذي بناه بيديه وتتكرر عمليه البناء والهدم طوال حياته ما لم يعالج هذه المأساة الخاصة به، والتي لا تخص زوجته بالضرورة، أنت من يتألم وأنت من يعاني من مشكلة ما، وسوف يتكرر ضربك لأي امرأة تتزوجها ما لم تتعلم وتعترف بأن العنف ليس سوى الغطاء الخارجي لمعاناة أعمق لديك، لسخط ما استقر بداخلك ضد من حولك أو ضد ذكريات قديمة لم تستطع أن تجد تفسير منطقي لها، ولهذا سألتك إن كان والدك كان يضرب أمك، وأتوقع أن الإجابة نعم، وأنك نشأت ولديك قناعة بأن الضرب حل لأي مشكلة لأن والدتك كانت تصمت..

أنا أعرف تمامًا شخصية ابنتي وعيوبها وأعرف أيضًا بأنها لن تستطيع أن تكون المساندة لك بمحنتك النفسية هذه، لابد أن تجد امرأة أكثر نضجًا ووعيًا، أو أن تصبر على مريم بعضًا من الوقت لتعتاد على نوبات الغضب هذه وتتعلم كيف تتعامل معها..

عاد للجلوس ولم يتكلم وكنت أعرف تمامًا أنه لا يُحسن التعبير عن نفسه، وأن العنف الذي كان يمارسه على ابنتي لم يكن سوى عدم قدرته على التعبير عن مشاعره وعلى فهم مشاعر الطرف الآخر، رغم أنه محامي ومتعلم ولديه خبرة في الحياة، وبعد مُضي قليل من الوقت قال:

- أريد أن أفهم لماذا تعاملني بهذه الطريقة، فقد أتيت وأنا أتوقع حدوث مشاجرة كبيرة بيننا؟

- لأنك أب حفيدتي.. ولأن الطلاق لا يعني أن تتدمر كل العلاقات، تأكد بأني كأب أعاني كثيرًا من هذا الموضوع، خصوصًا وأن هذا هو الطلاق الثاني لابنتي ولكنني أحافظ على الشعرة الأخيرة عسى أن تعودا معًا يومًا ما، ثم إنك حين تضرب زوجتك تهدم الركن الأهم بحياتك حتى لو صمتت تحمل الحقد عليك في ثنايا قلبها ولابد أن تنتقم منك يومًا ما، إن لم يكن بشكل مباشر فسوف يكون عبر أولادك، لأنهم يرون العنف الذي يُمارس على والدتهم، ولا يهمهم من المُخطئ ومن المُصيب، فرؤية العنف تلغي المنطق والأسباب..

- لقد فهمت الآن، ولكن لابد أن أقول لك بإني لا أستطيع الموافقة على منح الحضانة لمريم لأني لا أثق بتربيتها لابنتي، فهي تقضي أغلب وقتها خلف جهاز الكمبيوتر وتُهمل ابنتها، حتى أني اعتقد بأنها مدمنة على الكمبيوتر.. ثم أنها..

- ماذا؟

- الحقيقة هي أنني لا أثق بها لأنها خانت زوجها الأول وأقامت علاقة معي وهي متزوجة..

ومن جديد سيطرت على أعصابي وأجبته:

- ولكنك تزوجتها وبدأت حياة جديدة معها..

- أجل ولكن هذه الحياة لم يعد ممكن استمرارها..

- لماذا لا تقول منذ البداية إنها كانت لعبة وأنت مللت من هذه اللعبة، ولكن لا تطعن بأخلاق ابنتي، لقد عرفتك في الجامعة وتزوجتها وأنت تعرف كل شيء عنها، لو كانت سيئة الخلق لما تزوجتها، سوف نطالب بحضانة الطفلة عن طريق المحكمة ولكنني أنصحك بأن تُعطي الطفلة لأمها لأنك محامي ومعروف في المحكمة.

- يمكنك رفع ما تشاء من القضايا، ولكنني أنا الذي أنصحك بعدم فعل ذلك لأنني سأطعن بأخلاق ابنتك، وأنها تقضي ساعات طويلة تتصفح وتتحدث على شبكة الإنترنت مُهملة ابنتها وزوجها..

اعتراني الغضب لوقاحته ولأن صبري بدأ ينفذ في حوار عقيم:

- لا أدري كيف تخلت ابنتي عن زوجها السابق المحترم وأحبت شخص مثلك!

دخلت مريم باكية:

- أرجوك يا كريم أعد لي ابنتي، لم أفعل لك شيئًا، يمكنك أن تعيش حياتك كما تشاء دوني ولكن ابنتي، لقد تخليت عن ابني من زوجي السابق لأجلك.. أرجوك..

خرج من الغرفة دون أن يرد عليها وصرختُ بوجه مريم غاضبًا:

- أنتِ من أحضرت هذه النوعية لحياتنا، وقلت لك إنك أنت من يتحمل المسؤولية وهذه هي النتيجة..

بدأت بالنحيب مرددة اسم ابنتها، لم أعد أدري ماذا أقول لها، ولم يعد للوم مكان أمام مأساتها ولا لكلمات التعاطف، لم يكن هناك مكان سوى للصمت وصوت بكائها على ابنتها.. كسر ذلك الصمت صوت زوجتي قائلة لها:

- ربما من الأفضل أن تبقى البنت معه، فهذه مسؤولية عليك وإذا حصل لها أي شيء سوف يسبب لك مشاكل كثيرة فهو محامي ومن النوع الذي يمكن أن يفعل أي شيء، لا أدري كيف تورطت بهذا الحب وهذا الزواج..

صرختْ بوجهها مريم قائلة:

- أنا أعرف لماذا تقولين هذا، لإنك لا تريدين أن تأتي ابنتي هنا، مثلما كنت تتذمرين من وجود ابني معي في السابق..

وردت عليها مباشرة:

- هل تريدين أن تتزوجي في كل مرة وتتطلقي ثم تعودي بطفل معك لهنا، ربما المرة القادمة سوف تُحضرين طفلين، هل أنا دائمًا أتحمل نتائج أخطاءك..

صرخت مريم بوجهها:

- اخرسي.. أنت..

رفعت يدي لأصفعها ولكنني تراجعت فقالت زوجتي بتحدي:

- لماذا لا تضربها، أم أنك لا تجرؤ، تدليلك لها هو ما جعلها تفشل مرتين بزواجها، كنت أتمنى لو تتصرف معها برجولة ولو لمرة واحدة.

نظرت إليها بصمت وطلبت منها اللحاق بي لغرفة النوم، وقفت أمامي بتحدي واضح وقلت لها:

- الآن تطعنين برجولتي أمام ابنتي.

فأجابت ببرود:

- لم أطعن برجولتك ولكنك ضعيف أمامها.

- هل تنكرين الآن ما قلته قبل قليل؟

- لا أنكر ولكنك بنفسك اعترفت بأنك تقدمت بالسن وأنك لم تعد شاب، وأعتقد أن هذا بدأ ينطبق على أشياء كثيرة بحياتك، من ضمنها موضوع ابنتك، حتى أنك لم تتصرف بحزم مع زوجها، رجل آخر مكانك لربما هشم وجهه.

شعرت بالدوار وجلست لأسترد أنفاسي وأجبتها بصعوبة:

- أعتقد أنك واضحة بما فيه الكفاية، فضعفي في العلاقة الزوجية جعلك تعتبرين بأن قيمتي كرجل قد تضاءلت وأنه بإمكانك أن تفعلي وتقولي ما تشائين..

- لا.. ولكن الحقيقة تبقى واضحة، نحن نتقدم في السن ونضعف.

- أجل.. أجل، خصوصًا أنا كرجل تقدمي في السن أخطر من تقدمك أنت في السن لأنه يعني ضعف في رجولتي، ولكن تأكدي بأن

الرجولة ليست دورًا يمارسه الرجل في فراش الزوجية بل هو دور يستطيع أن يمارسه حتى حين يصبح عجوزًا، إنه قرار وموقف.

- وهل تبقى لنا بعد كل هذه العمر موقف؟.. أرى أن الأمور هي التي تحدد موقفنا خصوصًا فيما يتعلق بابنتك..

- أنت لا تزالين تُلمحين بخبث لنفس الموضوع وأنا أفهمك جيدًا..

- ماذا تقصد؟ هل تعتقد بأني ألح عليك لأجل علاقتنا الزوجية أم ماذا! أريد أن أعترف لك وبصراحة بأنني أشعر بالراحة لأن تلك العلاقة قد انتهت، هل ارتحت الآن.. لقد كانت تُشكل عبء علي..

بماذا يمكن أن يرد الرجل حين تقول له زوجته هذه الجملة بعد سنوات من الحياة معًا؟ ألا تكون قد أنهت فعليًا هذه العلاقة المُهترئة؟ أم يتحتم علي أن أرد عليها بأنني أيضًا كنت أحافظ على هذه العلاقة لا رغبة بها كامرأة بل كواجب زوجي وديني؟ مثل هذه المواقف التي لا تستغرق سوى دقائق تكون زلزال قد حدث بصمت في أعماق العلاقة ولم يتبقَ سوى الانهيار، ولكنني لا أستطيع أن أحرك الحجر الصغير الذي يسند تلك الصخرة العنيدة لأنني لا أزال أريد لهذا البيت أن يكون بيتي.. فابتسمت وأجبت بهدوء:

- أشكرك للصراحة، وأرجو ألا تنسي وخصوصًا أمام أولادي بأنني لا أزال رجلاً رغم رغبتك بأن أقدم تقاعدًا مبكرًا لهذا الدور.. ثم إذا كانت تلك العلاقة تُشكل عبئًا عليكِ فلماذا حاولتِ الانتحار وتُصرين على الانتحار إذا تزوجت عليك؟

- هل تعتقد أنه من حقك وبعد سنوات من الزواج وبعد أن قضيت شبابي معك أن تقول لي إن دوري انتهى، وأنك ستبدأ حياة جديدة مع أخرى أصغر مني، هذا ليس من حقك خصوصًا وأني لم أقصر بأي من واجباتك، وتخليك عني يُعادل موتي، وسواء كان بيننا معاشرة زوجية أم لا أنت زوجي ولا أتخلى عنك لأي امرأة أخرى، ثم أن المرأة لا ترغب بهذه العلاقة دائمًا لأجل المتعة ذاتها، ولكن لتتأكد وفي كل مرة بأنها أنثى مرغوبة، حتى ولو كانت تكره هذه العلاقة، وليست العلاقة هي التي تجعل الزواج يستمر بل الرغبة التي تشعر بها لدى زوجها، والحقيقة هي أنني لم أعد أشعر بأي رغبة لديك تجاهي وكأنني..

شعرت بأنفاس تختنق بصدري وبألم في قلبي ولم أرغب بأن أتابع حديث لم يعد له معنى أو جدوى، ولا أن أصلح ما لم يعد هناك مجال لإصلاحه، ثم أن الألم لم يترك لي مجال للحديث، ولم أكن أريد أن تعرف بأنني أتألم، فأخبرتها بأنني مُتعب أريد النوم، غادرت بصمت وتمددتُ على السرير أراقب السقف وأرى حياتي كفيلم باللون الأسود والأبيض، تتحرك أبطاله ببطء، والكلمات به تبدو مشوشة وبعيدة وفاقدة للمعنى، وأرى نفسي صاحب الدور الرئيسي في الفيلم القديم ولكن دون أن أكون البطل.

(٢٩)

أرقى حالات الإنسان هي حين يعترف بضعفه، بأنه عاجز أمام موقف ما وأنه يتألم لسبب ما ويعاتب لسبب آخر، يترك كل غروره وكبريائه عند بوابة ضعفه الإنساني، فإن لم يعترف به مبكرًا أجبره الزمن والسنوات على الاعتراف بضعفه، بجسده وبروحه وحتى بعقله، وكأن قدره الذي يهرب منه هو هذا الضعف وحاجته الدائمة لمن يقف بجانبه، ومن حظ المؤمن الصادق هو الاعتراف الدائم بهذا الضعف، وتوجهه اليومي لرب العالمين طالبًا للمساعدة أو حتى للأنُس به بعد أن يرحل الأبناء وينسى الأصدقاء وتصبح الوجوه ذكرى والكلمات محطات يلفها الضباب أمام قطار الذاكرة الطويل.

ولكنني كرجل لا يحق لي الاعتراف بضعفي، وإن اعترفت به وأعلنته أكون قد انتقصت من رجولتي، يحق لي الاعتراف بضعفي فقط حين أكون مريض أو رجل عجوز لا حول له ولا قوة، ولكن وعلى مدى مراحل حياتي كلها لابد أن أكون الرجل الصامد القوي الذي لا تهزه الأحداث، لقد تربيت على هذا المفهوم، وقد أخبرني المجتمع وبصرامة أن هذا هو حقي وواجبي وقد قالت لي زوجتي

وفي كل المواقف بأنه لي حقوق كثيرة عندها، إلا حقي بالضعف أمام أي موقف كان سوى حقي بالمرض، وإن اعترفت لها بأنني أشعر بالتعب أحيانًا وأنني لست ذلك البطل الأسطوري أخاف أن ألمح تلك النظرة الصامتة والقاتلة بأنني لست رجل بما يكفي، فأصمت وأدفن ضعفي وتعبي تحت المزيد من أوراق العمل والمقابلات والأجوبة الدبلوماسية..

وأنا الآن متعب وأخفي تعبي حتى عن أهل بيتي، ولم يعد تعبي نفسيًا، ولكن جسديًا أيضًا، فذلك الألم في صدري ينتابني من حين لآخر، ولكنني أتجاهله لأنه لا وقت لدي لأن أمرض..

في هذا الصباح البارد قادتني سيارتي إلى المقبرة دون تفكير، توقفت طويلاً بجانب قبر أم جمال وتمنيت لو أنها على قيد الحياة، لقد كانت تحتضن كل آلامي وتخفف عني كل أحزاني بكلمات رقيقة وقليلة ولكنها مُفعمة بالحنان الرقيق الصادق، لقد كانت تجمع أجزاء نفسي المُبعثرة وتُعيد تركيبها من جديد، أدخل لبيتها مُهشم الروح ثم استرجع بعد كلماتها الدافئة صلابة نفسي وروحي، لقد كانت بوصلتي نحو الاتجاه الصحيح، ولولا وجودها لفقدت اتجاهي وشخصيتي كرجل بهذا الوجود، ولأصبحت رجلاً تائهًا مثل أخواي أيمن وسامح.

قد يكون الرجل ناجحًا في عمله لذكائه، وسيدًا في بيته لأن المجتمع وبعض أنواع النساء منحن السيادة المُسبقة للزوج رغم كل عيوبه ورغم كل المعاناة، ولكنه وبأعماقه يكون تائهًا، تائهًا عن مشاعره وغارقا بأفكار لا يستطيع أن يُشارك بها أحد، ولا يملك القدرة على التعبير عنها لأحد، يحيا في عالمين، عالم الواقع مع من يعيش معه، وعالم خاص به تختلط به الذكريات والكلمات والبناء والهدم والحب والكره، عالم ملئ بالانفعالات ولكنه صامت ولا يستطيع أحد الدخول إليه أو الخروج منه، فقط إذا استطاع الرجل أن يجد شريكة حياة يثق بقدرتها على فهم معاناته وضعفه وتناقضاته يبدأ ذلك العالم المُحكم الانغلاق بالانفتاح ببطءٍ شديد، وبمجرد أن تُسئ شريكة الحياة استعمال تلك الثقة ينغلق ذلك العالم للأبد..

لم أزر قبر أم جمال لأذرف الدموع لموتها، فقد بكيت كثيرًا غيابها عن حياتي، ولكنني أريد أن اشعر وجودها بحياتي من جديد، حتى ولو كانت في عالم الأموات، لأنني أعرف بأن الأرواح لا تموت، وأنه لم يغادر سوى الجسد، أفكارنا ومشاعرنا لها وجود، وأرواحنا لها وجود، فكيف نحصر كل هذا الوجود الثري اللا محدود بوجود الجسد الضيق؟ بل إن الروح تسعد وتنطلق حين تغادر شهوات الجسد واحتياجاته، والأفكار تتألق حين تصعد لعالم الروح، ومشاعرنا لا ترتقي إلا حين تنفصل ولو من حين لآخر

عن احتياجات الجسد، لذلك أشعر بأنها لا تزال حية في حياتي، بل إنها أكثر حياة من بعض الناس الذين حولي، تلك الكلمات الصادقة وتلك الابتسامة الدافئة وتلك النظرات المُشجعة أنقذتني من دماري النفسي وبنت لي جسرًا قويًا نحو الحياة..

وبتردد خجول زرت قبر أمي وأبي وقرأت الفاتحة، وغالبت دموعي لأنني لم أطلب الدعم الروحي والنفسي منهما، ولكن من إنسانة غريبة دُفنت على مقربة منهما، وشعرت بألم عميق يجتاح روحي وفكرت بأن الأمومة والأبوة لا تنتهي بالموت بل تترك بصماتها على الروح والجسد والعقل، ورددت كلمات المغفرة والرحمة لهما وأنا لا أزال أغالب دموعي..

خرجت من عالم الأموات ونظرت خلفي قبل أن أغادر، وأصغيت السمع للهدوء الأبدي، ونظرت للعالم الواقعي على الطرف الآخر من المقبرة، وانتابني شعور غريب بأن هذا العالم كله الذي نقلق ونكره ونحب ونصارع لأجله ليس سوى لعب ولهو وتفاخر، في الأولاد والأموال، وأن البقاء هناك في الدار الآخرة.. دخلت للمقبرة حزينًا ومشوشًا وخرجت وصدري يتسع لكل هذا الكون، لأنه وببساطه أصغر من الروح الواسعة التي منحنا إياها رب العالمين.

ما أن دخلت إلى المكتب حتى وجدت أشرف بانتظاري، كان يبدو مضطربًا ومُتعبًا كأنه لم ينم منذ أيام، ودون كلمات جلس على الكنبة الكبيرة يجد صعوبة في الحديث:

- لا أدري ماذا أقول لك ولكن..

- ماذا هناك يا أشرف لقد أقلقتني.. أرجوك تحدث..

تنهد قائلاً:

- لن تصدق، ولكن زوجتي..

- ماذا بها.. هل هي مريضة أو ماذا حدث؟

- ليتها كانت مريضة أو حتى ميتة.. لقد رفعت قضية طلاق، لا تريد أن أكون زوج لها..

صمت قليلاً ثم تابع:

- لقد كانت تراقبني منذ سنة ونصف وتعرف كل شيء عني وعن علاقاتي، لقد وضعت كاميرا تصوير في الفيلا، ولديها أشرطة تحتوي على كل ما حدث، حتى أن الزيارة التي قمت بها للفيلا تم تسجيلها، أنت محظوظ لأنك لم تقع في الخطأ..

- بل قل إنني محظوظ لأنني أخاف الله، وقد حذرتك عدة مرات..

قال بغضب:

- أرجوك، لم آتِ إلى هنا لأستمع لتقريعك لي فما بي يكفيني، المصيبة أنه يوجد عقد زواج إسلامي عقدناه هنا، وعقد زواج أمريكي مدني تم عقده بأمريكا كي تلحق بي خلال تلك الفترة، وكما

تعرف فقد عشنا في أمريكا حوالي عشر سنوات قبل الحضور لهنا ونحمل الجنسية الأمريكية، لقد رفعت قضية طلاق في أمريكا وسوف تحصل على نصف ثروتي بل وربما تحصل على كل ثروتي لأنها سوف تقدم كل الأشرطة كدليل على خيانتي لها، لو كنت أعرف لفسخت عقد الزواج الأمريكي وأبقيت العقد الإسلامي، كانت لن تحصل سوى على مؤخر مهرها وتغيب عن حياتي للأبد، ولكنني غبي..

- وهل كنت ستتركها دون أي نقود إذا لم يوجد العقد الأمريكي؟

- أجل بالطبع وبلا ندم ولكن تلك القوانين الغربية قصمت ظهري..

- اسمح لي، ألا تخجل من نفسك؟ فهذه المرأة قد وقفت بجانبك لسنوات طويلة في السراء والضراء وتريد أن ترمي بها إلى الشارع لأنها فضحت أخطاءك الشنيعة، كنت أتوقع منك جواب آخر، حتى ولو كان القانون الإسلامي يمنحها حقوق بسيطة فهذا لا يعني أن تتخلى عنها بعد أن قضت شبابها في رعايتك ورعاية أولادك..

قال صارخًا:

- بأي حق تتحدث معي بهذه الصورة؟ هل تعتقد نفسك من الصالحين؟ وكأنك أمها أو أختها ولست صديقي..

كان يريد أن يغادر ولكنني أمسكت بيده وطلبت منه الجلوس..

- اسمع يا أشرف.. هل تقبل أن يتصرف زوج أختك كما تصرفت أنت مع زوجتك؟ أو هل تقبل أن يخون زوج ابنتك ابنتك ليس مرة

بل على مدار سنوات؟ لا أدَّعي أنني أفضل منك، فلي عيوب وربما أسوء من عيوبك وأتمنى أن أنفصل عن زوجتي ولكنني لم أفكر بأي يوم بالخيانة أو الزنا..

- ماذا تقول؟ الزنا..

-أجل هو زنا، وإن حاولت التعابير الثقافية الغربية والحديثة نعته بأسماء أخرى مثل علاقة خارج الزواج ونزوة و.. و، هو زنا، ونهانا رب العالمين حتى عن الاقتراب منه وأنه فاحشة وساء سبيلا، ثم كيف تريد لأي امرأة على الأرض أن تحتمل خيانة زوجها لها لسنوات وسنوات كأنها حشرة أو حيوان مهجور في بيته، ماذا سوف تتصرف لو أنها خانتك؟ المشكلة هي أنك كنت تخونها للمتعة فقط وليس لأنك تريد الزواج بأخرى أو أنه يوجد خلافات ما معها، لقد خنتها لأنك تُدمن العلاقات مع النساء، وهل تعتقد أن امرأة بمثل سنها سوف تكون سعيدة بالطلاق حتى ولو كان لديها كل أموال الأرض، لقد ذبل شبابها معك ولم يتبقَ لها في الحياة مثلما مضى، فماذا تريدها أن تفعل؟ أن تُغمض عينيها وفمها وأذنيها وأن تُمثل دور الزوجة المحبوبة والمثالية؟ لا تغضب مني وفكر بكلامي، أنت صديقي ولا أحب أن أراك بهذه الحالة وأتمنى لو أستطيع أن أساعدك..

ساد الصمت ونظر لي بيأس قائلاً:

- المشكلة يا أحمد هي أنني لا أستطيع أن أتخيل حياتي بـــدونها.. لقد كانت الركن الوحيد الثابت في حياتي، وكل الباقي ليس ســـوى أشياء تتحرك وتتبدل، الحقيقة هي أنني لا أخاف على ثروتي بـــل أن افقدها، ربما كنت بتلك الجرأة والحيوية التي كنت تراني بهـــا لأنها كانت تمُدني بتلك الطاقة، لأنني كنت أعرف بأنها دائمًا فـــي مكان محدد تنتظرني، وأن الحياة مهما قست عليَّ ســـوف أعـــود لصدرها الحنون، ربما لم تكن علاقتنا دائمًا جيدة ولكنني بمجـــرد أن أشعر بوجودها وأستمع لكلماتها تهدأ حواسي وتستكين أعصابي وأعود لمواجهة الحياة من جديد، ربما يا أحمد وبأعماقي الدفينـــة أكون..

صمت محاولاً أن يمنع دموعه فقلت بهدوء:

- تكون تحبها حقًا بل ولم تحب امرأة أخرى سواها..

حزن عميق انتابني لأجله ولأجل نفسي، لأنني لن أبكي أبدًا علـــى مثل هذه الحب لأجل زوجتي، وشعرت بوحدة أعمق من الـــسابق، وشعرت أن أشرف رغم مشكلته الكبيرة يتمتع بشيء فقده الكثيـــر من الرجال، وهو الانتماء لتلك المرأة، والإدراك عميقًا بأنها ركنـــه المتين بهذه الحياة.

وحين هدأ سألته:

- هل لو أسقطت قضية الطلاق يمكن أن تعودا معًا؟

- بالطبع.. بل أنا مستعد لأن أكتب لها كل ما تريد ولكن لا تتركني..

- والعلاقات النسائية الأخرى؟

- لقد انتهت الآن.. لا أريد سوى زوجتي..

- إذا كنت تحبها لهذه الدرجة لماذا تصرفت بذلك الطيش؟

تنهد قائلاً:

- إنه موروث نفسي قديم.. فالرجل أحيانًا يقيس نجاحه مع المرأة بعدد النساء اللواتي يعرفهن ويقعن بغرامه ثم يتركهن باكيات، يعود لبيته صامتًا أمام زوجته ولكنه ممتلئ بالفخر بأنه لا يزال ورغم كونه متزوج يستطيع أن يُغري أي فتاة بجاذبيته ورجولته، بل ويتحول حب الزوجة له إلى إثبات مزعج على تقدمه في السن، والأسوأ أننا كرجال لا نقبل أنفسنا إلا بمقياس شاب وسيم ومرغوب مهما تقدمنا في السن، نريد وفي كل سنة تُضاف لعمرنا أن يتم التأكيد على حيويتنا ورجولتنا، فكل قصص الغرام تتحدث عن شاب وسيم وكل الدعايات التلفزيونية بطلها شاب يافع وكل أغاني الحب لا يغنيها إلا شاب..

الرجل يتقدم في السن ولكن كل ما حوله يقول له احذر من التقدم بالسن لأنه ضد رجولتك وضد جاذبيتك، وأعترف لك بسطحية تفكيري، وأنني كنت أرغب دائمًا أن أبدو أصغر سنًا من سني

الحقيقي، حتى أنني أذهب لمتخصص تجميل لمعالجة بشرتي من حين لآخر وهو ما لم أخبرك به، ولكن ما حدث أيقظني من صراعي هذا مع نفسي ومع مفاهيم غُرست في نفسي الدفينة منذ أن أصبحت بالغًا، بأن نجاحي كرجل لا يعني نجاحي في حبي لزوجتي وأن تبادلني ذلك الحب، بل أن أعيش مغامرة الحب مع أكبر عدد من النساء.

والأسوأ من كل هذا هو أن أرى نفسي بتلك الأوضاع المُشينة، أن ترتكب الخطأ أهون من أن ترى ذلك الخطأ تقترفه يداك وجسدك بالصوت والصورة، لقد تركت لي كل الأشرطة في ليلة تعسة وكتبت ورقة لي تُخبرني بأني يجب أن أرى هذه الأشرطة، وفعلت مثلما طلبت مني ظانًا بأنها أفلام، وحين رأيت نفسي كنت أريد أن تنشق الأرض وتبتلعني، لم أنم في تلك الليلة، ولم أستطع أن أراها في الصباح، ودام الصمت بيننا لأيام وأيام إلى أن وصل لي إبلاغ المحكمة بقضية الطلاق، أؤكد لك بأنني لن أعود لحياتي السابقة حتى ولو تم الطلاق، لا أستطيع أن أرى نفسي بتلك البشاعة، الغريزة خطيرة يا أحمد وجارفة وحارقة ومدمرة إلا إذا كانت ضمن إطار ديني وأخلاقي، هل تتصور بأنني ابن الخامسة والأربعين اكتشف هذه الحقيقة بعد سنوات من العبث والاستخفاف بكل القيم وحين اكتشفت ذلك كان الوقت قد تأخر..

ما أن غادر مكتبي حتى توجهت لبيته لمقابلة زوجته.. استقبلتني بلطف وقالت قبل أن تجلس:

- لولا رؤيتي لموقفك المُسجل على الشريط ورفضك لسلوك زوجي لما استقبلتك ولو لثانية، احترامي لك هو ما دفعني لقبول رؤيتك والحديث معك عن موضوع أعتبره شديد الخصوصية..

- أشكرك، واعذري تدخلي ولكن أشرف صديقي ولقد قام بزيارتي اليوم ولهذا السبب أتيت لرؤيتك..

ودام حديثي معها وقتًا طويلاً وأدركت على الفور بأنها تحبه مثلما يحبها، وبمشاعر المرأة الرقيقة حين تحب بصدق قالت لي برصانة:

- منذ سنوات بعيدة لم يُخبرني بأنه يحبني بل اعتقدت أحيانًا بأنني لست موجودة في حياته وأنني مجرد مربية لأولاده، لقد كنت أعيش معه ولكنني كنت وحيدة بمشاعري وأفكاري، لو أنه قال لي إنه يُحبني ولو لمرة واحدة في الشهر أو حتى في السنة لتجاوزت عن أمور كثيرة ولكن تلك الوحدة المريرة التي كنت أعيشها بجانبه جعلتني أراقبه وأضع تلك الكاميرا كي أعرف هل زوجي ينفر مني لذاتي أن هناك امرأة أخرى، وأقول لك بصدق بأنه لو كانت هناك امرأة أخرى لكان الأمر أهون علي بل لربما طلبت منه أن يتزوجها بدل أن يعيش في الحرام، ولكن ما دفعني لطلب الطلاق هو أن ذلك الرجل الموجودة صوره في الأشرطة ليس الرجل الذي أعرفه والذي تزوجته.. عمومًا، هذا بيته.. وبعد ما أخبرتني به لن

أسقط دعوى الطلاق ولكني سأوقفها، وإذا أخطأ بحقي مرة أخرى سوف تكون هذه فرصته الأخيرة، أنا أحبه ولـــن اجعـــل كبريـــائي وغضبي يحكمان أموري، وهو أب أولادي ولأجـــل زيارتـــك هـــذه سوف أمنحه فرصة أخرى، لم يكن هدفي المال ولن يكـــون، فأنـــا أحببته ولا أزال أحبه، ولكن أخبره بأنها فرصته الأخيرة..

ما أن أخبرته على الهاتف بما حصل حتى قال بصوت منفعل:

- ماذا؟ أنت فعلت هذا! لماذا لم تُخبرنـــي بأنـــك ســـوف تـــذهب لزيارتها؟

- لقد كنت أخشى أن ترفض وأن تتأمل ثم يخيب أملك..

- أنت إنسان رائع.. رائع..

- لست رائعًا ولكن الدين يأمرني بالإصلاح بين الزوجين وألا أقف مكتوف الأيدي، هل فهمت الآن لماذا أتمسك وأحب هذا الدين، الدين ليس وسيلة لأن أبدو أفضل من الآخرين ولكنه وسيلة للتقرب من الآخرين وفهم معاناتهم، بل وأن أفهم معاناتي أيضًا من خلالهم، لقد تجاوزت أمور كثيرة في حياتي بفضل تمسكي بتلك التعاليم الدينية البسيطة، ولم أعتقد ولو للحظة أنني أفضل منك.. بل إنني أرى بك صفات أفضل من صفاتي ومصارحة للذات أعمق من مـــصارحتي لذاتي..

وبصوت متهدج قال:

- أشكرك.. أشكرك.. سوف اذهب إليها الآن بل سوف أطير إليها..

غاب أشرف لشهرين وحين عاد كانت السعادة تغمره ولم يتوقف عن شكري طوال الوقت فسألته فجأة:

- ألا تفكر بالعودة لرؤية صديقاتك؟

- أعوذ بالله.. هناك شيء أخير أريده منك.. ولكن لا تستغرب..

- لا استغرب معك أبدًا.. ما هو؟

- أريد أن نذهب للصلاة معًا خصوصًا أيام الجمعة..

- حسنًا..

ابتسمت وربت على كتفه..

obeikandl.com

(٣٠)

رن جرس الهاتف في ساعة متأخرة من الليل، عرفت صوته على الفور، لقد كان أخي سامح، قال بصوت هادئ:

- لابد أن أراك يا أحمد..

- متى؟

صمت قليلاً ثم أجاب:

- هل تستطيع الآن؟

استغربت ولكنني أجبته على الفور:

- أجل..

تساؤلات عديدة جابت أفكاري عن سبب هذه المكالمة الغريبة في منتصف الليل ولم أجد أي إجابة لها، توقفت عن التفكير وأسرعت بقيادة سيارتي.. فتحت زوجته الباب وقالت لي بصوت خافت:

- لابد أن أخبرك أن سامح مريض.. لا أستطيع أن أقول لك ما هو مرضه كي لا يغضب مني فأنا لا أعرف إن كان يريد أن يُخبرك أم لا وأخاف أن..

قاطعتها قائلاً:

- لا عليك.. افهم الوضع..

obeikandl.com

دخلت لغرفة النوم، كان ممدد على السرير أصفر الوجه وباهت الملامح، للحظات اعتقدت إنه شخص آخر، لم أصدق أن هذا الرجل الممدد هناك هو أخي سامح الطويل والوسيم، أخفيت صدمتي برؤيته وابتسمت.. وقبل أن أتكلم قال لي:

- لم تتغير يا أحمد.. أجدك حين احتاجك، لقد كنت دائمًا أخي الكبير رغم جفائي نحوك وابتعادي عنك..

نظر عبر النافذة المظلمة وكأنه يبحث عن شيء ما يُبعد نظراته عني وبعد صمت قصير تابع قائلاً:

- أنا مريض بمرض عضال، وقد أحيا لأيام أو لشهور ولكن ليس أكثر من سنة، لقد خضعت لعلاج كيميائي طويل ولكن نتيجة العلاج لم تكن إيجابية فالمرض ينتشر بجسدي..

قاطعته بغضب:

- ولماذا لم تُخبرني؟ هل نسيت أنني أخوك؟

عاد للصمت ثم تابع:

- كان لدي أمل بأن أشفى وأن أراك وأستطيع أن أكون أخوك الصغير مثل الماضي، لم أكن أريد الاتصال بك كي لا تعتقد بأنني اتصل بك لأنني مريض، صدقني يا أحمد كنت أريد أن أستعيد علاقتي معك ومع أيمن بمجرد أن أشفى ولكن.. المهم هو أنني حين عرفت النتيجة بالأمس قررت الاتصال بك وذلك قبل أن..

قاطعته بحدة:

- أرجوك يا سامح، الأعمار بيد الله ولا أحد يعرف متي سيموت ثم لابد أن تكون متفائل..

نظر لي بحزن وقال:

- لقد كنت متفائل ولكن الطبيب وضح لي حقائق علمية وأجرى كل الفحوصات الطبية التي تؤكد النتيجة، المهم أنني بحاجة للحديث معك، لسنوات طويلة وأنا اهرب من هذه الأخوة لأنني كنت أريد دفن الماضي والذكريات والألم، ولكن ذلك الماضي كان يختبئ في تجويف ما من عقلي وقلبي يراقبني وينتظر وما أن سنحت له فرصة التحرر من سجنه خرج ليحتل مساحة وجودي..

عاد للصمت ولم أرغب بالحديث كنت أريد أن استمع لكل كلمة يقولها قبل أن.. يشفى أو يرحل أو.. يموت..

- سنوات طويلة قضيتها أحارب الذكريات وأحارب صورة والدي الضعيف، فكنت الزوج المتسلط والأب القاسي، لقد رفضت صورة والدي وتقمصت شخصية والدتي رُغمًا عني، لقد سحقت ومبكرًا أي شخصية لزوجتي، فلم تكن سوى ظل صامت لي، إلى أن فقدت أي طعم للحياة، أراها تتحرك كظل باهت لا تحلم ولا تتأمل ولا تبتهج، أما أولادي فبمجرد أن اشتد عودهم خرجوا من البيت أو بالأحرى هربوا، فضلوا الحياة في البلاد الغريبة ومع أشخاص غرباء على أن يكونوا بقربي..

وبعد دقائق من الصمت الثقيل تابع قائلاً:

- تلك القيود التي فرضتها عليهم كانت في الحقيقة سجني الـذي جعلت أسواره أعلى وأعلى بكل يوم، وكلما ازدادت قيودي ازدادت وحدتي، إلى أن أصبحت جدرانه أصعب من أن يتسلقه أي إنـسان ويُخلصني من وحدتي، اعرف لماذا أصابني هذا المـرض، فـنحن البشر لا نستطيع أن نخنق المشاعر ولا الذكريات، وإذا لـم نعقـد الصلح معها تبدأ بتدمير الجسد، لا تستطيع أن تختار ما تشعر به، المشاعر فقط هي الأكثر حرية في كل وجودنا، لأنهـا لا تعتـرف بالقيود ولا بالمنطق ولا بالحسابات تنطلق عبر الروح فتحتل الجسد والواقع والأفكار، إنها ذلك السيل الهادئ الذي إن لم يذهب لمساره الصحيح دمر كل ما حوله بهدوء ودون ضجيج، وبسبب مشاعري وحياتي الصارمة وذكرياتي، حمل جسدي أثقال زائدة عما يستطيع تحمله، لقد حاولت لسنوات أن أسيطر على هـذه المـشاعر وأن أتجاهلها، حتى شوقي لك كنت اخنقه، وشوقي لأيمن استهزئ به، وحتى مشاعري تجاه أولادي وزوجتي كنت أخفيها لأنني كنت أخشى أن افقد السيطرة على بيتي، ولكن المشاعر يا أحمد لا تمـوت ولا تتعب بل ولا تنام حتى خلال نومنا تلاحقنا عبر الأحلام أو الكوابيس والأسوء هو أنني لم أكن أستطيع أن أخبر زوجتي بكل هذا الألـم، أنا متزوج منذ سنوات طويلة ولكنني وحيد حتى العظم، لأنني كنت أخاف أن أعترف لها بضعفي، وجزء كبير من ضعفي هـذا سـببه

ذكرياتي فكيف أحدثها عن ضعفي دون أن اكشف لها عالم ذكرياتي الصامت، لقد كنت أخاف من احتقارها لهذا الضعف أو للحياة المؤلمة التي عشتها في طفولتي وإنني لا أزال غير قادر على النسيان.

عاد للصمت وجلستُ بجواره صامتًا، لم يطلب مني أن أجيب كأنه كان يريد أن يتحدث فقط، أن يقول كل ما يدور بمشاعره وأفكاره..

دخلت زوجته تحمل فناجين الشاي وقالت بتحفظها المُعتاد:

- ربما من الأفضل أن ترتاح قليلاً..

قاطعها قائلاً:

- ارتاح الآن حين أتحدث مع أحمد فلا تقلقي..

خرجت بصمت وعاد السكون من جديد، نظر إليَّ ولأول مرة منذ دخولي لغرفته بشكل مباشر:

- هناك جزء من ذكرياتي لا تعرفه وهو الأصعب، أنت صممت على السفر لمدينة أخرى للدراسة والابتعاد عن البيت، وخلال سنوات دراستك حصلت أمور لم أخبرك بها، وربما ولهذا السبب كان لابد أن أراك وأتحدث إليك، ليس لأخبرك ولكن لأنني لم أعد احتمل الصمت والادعاء بأنني رجل قوي وأسيطر على مشاعري إلى درجة نسيانها الآن، أقول لك وأنا اقترب من الموت بأنني رجل وإنسان وأشعر بالضعف والخوف كما شعرت بهما في مراحل كثيرة من حياتي، هل تتخيل بأنني الآن فقط أشعر بالحرية الكاملة

تجاه ضعفي، لماذا نحيا بكل هذا الكم الهائل من الغبـــاء ونتحـــول لعباقرة حين يقترب الموت؟

كلما التقينا نتجنب الحديث عن أمي وكأننا نخاف أن تعود من جديد أو أننا نشعر بحضورها بشكل أكبر كلما اجتمعنا لأننا نشكل عناصر المأساة الكاملة باستثناء والدي الذي رحل، ولكنني وفي كل يوم لم أتوقف عن تذكرها عبر الكلمات والتصرفات والقلق والألم والغضب المخنوق، ولكن هناك ذلك الشيء الآخر، أن تكون ابنها المُـــدلل، لقد كنت الضحية المُدللة، فبعد أن توقفت عن ضربنا وشتمنا لأننا وببساطة كبرنا، أصبح هناك تسلط من صنف آخر، كانت تنـــاديني إلى غرفتها وتحدثني عن والدي وعن عيوبه التي لا تُعد ولا تُحصى ولم تكن تكتفي بأن أهز رأسي بالموافقة بل لابد أن أشاركها الرأي وأن أتحدث عن ضعف شخصيته وسلبيته وانسحابه في كل المواقف، وكلما توطدت تلك العلاقة كلما حصلت على امتيازات أكبر، إلى أن تحولت إلى جاسوس على كل تصرفات والدي، وأحيانًا كنت أختلق أشياء من عندي كي تكبر مكافأتي، وكان أيمن خارج تلك العلاقـــة يقبع في مكان ما في البيت لا مكان له بجانب أبي ولا معنا، فنـــشأ دون أن يعرف ما هي هويته, أو أين مكانه..

أصبحت أتجنب والدي ونظراته لأنني كنت أخجل من تلك النظرات، خصوصًا وأنه كان يعلم بما يدور ولكنه لم يلمني أو يتحدث معـــي

بهذا الموضوع، ورغم كل المشاكل التي كانت تفتعلها والدتي لـــه بسبب نقلي كل أخباره لها لم يغضب مني، لقد كان صمته أحيانًـــا يقتلني وأفهم الآن بأنه كان قد قرر أن يكون ميتًا بيننا إلى أن يأتي الموت الحقيقي، كل الذكريات الأليمة مع والدتي لا تجعلني أبكـــي، ولكن صورة والدي الصامتة ونظراته البعيدة والمـــشتتة تجعلنـــي دائمًا أرغب بالبكاء، لأن أمي جعلتني شريكًا في قتله..

عاد الصمت من جديد وفي هذه المرة ثقيلاً وطويلاً، لم يكن لـــدي أي كلمات وكأنني فقدت الذاكرة أمام ذلك الماضي الجريح.. بـــدأت الدموع تنحدر على وجهه ولم اقترب منه لأمنعه من البكاء، كـــان لابد أن يبكي ولابد أن أراه يبكي، لأنني أدرك وبيقين بأنـــه جعـــل والدي يتألم أكثر مما جعلته أمي يتألم..

عاد للحديث وكأنني غير موجود في الغرفة:

- لقد قدمت لي الكثير ولكنها سلبت مني أغلى ما أردته في حياتي، حين أحببت ولأول مرة في حياتي في الجامعة أخبرتها عنها، كـــان اسمها رغداء وكانت حلمي الجميل، تمت خطبتي علـــى رغـــداء، وحين رأت مدى تعلقي بها وحبي لها لم تستطع أن تتقبل الأمـــر، فوقفت أمامي وقالت:

- لن يتم موضوع زواجك بها، أنت ضعيف أمامهـــا وأخـــشى أن تتحول لصورة عن والدك إذا تزوجتها وأنا ربيتك لتكون رجل قوي وليس شخص ضعيف مثل أخوك أيمن أو متمرد مثل أخوك أحمد..

أجبتها دون تفكير:

- هل والدي كان يحبك ولهذا كان ضعيف أمامك؟

لم ترد على سؤالي، وخلال أيام أصبحت رغداء حلم ميت في قلبي وحياتي، ثم اختارت لي زوجتي، وتزوجتها كي لا تغضب، وحتى هذه اللحظة لم أنسَ ولن أنسى رغداء، حلم مات في حياتي ولكنه حي في مماتي..

لم تكن رغداء امرأة حياتي, ولكنها كانت شرخ في مرآة نفسي، كانت أول محطة تقف بها أمي أمامي وتقول لي بأن لي حدود وزوايا لا أستطيع التصرف والتفكير إلا من خلالها، وأنني رجل ولكن ليس كما أريد بل كما تريد هي، وكأن رغداء كانت أول المطر نحو سيول من فقدان الذات، قررت والدتي ماذا سأدرس واختارت لي أصدقائي وزوجتي، وحين رحلت نظرتُ حولي فلم أرَ سوى أحلام أمي تدور في سماء حياتي أما أنا فكنت في مكان ما لا أدري أين هو ولا يستطيع أحد أن يحدد لي أين أنا، ففرضت القيود والأوامر على نفسي وعلى الآخرين، ولكن كل تلك القوانين لم تستطع أن تمنحني هويتي لأنها تهمشت تحت القهر المُغلف بالحب وتحت الحب الممتزج بالحقد والغضب، وأدركت وبعد عمر طويل أن إبداع المرأة الأم يكمن بجعل ابنها رجل حقيقي ذو هوية وطموح وقبل كل شيء مُحب للحياة ولرجولته، وليس حائرًا بتلك الرجولة لا يدري كيف يمارسها.

ولأول مرة منذ دخولي لغرفته نظر لي بشكل مباشر وقال:
- سؤال واحد فقط لم أجد أجابته، لماذا كنت مختلف عنا؟ لماذا لم تستطع أمي أن تشوه معالم ذاتك الدفينة؟

كنت لا أزال غير راغبًا في الكلام أمام ثقل كلماته وجو الغرفة المحتقن بالألم والذكريات وبدايات الوداع.. ولكن كان يجب أن أرد على سؤاله، وبصوت ثقيل كأنه يخرج من بئر عميقة أجبته:
- إنها أم جمال.. أتذكرها، جارتنا القديمة.. لقد احتضنتني كابنها، كانت امرأة بسيطة ولكنها عظيمة بإنسانيتها، لم تقدم لي أشياء كبيرة ولكنها كانت تُخفف ألمي وتربت على كتفي وترفض رؤيتي ضعيفًا، أو بالأحرى كانت تداوي الجروح التي كانت تتركها أمي في روحي وعقلي، فالعقل أيضًا يتألم ويُعيقه الألم عن تنفيذ المهام التي خُلق لأجلها، وإذا استمر ألم العقل لا يمكن أن تستمر الحياة بصورة طبيعية، الروح تحتمل الألم أكثر من العقل لأنها أكثر انطلاق منه، إذا كرهت الواقع تخلق عوالم أخرى تهرب إليها ولكن العقل أسير مشاعرنا وذكرياتنا, حاولت أم جمال أن تجعلكم تأتون لزيارتها ولكنكم كنتم لا تحبون زيارتها بسبب بيتها المتواضع ومظهرها البسيط، باختصار أستطيع أن أقول لك بأنها وفي كل مرة ترى ذاتي تتناثر تُعيد تركيبها من جديد بعناية وحرص إلى أن بدأت أستطيع بنفسي إعادة بناء ذاتي في الأوقات الصعبة، الأم

ليست مُربية فقط؛ بل لابد أن تكون مهندسة إنسانية بارعة تُـتقن بناء الذات وتُتقن ترميمها، وأمي وللأسف لم تكن تلك الأم..

توقف عن النظر لي وعاد لعالمه البعيد وغرق في صمتٍ عميـق، اقتربتُ منه وضممت يده بين يدي، وشعرت بخوفه وضعفه مثلمـا كنت أفعل حين كنا صغار، وشعرت بنفس الخوف ونفس الضعف، وبأننا بأعماقنا نبقى ذواتنا لا نكبر ولا نتغير، وأن الخوف واحـد مهما كانت أسبابه، ترك يده بين يدي دون أن يسحبها ونظر لـي باكيًا، فاقتربت منه واحتضنته وشعرت بمدى ضعف جسده ووهنه، ضممته لصدري وكأنني أودعه للمرة الأخيرة وأخبرته بأني سأعود لزيارته، خرجت مسرعًا قبل أن يرى دموعي، وفي سيارتي أجهشت بالبكاء..

obeikandl.com

(٣١)

- يبدو أنه حتى عند الموت لا قيمة لي..

قال أيمن تلك الجملة دون أن ينظر لي وكأنه يرددها لنفسه، وقبل أن أرد تابع قائلاً:

- لماذا لم يطلب أن يراني كما طلب أن يراك؟

لم يكن لدي الرغبة ولا القدرة على الرد، ولكن رؤية حزنه جعلني أبحث عن أي كلمات:

- لقد كان يريد أن يراك وأخبرني بذلك، ولكنه مات بعد أيام قليلة من زيارتي.. صدقني يا أيمن لقد أخبرني إذا كنت لا تصدقني اسأل زوجته..

رد باقتضاب:

- ولماذا اتصل بك ولم يتصل بي بنفس الوقت.. أعتقد..

قاطعته قائلاً:

- ماذا بك يا أيمن! أنت تلوم وتعتب وسامح لم يمض على موتـــه سوى وقت قصير..

رد بتهكم:

obeikandl.com

- هل تدري أن أصعب وأصدق الأسئلة تثور عند الموت.. بل وأن الموت يكشف قيمتنا الحقيقية..

لقد عشت مع أخي أيمن سنوات طفولتي وبلوغي، واعتقدت دائمًا بأنني أعرفه ولكنني الآن انظر إليه كأنني أراه لأول مرة، أرى هشاشته وتشتته العاطفي والنفسي، وكأن موت سامح هشم تلك القشرة الرقيقة لحقيقة ذواتنا وإننا لأجل فهم هذه الذات لابد لنا من العودة إلى الماضي، أخذتني أفكاري بعيدًا عن جملته الأخيرة فنهض قائلاً:

- حتى أنت يا أحمد لا قيمة لي عندك.. إنك لا ترد على كلامي..

نهضت فجأة وأمسكت بكتفيه ونظرت إليه بغضب:

- هذا يكفي.. لقد كان لك دائمًا قيمة كبيرة عندي وأنت تعرف هذا جيدًا، أنت من ابتعد ولم يرغب بأي علاقة معي، هل نسيت برودك حين أقوم بزيارتك؟ هل نسيت أن شهور كانت تمضي دون أن تتصل وأنك لم تأتِ إلا مرة واحدة لزيارتي؟ وأنك..

فقاطعني صارخًا:

- ماذا تريدني أن أقول لك.. إنني أكرر فشلي في كل المحطات، وأنه لا سيطرة لي على بيتي ولا حتى على حياتي وكأنني أسير في عكس الاتجاه في كل مرة، وفي كل مرة أراك ناجحًا منسجمًا مع ذاتك يزيد ألمي وشعوري بالفشل، ليس غيرة منك ولكن أسفًا

على نفسي، وكلما رأيت صورتك الناجحة؛ صغرت صورتي أمـــام نفسي، أتحول لقزم أو حتى للا شيء..

قلت له بهدوء:

- أرجوك يا أيمن اجلس، أنت أخـــي الوحيـــد الآن، ولا تعقـــد أي مقارنه بيني وبينك لأنه ببساطة كان يمكن أن أكون مكانـــك أو أن تكون مكاني ولكن الحياة..

جلس وأجابني بانكسار:

- لا يمكن أن أكون مكانك ولا أن تكون مكاني، على الأقـــل لـــيس بعد كل الأخطاء التي ارتكبتها في حياتي..

- ولكنك دفعت ثمن تلك الأخطاء وانتهى الأمر..

- انتهى الأمر على الأوراق الرسمية، تمـــت محـــاكمتي بجريمـــة الاختلاس وانتهت مدة سجني ولكنني حتى الآن لم أخرج من سجن الخجل من نفسي، لا أنسى الليالي التي قضيتها فـــي الـــسجن، ولا نظرات زوجتي وأولادي لي، وأنا قد اختلست لأجلهم ولأجل إرضائهم وحين سُجنت لم يزوروني سوى مرتين في السجن، أنت الوحيـــد الذي كان يزورني كل شهر ورغم رفضي لاستقبالك لم تتوقف عن زيارتي، في كل مرة كنت تأتي بها كنت تقتلني وتزيد مـــن ألمـــي، وكأنك تُصر على أن أرى نفسي أصغر فأصغر إلى أن أتلاشى أمام صفاتك وقدراتك، أحيانًا كنت أتمنى لو أنك لست أخي، أو لو أنني في بلد آخر بعيد عنك، ولكن الحقيقة يا أحمد هي أن زياراتك لـــي

هي التي منحتني القدرة على الاستمرار، لقد فكـرتُ كثيـرًا فـي الانتحار وكلما حضرت لزيارتي تراجعت عن فكرة الانتحار، لو أنك توقفت عن زيارتي لكنت ميتًا الآن، لقد منحتني الحياة من خـلال القضبان ودون أن أراك فقط لمجرد معرفتي بأن هناك من يهتم بي ويحمل الحب لي رغم كل عيوبي..

- لطالما أردت أن اطلب منك معرفة سبب رفضك لمقابلتي ولكنني لم أرغب بالحديث عن موضوع سجنك، لم أكـن أزورك كـي أراك فقط، كنت أزورك رغم معرفتي بأنك لا تريد أن تراني كي تشعر أن هناك من يحبك ويرغب دائمًا برؤيتك، النجاح يا أيمن ليس الحصول على الثراء أو المنصب ولكنه السلام الذي تعقده مـع نفـسك، أن تستطيع استقبال الحياة في كل صباح بابتسامة رغم كل الألم؛ لأن هذه الحياة ليست دار سعادة بل دار اختبار ولا تنفصل بها السعادة عن الشقاء، النجاح هو أن تقدر على الحب وأن لا تـرفض مـن يقدم لك الحب مهما كان قليل الشأن، ولكن النجاح وقبل كل شـيء هو أن تحب نفسك وتقبلها كما هي وتسامحها وترحمها حتى ولـو قسى عليها كل البشر..

جلس صامتًا يفرك يديه بتوتر.. نظر لي بتساؤل:

- هل تتذكر أحيانًا طفولتنا؟

- أجل.

- لا أدري لماذا أعيش في تلك الذكريات، ولا أخرج منها وكأنها تُطاردني، لم تحاول في أي يوم أن تعرف لماذا اختلست تلك النقود من الشركة، وأعلم أنه سؤال راود كل من يعرفني ولكنني الآن أقول لك الجواب، أخطر ما يدمر الإنسان هو انعدام قيمته تجاه نفسه، أن يكون مقسم بداخله وغير واثق، أن يدور العالم من حوله دون أن يكون له أي مركز بذلك الدوران، في مهب الريح بلا وزن ولا قيمة، وأنا نشأت دون أن يكون لي قيمة، كنت الأخ الأكبر وسامح الأخ الأصغر، لطالما شعرت بأنني شيء زائد في البيت، أنت كنت من قوة الشخصية بحيث استطعت أن تدافع عن نفسك وأن ترفض وقررت أن تخرج من البيت وتدرس في أي بلد آخر، أما أنا فقد كان الخوف من كل شيء يشل كل قدراتي، وكانت أمي تعتقد أنها بإهانتي وعقابي سوف تجعل مني رجلاً قويًا..

أن تكبر وتُصبح بالغًا أمر ليس سهل حتى في الأحوال العادية، ولكننا كبرنا بصعوبة شديدة وبمعاناة أليمة، وحتى هذه اللحظة لا أشعر بهويتي كرجل، لقد تزوجت ولدي ثلاث أولاد، ولكنني فاقد لهويتي كرجل، لا استمتع برجولتي، بل وأخاف من ممارستها لأن الخوف زُرع في قلبي منذ نعومة أظافري فلم أعد أستطيع أن أرى الأشياء بحجمها الحقيقي.. أراها دائمًا أكبر مني.

فاستسلمت على الفور لتسلط زوجتي وسلمتها مقاليد الأمور كما أرادت، ليس بسبب ذلك الخوف القديم فقط، ولكن لخوفي بأني لن أستطيع أن أعالج الأمور، فوجدت مبررًا لعدم قدرتي بأن تكون زوجتي هي المتصرفة وهي صاحبة القرار وهكذا عقدت الهدنة مع رجولتي..

- وكيف عقدت هذه الهدنة؟

- إذا حصل أي موقف أعجز عن مواجهته جعلتها تتخذ القرار لتتحمل هي نتائجه ويكون عذري الوحيد والجيد بأنه ليس قراري.. عند حدوث أي مشكلة أجعلها تشعر بأنها هي التي يجب أن تتصرف كي لا يصدر عني أي سلوك يزيد المشكلة تعقيدًا.. في بداية الأمر كانت زوجتي تستمع بذلك الدور الذي منحته لها اعتقادًا منها أنه عن رغبة مني، ولم تكن تفهم أنه عن ضعف، وحين فهمت أعطت لنفسها كل الحرية لتقرر كل الأشياء، صغيرها وكبيرها، الآن فقط وبعد عمر كامل قضيته هاربًا, أفتقد تلك الرجولة وأشعر بأنني لم أحيا قط، وأنني كنت في رحلة في بلد لا أحبه ولا أحب أرضه، ولا شعبه، يا أحمد كيف لي أن لا أحب حياتي؟ ومع أشخاص آخرين؟ كيف لي أن أعيش؟

ساد الصمت ونظر لي بحزن:

- حين يصيب الانكسار حياة أي منا لا يعود له رغبة بأن يحيا هذه الحياة، وأنا أصيبت حياتي بالانكسار منذ الطفولة لم يكن هناك

من يحميني من قسوة أمي أو احتقارها لضعفي، وكبرت وأنا أحمل هذا الانكسار، وأنه لا قيمة لما أقوله أو افعله أو حتى ما أشعره..

تحدثتُ معه كثيرًا محاولاً إقناعه بأنه لا يجب أن يفكر بهذه الطريقة ولكن ذلك الضياع العميق بنظراته جعلني أصمت وأدرك بأن كلماتي ليست سوى صوت مشتت بوجوده الممزق.

obeikandl.com

(٣٢)

رغم أنني لم أكن أرى سامح كثيرًا إلا أن رحيله أخذ جزء من ذاتي، كان يمكن لحياتي أن تغرق في حزن عميق لذلك الرحيل المؤلم ولتلك الحياة التي عاشها بعيدًا عني وعن أيمن، أرادت زوجتي أن تتحدث معي حول موته ولكنني رفضت الحديث لأنه عزاء داخلي دفين لا يستطيع أحد أن يشاركني به، مكثتُ صامتًا لأسابيع طويلة ورفضت مقابلة أي من أصدقائي، كنتُ بحاجة إلى الصمت وأن أستعيد كلماته وملامحه وهو طفل صغير، وصورته وهو رجل، ثم تلك الصورة الأخيرة وللأسف كانت تلك الصورة هي الأقوى من بين كل الصور..

ذلك الرحيل الذي أعاد لأفكاري حضور الموت في الحياة، والشوق لذلك الذي لن يعود، والحزن لحياة لم يسلب منها الموت البهجة ولكنه أخذ معه ذبولها ورحل.

لقد فاجئني الصمت بأنه علاج للألم، فبعد تلك الأسابيع الصامتة شعرت بالسلام يتسلل لروحي وأن رحيل سامح ليس سوى محطة أخرى بهذه الحياة، وأن المحطة التالية قد أكون أنا من سيغادر القطار أو قد يكون أيمن، لكي نفهم الموت لابد أن ندعه يرافق

أفكارنا وأن ندرك بأنه محيط بنا، ليس لكي نحزن ولكن لكي نُعطي الحياة قيمتها الحقيقية وأنها ليست سوى رحلة نحو المحطة الأخيرة.

أشرقت الشمس على طاولة المكتب الكبير وكانت تلك المرة الأولى التي أشعر بجمال خيوط الشمس المنثورة على مكتبي وأوراقي، نظرت إلى المدينة الغارقة بضوء الشمس وشعرت بالدفء يتسلل إلى جسدي، نظرت حولي ورأيت أشعة الشمس تُلقي بنورها على الأثاث البني اللون، فيتغير لون الضوء ويُصبح أشد قتامة، وكنت بأشد الحاجة إلى النور والدفء والضوء، فتذكرت فيلا أشرف بألوانها المشرقة، اتصلت بأشرف وطلبت رقم هاتف المهندسة التي صممت ديكور فيلته..

قالت بهدوء:

- أي الألوان ترغب بإضافتها لديكور مكتبك؟

- لا أدري، لهذا طلبت رقمك من أشرف.. المهم هو أن تختفي هذه الألوان القاتمة من المكان..

ابتسمت وقالت:

- هذا لن يكون مكتبي.. لابد أن أعرف ما تحب من الألوان وما لا تحب، يمكنني أن اقترح العشرات من الألوان والأفكار ولكنني بحاجة إلى نقطة بداية، وهذه النقطة ليست لدي بل لديك..

نظرت إليها باستغراب وبشيء من الضجر:

- أرجوك لا وقت لدي لأقترح الألوان والأشكال وإلا لما استعنت بك، أنت المهندسة وأنت من يصمم، المكتب تحت تصرفك..

نظرت لي بحدة بعد أن شعرت بتوتري وقالت:

- يبدو أنك لم تفهمني، حسنًا.. هل تريد تغيير الديكور لأنه أصبح قديم وقاتم أم أنك تريد تغيير نمط العمل أو ربما حتى نمط حياتك، فيوجد فرق كبير بينهما..

ساد الصمت ولأول مرة انظر إليها باهتمام بعد أن كانت أمامي كمهندسة تُتقن عملها فقلت بفضول:

- ماذا تقصدين؟ وما الفرق؟

عبثت بأوراقها قليلاً ثم أجابت:

- الحقيقة هي أن سر نجاحي في عملي هو فهمي العميق أن هناك من يرغب بتغيير المكان لأنه لم يعد ملائم للعمل لسبب أو لآخر وهو نمط أعرفه تمامًا، وهناك نمط آخر يريد تغيير ما، أو يحاول تغيير حياته عبر تغيير المكان، أو أنه يريد أن يجعل من حياته شيء مُحتمل عبر تغيير المكان..

- وماذا يُهمك في ذلك؟

- ما يهمني هو أن تغيير المكان لتغيير شيء من الحياة تفرض علي اختيار تصاميم تشبه حلم ما، ألوانه ليست الألوان المألوفة لنا ولكنها مزيج مختلف من كل أو بعض الألوان، ولابد أن آخذ بالاعتبار أن هذا المكان قد يكون مكان للعمل ولكنه مكان للهروب

أيضًا يجد به الهارب شيء من الراحة والسكينة، فلابد من وجـود ولو زاوية حميمة تجعله يشعر بابتعاده عن كل شيء حتـى عـن أفكاره..

- هذا أغرب ما سمعته عن فن الديكور.. ولكن ألا تعتقدين بأنـك تفرضين أفكارك بهذه الحالة!

- أنا لا أفرض أفكاري بل هي تجربتي الخاصة، لقد بدأت كمهندسة ديكور عادية أصمم كما يُطلب مني، وفي أغلب الحالات لم ينل مـا أصممه رضا زبائني، وكنت أرى نظرة الغضب لعدم محبتهم لعملي وبعد سنوات من الكثير من الفشل والقليل مـن النجـاح، جلـست لساعات طويلة أعيد النظر بكل تصاميمي، وأتذكر كل شخص طلب مني تصميم معين وبعد ليالٍ من السهر أدركت السبب، لقد كـانوا يطلبون مني صور مكررة من واقعهم الذي يريدون بالأصل الهروب منه.. فلم أعد اسألهم كيف يريدون أن يكون التصميم ولكن اسألهم ما أسألك إياه الآن، وذلك دون أن تعتبر هذا تدخل مني بخصوصياتك، أنا أعمل بهذه الطريقة فإما أن تقبل بعملي أو ترفضه، حياتك الخاصة لا تهمني، ولكن ما يهمني هو هل تريد هذا التغيير لأجل المكان أم أنك بالفعل تريد تغيير ما بحياتك الخاصة عبر المكان والألوان؟

نظرتُ إليها وتذكرت بأن أشرف قال لي بأنها لا تتكلم كثيرًا فقالت وكأنها تقرأ أفكاري:

- لقد سألت صديقك أشرف نفس السؤال قبل أن أصمم ديكور بيته، وأشرف لم يكن بذلك الوقت يريد تغيير بحياته، بل يريد تأكيد لنمط الحياة التي كان يعيشها عبر الألوان والأثاث المخملي، لذلك لا تستغرب.

لم تكن جميلة ولكنها لم تكن قبيحة، وربما عدم شعور أي رجل بجمالها سببه أنه يشعر بأنها غارقة بعالمها، وأنه مهما حاول لن يكون له مكان ما في حياتها، لا أدري لماذا راودني ذلك التفكير ولماذا أهتم بها وبجمالها أو حتى بوجودها فهي ليست سوى مهندسة سوف تُتم علمها وترحل، وقبل أن أرد عليها نهضت تريد أن تغادر وقالت:

- يبدو أنني لن أصل لنتيجة.. فكر بما قلته لك ثم اتصل بي..

- لماذا تريدين إجابة على هذا السؤال، اعتبري بأنني طلبت منك عبر الإنترنت أن تنفذي هذا التصميم دون أن تُقابليني؟

- لا أستطيع تنفيذ مشاريع بهذه الصورة إلا بحالة واحدة وهي أن يكون المبني جديد ولم يسكنه أحد، لابد أن تعلم بأن أرواحنا لا تسكن أجسادنا فقط بل تستوطن المكان أيضًا بل وتستوطن جدرانه وأثاثه..

نهضتُ من مكاني وقلت لها بشيء من التردد:

- حسنًا.. أريد أن أغيِّر شيء أو كل شيء بحياتي عبر هذا المكان هل تشعرين بالراحة الآن؟

- لست أنا من يُفترض بها أن تشعر بالراحة بل أنت، اعذرني ولكن كما قلت لك لا تهمني حياتك الخاصة، كل ما يهمني هو أن تحصل على تصاميم تجد تغيير ما من خلالها، شيء أخير، في مهنتي أتعامل مع الأشياء على أن لها أرواح تحدثني وأحدثها، الجدران وقطع الخشب والألوان ليست فقط جمادات صامتة إنها جزء من وجودنا، حتى أنها مع الوقت تمتزج بمشاعرنا وذكرياتنا فلا تستطيع تذكر أحد ما دون أن تتذكر المكان الذي كان يجلس عليه، ولا يستطيع الحنين لأرض ما أن يحضر لروحك دون استحضار الزوايا والأماكن، بل حتى الأشياء التي أصبحت صدئة ومهترئة، هذا هو عملي؛ أن أترجم العلاقة الصامتة مع الروح والجمادات، والآن حصلت على نقطة البداية، سوف أحضر لك التصاميم المرسومة قبل أن ابدأ بالتنفيذ..

- لا.. أريد أن تبدأي بالتصميم فورًا ولا تسأليني عن شيء..

خرجت بهدوء وتركتْ كل ذلك الفضول الغريب تجاهها، لقد كانت تلك هي المرة الأولى بحياتي التي أقابل بها شخص ما يفكر بهذه الصورة، ولم تكن مسألة امرأة جميلة أو لا، ولكن بذلك الإطار الإنساني المُثير للفضول أو ربما للإعجاب أيضًا، هذه المرأة أو هذه الإنسانة جعلتني أفكر بما قالته ليوم كامل وربما لأيام.

اعتقدت بعد لقائي الأول بها بأنها تتكلم كثيرًا ولكن طـوال فتـرة عملها في مكتبي لم تتكلم معي إلا بخصوص ما يلزمها من أدوات، أو أن اترك مكتبي لبعض الوقت أو أن يغير الموظفون أمكانهم من حين لآخر.. راقبتها من بعيد، كانت تبدو منهمكة في عملها ولـم أكن أثير أي اهتمام لديها، ففكرت بأن أدعوها لفنجان من القهـوة عسى أن أتعرف أكثر على هذه الشخصية التي أثـارت فـضولي، جلست أمامي مبتسمة ترتشف فنجان القهوة وتنتظر أن ابدأ حديثي معها، سألتها عن أشياء كثيرة تخص عملهـا وكانـت إجاباتهـا مختصرة ومحددة.. ثم سألتها دون تفكير:

- هل أنت متزوجة؟

ردت ببرود:

- ماذا يهمك من هذا السؤال؟

شعرت بالحرج لأنني لم أفكر بسؤالي وكأن شيء لا إرادي دفعنـي لقوله، فأجبتها متصنعًا عدم اللامبالاة:

- لا أبدًا.. أنت تعرفين فضول الرجال، يمكنك إدراج سؤالي تحـت بند الفضول، ثم لك الحرية بعدم الإجابة، وأنا آسف إن سببت لـك أي إحراج..

وببساطة شديدة قالت:

-لا يوجد أي إحراج، فأغلب الرجال يتساءلون حين يقابلون امرأة ما هل هي متزوجة أم لا حتى ولو لم تُثر اهتمامهم بشكل خـاص،

لست متزوجة، ليس لأنني لم أجد الشخص المناسب ولكن الشخص المناسب لم يجدني..

ابتسمت وعادت من جديد لإثارة فضولي:

- كيف هذا لم أفهم؟

- لقد مرَّ بحياتي أشخاص مثيرين للاهتمام، ولكنني لم أكن المرأة التي يرغب أي منهم أن أكون زوجته، ومن رغب بي كزوجة لم أرغب به كزوج، المهم هو أنني كنت دائمًا أضع نفسي بحالة الانتظار، لأنني وبداخلي شرقية فكان لابد أن يجدني الرجل المناسب وأن يرغب فعلاً وبقوة بالارتباط بي، لا أريده على حصان أبيض ولكن بإرادة صلبة أن أكون زوجته ولا أحد غيري، وكما ترى لست صغيرة في السن لقد بلغت التاسعة والثلاثين من عمري هذه السنة..

- ولكنك انتظرت كثيرًا؟

- لا يهم.. في أحيان كثيرة يكون الحلم أجمل من الواقع، وأنا أحلم بمقابلة هذا الرجل مهما طال انتظاري، ولكن بما أننا في مجتمع جعل من الأحلام والأفكار قوالب جامد، فأكون حالة شاذة عن تلك القوالب، والأهم هو ألا أيأس من الانتظار، وألا يتحول انتظاري إلى معاناة من لا تجد رجل يتزوجها، والآن لابد أن اعتذر لقد انتهت استراحتي..

غادرت بهدوء وراقبتها وهي تسير مبتعدة بخطوات هادئة أقرب للبرود، ولأول مرة أفكر بملامحها لأنني ولأول مرة أتحدث إليها كامرأة وليس كمهندسة، كنت أريد من خلال فنجان القهوة هذا أن أدقق النظر بهذه الملامح، وأن أستمع من جديد لكلماتها، ربما أستطيع أن أكوِّن صورة واقعية أكثر عنها، لم تكن جميلة ولكنها كانت مختلفة، كل ما بها يختلف عن النساء اللواتي قابلتهن من قبل، تفكيرها هدوئها وبساطة ملابسها ونظرتها العميقة، حتى اعترافها لي بسنها بتلك البساطة ودون تردد أثار دهشتي، شيء ما بهذه المرأة يثير فضولي أو بالأحرى تفكيري..

حين انتهت من عملها ألقت التحية بتحفظ وغادرت كأننا لم نتحدث، بل وتجاهلت نظراتي المتفحصة لها وكأنها تخرج من عالمها للحظات تلقي التحية ثم تعود مسرعة إليه، اتصلت بأشرف بعد أن غادرت وسألته من جديد عنها فقال لي ضاحكًا:

- انسَ موضوعها.. فحتى لو تحدثت معها لساعات سوف تعود بك دائمًا إلى نقطة البداية، لن تجعلك تشعر ولو للحظة بأنها أصبحت أكثر معرفة بك، سوف تبقى دائمًا في مكان ما خارج عالمها, الحقيقة هي أنها كانت تعجبني كثيرًا، ولكنها كانت بهذه المرونة وبهذا الابتعاد عن كل شيء حتى ولو كانت محاطة بمئات الأشخاص، يوجد دائمًا ذلك العالم الصامت الذي تحمله بعيونها، لا أنصحك

بالتفكير بها فهي رقم صعب، ثم أنها ليست على هذا القدر من الجمال وليست صغيرة السن..

- أنت لا تفهم يا أشرف، لا أريد علاقة معها ولا حتى الزواج ولكنها بالفعل مثيرة للاهتمام..

- هذا أمر لا شك به ولكن أحذرك أنه من السهل الوقوع بحب هذا النوع من النساء، لأنك رغم اقترابك منها تجعلك تشعر بكامل الحرية في العلاقة معها، أما بالنسبة للزواج فلا أدري إلى أي نوع من النساء سوف تتحول، هل ستبقى هذه المستقلة العميقة أم ستتحول إلى امرأة تقليدية سطحية..

- لقد ذهبت بعيدًا بأفكارك.. لن أحبها ولا أفكر بالزواج بها، كل ما في الأمر إنها نوع مختلف لا أكثر ولا أقل.

obeikandl.com

(٣٣)

اتصلت بي عمتي كي اذهب للمستشفى لأن ابنتها رهام قد أنجبت ابنها الأول، فذهبت مسرعًا لرؤية المولود الجديد، السعادة كانت تملأني لحضور هذا الضيف الجديد لعائلتنا ولكنني بمجرد أن دخلت إلى غرفتها عرفت بأن هذه السعادة ليست مُكتملة، لقد كانت رهام تبكي والطبيب يتحدث إليها محاولاً تهدئتها وزوجها يجلس بقربها على السرير بملامح عابسة وقلقة، ووقفت أختها ميسون بجانبها ممسكة بيدها.. سألت دون مقدمات:

- ماذا هناك؟ هل حصل شيء للمولود؟

ساد الصمت ونظرت إلى ميسون منتظر لجواب ما ولكن الطبيب تقدم نحوي وطلب مني الخروج للحديث معه:

- لقد أخبرتني بأنك خالها، أنا حزين لأجلها، ولكن الطفل وُلِدَ ولديه شلل دماغي..

وقفت صامتًا لا أستطيع الحديث أو الحركة، وتابع كلامه حول ما يجب عمله وما لا يجب عمله، ولم أكن أرى أو اسمع إلا صدى المأساة التي حلت برهام وزوجها، هززتُ رأسي موافقًا دون أن استمع لأي من كلماته ودخلت إلى الغرفة انظر إلى رهام دون أن

أتحدث، ثم خرجت مرة أخرى وطلبت من الطبيب أن أرى المولود، كان نائمًا يُشبه بقية المواليد في الحضانة، ولكن وشاح الكآبة كان يفصل ما بينه وبينهم، لم يكن طفلاً حزينًا لأنه مُعاق ولكن لأنه لم يضمه أحد أو يحتضنه منذ ولادته فرهام ترفض أن تُرضعه بل ولا تريد أن تضمه لصدرها..

عدت إلى غرفتها ووقفت أمامها:

- كيف يمكن أن يكون قلبك بهذه القسوة؟ لماذا ترفضين احتضانه وضمه لصدرك؟ هل تقبلين طفل مُعافى وترفضين عطاء الله لك إن كان طفلك معاق؟ اتق الله واعطفي على حاله.. لن تقتلـــه إعاقتـــه ولكن رفضك له سوف يقتله، اذهبي لرؤيته في الحضانة واشعري مدى وحدته هناك، حتى ولو كان صغيرًا لا يدرك الأشياء حولـــه، ولكنه يشعر وروحه تفهم الحب والكره..

بكت بصمت ثم طلبت مني أن يحضروه لغرفتهـــا، كنـــت أول مـــن يحمله بين ذراعيه، شعرت بذلك الضعف اللامتناهي وتلك الارتعاشة الخفيفة التي تنادي الحياة، قبلته على جبينه الدافئ الطري وقلـــت لرهام:

- اسمعي يا رهام، إذا لم تكوني تريدين هذا الطفل سوف آخذه أنا وأربيه ببيتي هذا إذا وافق زوجك..

قالت باكية:

- أريد أن أحمله..

وضعته بين يديها، لم تتحرك للحظات، ثم ضمته لصدرها وأجهشت بالبكاء.. فقبلت وجهه ورأسه وقالت دون أن تتوقف عن البكاء:

- كلا يا خالي لن أتخلى عنه، انه ابني والحمد لله على كل شيء.. الحمد لله..

ثم ضمته لصدرها وأرضعته..

أسابيع عديدة مرت بعد ولادة ابن رهام، ومشاغل عملي جعلتني أنسى الاطمئنان عليها، إلى أن اتصلت بي عمتي في وقت مبكر كعادتها وخلال وقت قصير كنت في بيتها، رأيت حزنًا عميقًا في عينيها وقبل أن اسأل قالت بأسى:

- إنه زوج رهام.. يريد أن يُطلقها لقد تغير معها بعد ولادة الطفل أصبح لا يطيق النظر إليها أو حتى رؤية الطفل، وكأنه ليس طفله أيضًا، لقد أخبرتها أن تبقى في بيتها عسى أن يُغير رأيه ويقبل بقضاء الله، ولكنني قلقة جدًا لأجلها فحالتها النفسية سيئة، لا أدري لماذا يكون بعض الرجال بهذه القسوة.. لقد عانيت كثيرًا من قسوة زوجي ولكن هذه القسوة قاتلة لأنه يرفض ويدمر أغلى الناس في حياته، لولا معرفتي بك وبإنسانيتك لقلت أن بعض الرجال وحوش.

ساد الصمت وتذكرت زوج ابنتي مريم، وقبل أن أرد تابعت:

- أنت رجل.. أخبرني لماذا يتصرف الرجال بهذه الأنانية والقسوة أحيانًا أو بالأحرى بهذا الغباء، يدمرون ما بنوه بأيديهم ويحولون السعادة إلى شقاء والفرح إلى تعاسة.. هل هذا شيء أقوى منهم؟

ولأول مرة أشعر بالحرج أمام عمتي لكوني رجل وأنني أدافع عن انتمائي لعالم الرجال، رغم معرفتي ومعرفتها بأن ليس كل الرجال على هذه الصورة، وكنت أعرف بأنها تعرف الإجابة ولكنها أرادت أن تسمع مني جوابًا ما ليس لتعرف ولكن لأنها تعبت من التفكير، تريدني أن أفكر بدلاً عنها ولو لدقائق.. نظرت إليها بهدوء:

- كل هذه الأنانية أو بالأحرى هذا الدمار ليس سوى انعكاس لألم داخلي لم يتم علاجه قديم أو جديد، وهو عدم قدرة على حل الأمور فيُصبح تدمير الآخر وسيلة للتخفيف من الضغط الداخلي والإحباط ورفض الواقع، ولأننا تربينا في بيئة ترفض التعبير عن النفس بصراحة تتراكم أخطأنا ونمنح لأنفسنا الحق بالكره والهجر والإساءة، كل هذه المشاعر القاتلة مسموح بها في مجتمعنا، ولكن أن نجلس ونتحدث عن ما نحب ولا نحب، أن نعترف بأخطائنا وبحاجتنا للآخر، أو حتى عدم حاجتنا له، هذه ثقافة مدفونة، بل مجهولة..

حين يمتلك الرجل الجرأة بالاعتراف بضعفه مثل جرأته بالمفاخرة بقوته؛ أمور كثيرة تتغير، وعلاقته مع المرأة تتطور، لأن المرأة

تُدرك بغريزتها الأنثوية أن هذا الرجل ليس مخلوق خارق يستطيع أن يتجاوز كل الصعوبات دون أن يُخدش أو يفشل أو حتى يتهاوى، هي ليست متفرج على مسرح هو بطله الوحيد، ولكنها شريكة في تلك المسرحية، التي تحتوى على فصول من النجاح والضعف والقهر والحب، في الحقيقة يمكنني أن أعطيك مئات الإجابات ولكن يبقى جواب واحد، وهو أن الرجل حين يلتزم دينيًا وبشكل صادق مع شريكة حياته فلن يُخطئ بحقها، لأنه يعلم تمامًا أنه مُحاسَب أمام الله على هذه المخلوقة التي وهبته حياتها.

ابتسمت عمتي وقالت:

- أعجبني جوابك الأخير وهو ما فكرت به منذ صلاة الفجر..

- ولماذا سألتني عن الجواب؟

- لأنني أردت أن اسمعه من رجل وليس من أفكاري..

تنهدت وقالت:

- والآن ما رأيك بموضوع رهام؟

- اسمعي يا عمتي.. لقد أخبرت رهام في المستشفى بأنني أريد أن أربي هذا الطفل، وذلك حين كانت ترفض احتضانه وإرضاعه، وأقول لك الآن هذا الطفل هو بمثابة ابني، لا أريد أي مشاكل مع زوج رهام وأستطيع أن أتفهم موقفه رغم كل شيء فهو بحالة صدمة شديدة، إذا أراد الطلاق فهذا حقه ولا أريد أن يُهينه أحد،

لأنه ربما في يوم من الأيام يُراجع نفسه ويقرر العــودة لزوجتــه، ولابد أن لا ننسى بأنه كان دائمًا زوج مثالي لرهام، أرجوك أخبري رهام هذا، أنا مسؤول عن كل احتياجات هذا الطفل ماديًــا وطبيًــا وكذلك عن رهام فهي مثل ابنتي، لقد ربيتني يا عمتي أن احتــرم التزاماتي كرجل وهذا لا يكون بأداء العبادات فقط وبالكلمات..

- بارك الله بك يا بني..

obeikandl.com

(٣٤)

بابتسامة واسعة استقبلتني وطلبت مني عدم الدخول قبل أن تُتم أخر لمساتها على ديكور المكتب، لم أتفاجئ من انتهائها المُبكر للديكور بل لتلك الابتسامة التي رأيتها على وجهها لأول مرة منذ أن تعرفت عليها، لقد كانت إنسانة مختلفة، بل كانت تبدو جميلة ونضرة بخصلات شعرها السوداء المتناثرة عشوائيًا على كتفيها، في تلك اللحظة لم أكن أريد رؤية المكتب بل أن تُبقي تلك الابتسامة على وجهها لمدة أطول وأن أراقبها بصمت للحظات، لدقائق أو دائمًا..

طلبت مني الدخول بسعادة غامرة وتبعتها بفضول شديد.. امتزجت ألوان جدران المكتب باللون الأخضر الداكن واللون الأصفر وأبدلت بلاط المكتب بأرضية خشبية لامعة، انسدلت ستائر بيضاء وشفافة على النافذة الكبيرة، أما مكتبي فكان مكتب خشبي داكن اللون تُحيط به منقوشات نحاسية لامعة، والمقاعد بلون أخضر داكن ولم تنسَ بعض النباتات التي وزعتها في زوايا المكتب، جلستُ خلف مكتبي وفتحت فتحت الستائر لأرى المكتب تحت أشعة الشمس، فاختلطت الألوان بالخيوط الذهبية المتسللة عبر النافذة، وشعرت

بدفء الشمس والنور يغمر روحي، وكأنها كانت تعرف مـــا كنـــت بحاجة إليه، تلك الألوان العميقة الواضحة الممتزجة بالضوء منحتني هدوء غريب، وبنفس الوقت حيوية لم أشعر بها مـــن قبـــل، ثـــم نظرتُ إلى أحد زوايا المكتب والبعيدة عن النوافذ، لقد وضعت كنبة كبيرة بلون أسود وبجانبها ضوء أستطيع التحكم بدرجة إضـــاءته، نهضت وتمددت على الكنبة وكان في مواجهتي اللـــون الأخـــضر وبعض النباتات الخضراء وأشعلت الضوء ومكثت للحظات صامتًا.

قالت ضاحكة:

- ما رأيك؟

يُقال إن الحب ليس له شروط ولا موعد أو حدود، وأنه قد يـــأتي بلحظة ضعف أو قوة، أو بنظرة أو بزمن ما، ولكنني بهذه اللحظة أحببت هذه المرأة لعفويتها، حتى أنني تلاشيت أمام تلك العفويـــة الصادقة فلم تعد تشعر بوجودي أمام سعادتها بما أنجزته، وكـــأن ذلك المكتب ليس لي بل لها ونظرت إليها ولأول مرة كامرأة وليس كمهندسة تنفذ عمل ما في مكتبي، تأملت ملامحها الناعمة وتعابير وجهها البعيد عن التكلف، لم أكن بالنسبة لها رجـــل تريـــد جلـــب اهتمامه ولكن إنسان تريد أن تقدم له شيء يُسعده، لقد أحببت هذه المرأة رُغمًا عني وكان يمكنني بهذه اللحظة أن انهض وأن أعترف لها بحبي، ولكنني رغبت أن أراقب تلك العفوية لأطول فترة ممكنة قبل أن تُغلق أبواب ذاتها وتعود لعالمها.

وقفتْ بانتظار الإجابة وكنتُ غارقًا بأفكاري وبمراقبتها، فاختفت الابتسامة عن وجهها وقالت:

- حسنًا، يبدو أن تصميمي لم يُعجبك، أنا بالفعل..

استيقظت من أفكاري ونهضت مسرعًا:

- المكتب رائع.. لم أرد لأنني كنت بحالة ذهول، كيف غيرت هذا المكان الذي كان جافًا وكئيبًا ليُصبح بهذه الحيوية والجمال، أنا بالفعل مذهول..

عادت الابتسامة لوجهها وقالت:

- الألوان لغة خاصة تحتاج لإتقان وأن تفهمها وإلا لن تستطيع أن تستمع بما يمكنها أن تعطيك من جمال، ولقد فهمت وبعد مدة طويلة هذه اللغة..

- ولكن كيف عرفت أن الأصفر هو ما يناسبني؟

- لأنني حين قابلتك لأول مرة وتحدثنا عن تفاصيل العمل وسألتك عما تريده بالتحديد شعرت بأنه هناك جانب مظلم في حياتك، ولكن لا أدري مدى مساحة هذا الجانب، والحقيقة أنه موجود لدى كل إنسان، ولكنه يمتد أحيانًا وتصبح له زوايا وظلال وأحيانًا يستطيع الإنسان السيطرة عليه ويُبقيه في مساحة محدودة من ذاته، أرجو ألا تُسيء فهمي، هذا ليس تطفل على حياتك الخاصة، ولكنني لست مجرد مهندسة ديكور، لابد أن يكون لي علاقة خاصة مع

المكان وأصحاب المكان، وليس بالضرورة أن أتحدث عن هذه العلاقة، ولكنها تنشأ بداخلي بمجرد دخولي للمكان.

وقفت صامتًا ولم أعد أجد الكلمات للرد على ما تقول، لقد فاجئتني وأيضًا كنت بحاجة للتفكير بكلماتها شديدة العمق، عادت إلى جديتها وقالت:

- أنا آسفة، كان يجب أن احتفظ بانطباعاتي هذه لنفسي لأنك ربما تعتقد بأنني أتطفل على حياتك الخاصة، إذا كان يوجد لديك أية ملاحظات يمكنك إرسالها لسكرتيرتي..

وقبل أن تغادر ناديتها:

- مهندسة ربا.. هل لديك الوقت لشرب كوب من الشاي؟

التفتت وقالت مبتسمة:

- أجل..

كان للشاي طعم لم أشعر به طوال حياتي بانعكاس الألوان وبالدفء الذي غمر المكان وبوجودها أمامي.. سألتها دون مقدمات:

- هل لديك أنت أيضًا جانب مظلم بحياتك؟

- بالطبع.. ولكن الفرق بيني وبينك هو أنني لا أعيش تحت ضغط ما، أنا وحيدة ولكنني حرة، اختار حياتي وأصدقائي وأفكاري، ورفضتُ الزواج لأنني أخاف أن تتحول حياتي إلى كومة من التنازلات لإرضاء الطرف الآخر، فصممت ألا أتزوج إلا بشخص لا أتنازل لأجله، بل أسعد بتنازلي وأنا معه..

- هل تعتقدين أنه يوجد ضغط ما بحياتي؟

- أجل.. اعتقد ذلك، فأنا أعرف تلك النظرة الثقيلة والتي تقول كل شيء..

نظرت إليها بعمق وتابعت:

- وكيف لك بمعرفة هذا؟

- معرفة العديد من الناس وبوحهم بمكنونات صدورهم، لأنني أمُر بحياتهم دون أن أبقى، فيقولون كل شيء لعابرة السبيل هذه، قد يبوحون بشكل مباشر وقد يبوحون بكلمات غاضبة أو يائسة، أو حتى بتصرفات بعيدة عن المنطق، ولكنني أفهم وأصمت..

- ألا تعتقدين بأنك جريئة بملاحظاتك هذه لي؟

ابتسمت وقالت:

- أنا جريئة عندما أريد أن أكون جريئة، وقد قلت لك هذه الملاحظات لسبب واحد وهو أن تغيير المكان لا يعني تغير الحياة، قد يجعلك تغيير المكان تشعر بالراحة لمدة ما، ولكن ذلك الشيء الثقيل سوف يبقى، وأحيانًا تغيير المكان يجعلنا نُغيِّر كل شيء أيضًا..

- أنت شخصية مثيرة للاهتمام..

- أشكرك.. لابد أن أغادر الآن..

انسحبت بهدوء وجلست صامتًا أفكر بكلماتها الغريبة وفكرة واحدة سيطرت على عقلي، لابد أن أراها مرة أخرى.

(٣٥)

لم أتوقف عن التفكير بربا لأيام عديدة وترددت بالاتصال بها، فأنا لا أريد أن أكرر تجربتي مع نجوى وأدرك بأنني لا أستطيع الزواج بها، فقررت أن تبقى هذه الإنسانة تجوب بصدري وروحي بصمت وأن اكتفي بأنني قابلت المرأة التي كنت أبحث عنها طوال حياتي، بعفويتها وصدقها واستقلاليتها، واستسلمت لكوني رجل متزوج يحافظ على واجباته بهذا الزواج دون أن تتحرك مشاعره لهذه المرأة التي تشاركه حياته، استسلمت لحياة تقليدية يرضى عنها المجتمع ويقول بأنها الحكمة والصواب، وأنا أدري بأعماقي بأن روحي تذبل بهذا الزواج الذي أنفّذ شروط عقده دون أن أتفاعل مع مضمونه كرجل، لم يعد هناك أي علاقة زوجية بيني وبين زوجتي ولم تعد تطالب بهذه العلاقة لأنها تعتقد بأنني صحيًا لم أعد أستطيع أن أؤدي هذا الدور، فتحولت لإنسانة جافة تغضب لأتفه الأسباب وإن لم تستطع أن تهاجمني تهاجم الخادمة أو البنات..

أشعر بالذنب لأنه حقها الشرعي ولكنني لم أعد أستطيع القيام بهذا الدور يمكنها أن تطلب مني ما تشاء ولكن لم أعد أستطيع أن امنحها هذا الحق لأنني وببساطة لم أعد أستطيع القيام به، وأخبرني

الطبيب عدة مرات أن السبب نفسي وليس عضوي، كنت ألومها في البداية لأنها أبقت على هذا الزواج تحت التهديد، ولكنني الآن أقف عاجزًا عن لومها، أو حتى عن التفكير بكل ما حصل، وكأن جزء من عقلي يريد الانفصال عن الواقع الذي أعيشه معها..

يحق للمرأة أن تشكو من الفراغ العاطفي، بل وأن ترتكب الأخطاء بذريعة هذا الفراغ العاطفي أو بسببه، لا يهم، ولكنها وفي كل الأحوال تجد من يساندها، ولكن الرجل لا يحق له أن يشكو هذا الفراغ العاطفي، فبمجرد أن تكون زوجته جميلة وربة منزل جيدة يرى المجتمع أنه لا حق له بالتذمر، فيمضي صامتًا ويردد لنفسه بكل يوم أن هذه هي الحياة، وأنه لا مبرر لتدمير ما تم بناءه لسنوات، والآن أردد لنفسي في كل صباح هذه المعادلة الاجتماعية المنطقية والتي لا تتطابق مع مشاعري الدفينة، فأردم مشاعري تحت بنود هذه المعادلة وأمضي..

تأنيب الضمير هو من أرقى ما منح الله للإنسان، أن تعلم أنك مخطئ ولا ترغب بأن يستمر الخطأ فإن لم تُصلحه تعتذر عنه، طلبتُ من زوجتي أن نتحدث بصراحة:

- أنتِ لا تزالين جميلة وأي رجل يتمنى أن يتزوجك، وأنت تعرفين بأنني مُقصر معك، إذا كنت لا تحتملي الحياة معي دون العلاقة الزوجية يمكنك طلب الطلاق ولن أحرمك من ابنتك ولا من أي من حقوقك، وسوف افهم تمامًا وبلا غضب..

نظرت إلي وأجابت بضيق:

- لا اعتقد أنك مريض ولكن اعتقد أنك لا ترغب بي كأنثى..

- هذا غير صحيح.. لقد حاولت عدة مرات دون جدوى ولابد أن تتقبلي الوضع كما هو..

- ولكن يوجد أدوية..

شعرت بالندم لأنني صارحتها بما أفكر به، وكان لابد من المتابعة:

- أجل ولكن حتى هذه الأدوية لم تنجح معي وأنت تعلمين ذلك..

أجابت بهدوء:

- لا أريد الطلاق، أنت زوجي وسوف تبقى زوجي ولا يهم الباقي.

لم أضمها لصدري منذ أن حاولتْ الانتحار، ولكنني بهذه اللحظة شعرت بأنها تحبني حقًا، حتى ولو لم تُعبِّر عن ذلك الحب بطريقة أحبها، وبطريقة أكثر عفوية وصدق، فضممتها لصدري وبكت بصمت، وفكرت أننا رغم كل الحكمة التي ندعي امتلاكها نرتكب الأخطاء بحق أنفسنا وبحق الآخرين.. وقلت لها هامسًا:

- لا تبكي.. وأنت ستبقي زوجتي وربما ستتحسن الأمور..

استغرق حديثنا دقائق، ولكنه أزال كل ذلك الغضب من صدري وصدرها، وبدأت اشعر تجاهها بالمودة وأتقبل غضبها وتصرفاتها دون تذمر، وقررت أن امنح كل اهتمامي لها ولبيتي وأن أنسى ربا أو أتناساها، فلم اتصل بها، وبدأت صفحة جديدة مع زوجتي.

كان يمكن لهذا الوضع أن يستمر دائمًا لأنني عقدت الصلح مع نفسي ومعها حتى أن علاقتنا الزوجية أصبحت طبيعية كالسابق لأنني عاطفيًا منحتها مشاعري، وقررت أن هذه هي حياتي ولابد أن أحياها بما يُرضي الله دون أن اظلم أحد، وذلك الفراغ العاطفي لم يمتلئ ولكنني ملأته بالشعور بالواجب وإرضاء ضميري تجاهها، كان يمكن لهذا الوضع أن يستمر دائمًا دون أن أتذمر، لأنني اتخذت قراري بالقبول والرضا، ولكن ما حدث في ذلك الصباح قلب كل أوراقي، كان يومًا ربيعيًا جميلاً، نظرتُ عبر نافذة مكتبي وقلت لنفسي هذا يوم جميل لابد من قضائه في الخارج مع العائلة، فغادرت المكتب عائدًا للبيت في موعد لا أعود خلاله للبيت، وجدت الباب مفتوح وأصوات حادة تصدر من الصالة الكبيرة، سمعت زوجتي تصرخ:

- أنت إنسانة عديمة المسؤولية، تقضين كل وقتك على جهاز الكمبيوتر تتحدثين مع الغرباء ووالدك لا يعرف عنك شيئًا، وإذا لم تفتحي الكمبيوتر تتسببين بالمشاكل وتتصرفين بوقاحة معي، هذا وضع لا يُطاق، لماذا لا يأتي أحد ممن تتحدثين معهم ويطلبك للزواج وأرتاح منك؟

أجابتها مريم بتهكم:

- الآن تريدين التخلص مني، أما حين نفذت معك مسرحية انتحارك لم تكوني تريدين التخلص مني، أتدري، سوف أقنع والدي بالزواج

مرة أخرى وأخبره بأنها كانت تمثيلية وأنني خططت معك أن اتصل بالإسعاف بمجرد تناولك للحبوب ثم اتصل فورًا به كي نمنعه من الزواج.. ما رأيك؟

وقفتُ مذهولاً لا أدري هل أدخل أم أعود أدراجي فتسمرت بمكاني وسمعت زوجتي ترد عليها صارخة:

- لقد كان يوم نحس يوم عدت هنا.. في كل مرة تحدث مشكلة بيني وبينك تُهددينني بهذا الموضوع هل نسيت أنك شريكة معي..

- أجل، أنا شريكة ولكنني ابنته وأنت زوجته، ولا يمكن أن يُطلق ابنته، لا تتدخلي بأموري وكل شيء سيكون على ما يرام..

أجابتها زوجتي بنبرة حاولت أن تجعلها هادئة:

- وأنت لا تتدخلي بأمور البيت ولا تستفزي أختك الصغيرة، أما حياتك الخاصة فلن أتدخل بها بعد الآن..

لم أستطع أن أدخل للبيت فعدت إلى مكتبي، أسدلت الستائر وطلبت من السكرتيرة أن لا ترد على أي مكالمة وتمددتُ على الكنبة الكبيرة في الزاوية انظر إلى الجدار الأخضر، لم أشعل الضوء فبدت خيوط الشمس التي كانت مشرقة منذ قليل باهتة حين تتسرب عبر الستائر الشفافة، وامتد اللون الأخضر ليستولى على المكان تاركًا اللون الأصفر مُبددًا في فضاء الغرفة، لم أعد أفكر بشيء ولم أشعر بشيء كل ما أردته هو أن أغفو في الزاوية الخضراء التي صممتها ربا لي، وكأنها كانت تعلم بأنني سأحتاج لهذه الزاوية عاجلاً أم آجلاً.

(٣٦)

لأسابيع عديدة لازمت الصمت, لم يعد لدي كلمات أقولها لزوجتي وابنتي.. استيقظ باكرًا قبل أن تستيقظا للذهاب للعمل وأعود متأخرًا وحين تسألني زوجتي عن سبب تأخري وصمتي أرد عليها باقتضاب أنني مشغول، ولا اسمع بقية ما تقوله لي كإنها تتحدث مع شخص آخر، وكنت أمام خيارين إما أن أصارحهن بكل ما سمعته، أو أمضي بصمتي إلى أن أصل لنقطة مغلقة في حياتي.

ولكن ما جعلني أنسى مؤقتًا كل ما حدث هو مرض عمتي، فلقد تم نقلها للمستشفى وأسرعت لرؤيتها، ابتسمت رغم ألمها وتعبها لدى رؤيتي وأجبرت نفسي على الابتسام فسألتني وهي تنظر لي تلك النظرة التي تسبر أعماقي وبصوتٍ ضعيف سألتني:

- ماذا هناك يا أحمد؟

- لا شيء يا عمتي، أنا متعب فقط وقلق عليك..

- لا أنا أعرفك أفضل من هذا.. ماذا حصل..

ترددت بإخبارها ولكنها أصرت على أن تعرف فبدأت بإخبارها وعند كل كلمة أتوقف وانظر بقلق إليها فقاطعتني باستياء:

- أنت تُتعبني بأسلوبك هذا.. لا تعتقد أن ما ستُخبرني به سوف يزيد من سوء حالتي، بل ما تُخفيه عني هو ما سيُتعبني، الحياة ليست قطعة من الحلوى بل هي شاقة ومُرة، ألا تعلم بأنك تكدح بها إلى أن تلاقي رب العالمين..

نظرت إليها بإعجاب وبهرتني هذه الروح المضيئة حتى في لحظات المرض والشدة، فأخبرتها بكل ما حصل، لم تُبدِ أي غضب أو استياء بل ابتسمت قائلة:

- ألا تعلم أن ما قامت به ابنتك وزوجتك هو دفاع الضعيف عن نفسه والذي يعتقد أن حياته مُهددة فيلجأ حتى إلى تدمير ما تبقى له عسى أن يسترد ما كان يعتقد أنه له، والحقيقة هي أننا لا نمتلك الآخر كما لا نمتلك أنفسنا..

صمتت وساد الصمت بيننا فتابعت ببطء:

- أشعر يا أحمد أن نهايتي قد اقتربت، لك الخيار بأن تنسى أو تتناسى أو تحاسب ولكن لا تكرر الخطأ الذي ارتكبته بحياتي، لا تتنازل عن حقك بالسعادة إذا كانت تلوح في الأفق، ولا تعيش تحت ضغط نفسي تعتقد أنك تسيطر عليه ولكنه في الواقع يقتلك ببطء..

بدأ التعب يتسلل إلى صوتها وعادت إلى النوم دون أن تنظر لي وكأنني لم أعد موجود أمامها، وعند آذان الفجر كانت عمتي قد رحلت عن الحياة مثلما تمنت عند صلاة الفجر..

لم ترحل عمتي عن الحياة فقط ولكنها رحلت عن حياتي، وكأنني بفقدها فقدت أخر حجر أساس في وجودي، فبدا كل ما حولي يتأرجح، كانت تُعيد ترتيب الأشياء في ذاتي حين أشعر بأنها بدأت تتناثر، أنا الرجل القوي الصلب احتجت ولا أزال احتاج لهذا الجدار الذي استند عليه بلحظات ضعفي وترددي وقلقي، لم تكن عمتي تحمل الشهادات العليا، ولم تتقلد المناصب الرفيعة، ولكنها كانت تُتقن فن الحب وكيفية التعبير عن حبها، ولم تكن تُجامل الآخرين بعواطفها، لذلك كنت متأكدًا من حبها لي، وكان أي انتقاد لي أقبله لأنها كانت صادقة مع ذاتها ومع الآخرين..

لقد شعرت بهذا الضياع حين ماتت أم جمال، واعتقدت حينها أنني سأتجاوز أزمة فقدي لها مع الوقت، ولكن افتقادي لها ازداد مع مرور الوقت، وها أنا ومن جديد أمام رحيل عمتي، صورة واحدة لم تفارقني منذ رحيلها، وهو حين أدق بابها الخشبي وتستقبلني بابتسامتها الدافئة وتُعد فنجان الشاي وتنساب كلماتها الرقيقة فأنسى الألم والقلق واستعيد ثقتي بالحياة..

وسؤال يتردد بذهني طوال الوقت لماذا تعلقت كل هذا التعلق بأم جمال وبعمتي؟ ولماذا توجد لدي هذه الحاجة لوجود امرأة أثق بها بلا حدود طوال حياتي؟ ولأول مرة أواجه نفسي بالإجابة، إنها أمي التي لم تملأ هذه الدور وبقى الفراغ العاطفي والخوف من الحياة

مستقر بجزء خفي من أعماقي، واكتشف الآن وأنا في الخمسينيات من عمري أن هناك أمان لا يستطيع أي إنسان منحه لإنسان آخر سوى الأم، فإذا فُقِدَ هذا الأمان سوف يبحث عنه الإنسان طوال حياته، الآن فقد أفهم سبب تعلقي بهن وأنني لم أكن لا مبالي تجاه أمي، بل أحببتها وبعمق ولكنها لم تكن تستطيع منحي ذلك الأمان، الآن أستطيع أن أفهم أنها هي أيضًا لم تكن تشعر بالسعادة أو الأمان وأنها عاشت حياة امتزجت بالخوف والغضب والقلق.

بقيت في مكتبي لأيام عديدة لا أعود للبيت إلا للنوم، ولاحظت السكرتيرة التعب البادي على وجهي، وحاولت الحديث معي ولكنني رفضت، طرقات خفيفة على باب المكتب أيقظتني من أفكاري ورأيتها أمامي مبتسمة ومشرقة، ولأول مرة تقترب من مكتبي وتنحني قليلاً للحديث معي:

- لقد اتصلت بي السكرتيرة وأخبرتني بأنك لست على ما يرام، فحضرت على الفور..

نظرت إليها باستغراب وقلت دون تفكير:

- ولماذا تهتمين لأمري؟

- لأنني بالفعل أهتم بك، يمكنك أن تفكر بما تريد ليس مهم، ولكنك شخص مميز ولك مكانة خاصة عندي..

- ما هي هذه المكانة؟

ضحكت وقالت:

- لن أخبرك قبل أن تقول لي ماذا حصل معك أو لماذا أنت بهذه الحالة السيئة؟

كنت أريد أن أجاملها وأقول لها أي كلمات ولكن الصمت الذي رافقني كل تلك الأسابيع وموت عمتي جعل الكلمات تنساب دون تفكير ولم أعد أقلق من رد تفكيرها بي وانتقادها لضعفي أو قوتي.. بقيت لساعتين تستمع لما أقول وحين انتهيت أجابتني بهدوء:

- هذه مواقف صعبة ويمكن أن أرد عليها بكلمات كثيرة ولكن أرد عليك الآن بأنني أدعوك لتناول الغذاء معي، ولكن لابد أن تحلق ذقنك، فأنا لن أرافقك وأنت بهذه الصورة..

قالت مبتسمة:

- هل تقبلني صديقة لك؟

- ولكن بعد كل ما أخبرتك به ألا تعتبرين أنك أصبحت أكثر من صديقة؟

- لا، كل ما أخبرتني به يمكن أن اعتبر أنك قلته لي لأنك كنت بحاجة للحديث بغض النظر مع من، أنا أطلب منك جواب مُحدد..

نظرت إليها بعمق وقلت:

- أنتِ أكثر من صديقة، ولم أخبرك بتلك الأشياء عني لأنني أريد الحديث مع أي شخص كان، لقد أردت الحديث معك أنت، وفكرت بالاتصال بك ولكنني تراجعت..

- إذن لابد أن تصرف ترقية للسكرتيرة لأنها أحسنت التصرف..

- بالتأكيد.. ولكن لدي سؤال، لماذا هذا الاهتمام بي وأنت تقابلين العديد من الأشخاص كل يوم؟

- منذ أول مرة رأيتك بها قرأت تلك الوحدة بنظراتك وأنك بحالة هروب من حياتك، ثم إن ذلك الدفء الصادق بتصرفاتك أثار إعجابي فأغلب الرجال الذين أقابلهم يبتعدون عن ذلك الصدق حتى ولو كان موجود لديهم، خشية إظهار جزء ضعيف بشخصياتهم، ويعتقدون أن كلمات الغزل والإطراء المُكررة تفي بالغرض وتكفي لجذب اهتمام أي امرأة وهو ما يحصل, فالمرأة تعرف غالبًا بأنها كلمات مكررة ولكنها تريد أن تُصدقها وتعتقد بأنها ستكسب الجولة في النهاية مهما استمر ادعاء الرجل وإخفاءه لما يفكر به حقًا، ولكنك لا تخاف من صدقك تجاه الآخرين والمرأة، وهو ما أعجبني منذ البداية..

- وما رأيك بكل ما أخبرتك به؟

- كل ما أخبرتني به ليس بمأساة كبيرة، وأنت لك الخيار في كل المواقف، إما أن تستمر بوضع لا يُعجبك وأما أن تُغيره مهما كانت النتائج..

- وإذا لم أغيِّره هل تبقين صديقة لي؟

- أجل.. أنا أقدم لك صداقة ليست مشروطة.

- وأنا لا أقدم لك صداقة، بل مشاعر صادقة.

- فلندع أمر المشاعر جانبًا الآن ولنستمتع بهذه الوجبة اللذيــذة رغم موت عمتك ورغم كل شيء.. ابتسم أرجوك..

obeikandl.com

(٣٧)

لمحته من بعيد وحين رآني أراد أن يغير اتجاهه فأسرعت بخطواتي تجاهه، لقد كان زوج ابنة عمتي رهام، ناديته قبل أن يغيب عن ناظري:

- إياد..

التفت تجاهي وتوقف مكانه خجلاً:

- مرحبًا إياد.. كيف حالك؟

رد باقتضاب غير راغب بالرد:

- أهلاً.. الحمد لله..

- ألا تسألني عن ابنك الصغير؟

أشاح بوجهه ولم يرد، فتابعت قائلاً:

- سوف أخبرك.. أخباره جيدة ووالدته تعتني به، هل تعلم أن حماتك قد ماتت؟

لم يعد يستطيع النظر إليَّ ولم يرد فقلت له برفق:

- هل يمكن أن نشرب فنجان من القهوة معًا؟

جلس أمامي والضيق يبدو واضحًا عليه:

obeikandl.com

- اسمع يا إياد.. لقد تفهمت قرارك بترك زوجتك ولم ألومك، ولن ألومك، فلا شيء يُجبر الرجل على البقاء مع زوجته، وبالنسبة لرهام وابنها وأختها ميسون فهم مسؤوليتي الكاملة، ولكنني كما أرى أنك لست على ما يرام، يبدو أنك لم تحلق ذقنك منذ أيام وتبدو كئيبًا ومُشتتًا، أتحدث معك كأب لك، وليس كخال زوجتك أو مطلقتك، ولكن هناك شيء واحد غفلت عنه وهو أنك مُحاسَب أمام الله عما فعلته وتفعله، هذا الطفل رغم كل شيء ابنك والله له حكمة قد لا تعلمها الآن بأن يكون مُعاق، أنت لم تقبل بقضاء الله وظلمت زوجتك، ولكنني اعرف أنك كنت زوج مثالي ومخلص لهذا رفضت أن توجد أي مشاكل حين طلقت رهام..

وضع رأسه بين يديه ولم يرد أو أنه كان يريد أن يُخفي دموعه، فصمت.. وبعد برهة قال دون أن ينظر إلي:

- لم أستطع ولا أستطيع تقبل فكرة أن ابني مُعاق، ولم يحصل هذا لأي أحد من عائلتي، أشعر بالخجل من كوني أب، وخشيت إن استمرَّت حياتي مع رهام أن نُنجب طفل آخر مُعاق، ربما تبدأ حياتها مع رجل آخر غيري، ولكنني أعترف لك بأنه لا يمر يوم دون أن أفكر بها وبابني، ولقد علمت بموت عمتك وتألمت كثيرًا لأنها كانت بمثابة أم لي، لا أدري ماذا أقول لك ولكن كل هذا فوق طاقتي فأنا لستُ سعيد بوجودي معهم ولست سعيد بابتعادي عنهم،

أشعر بأنني مُمزق ولا أعرف ماذا أريد، لقد بدأ وضعي هذا يــؤثر عليَّ وعلى عملي..

وبهدوء أجبته:

- سوف تجد راحتك بإرضاء ضميرك أمام الله، زوجتــك يمكنــك الانفصال عنها بأي وقت ولكن ابنك لا يمكنك الانفصال عنه، يحمل اسمك في شهادة ميلاده ودمك في عروقه، فكيف تمضي وتنــسى وجوده، وهل تريد أن تشترط على القضاء والقدر أن يكون ابنــك بصحة جيدة لتقبله؟ وكم من طفل وُلِد صحيحًا وأصيب بــالمرض بعد فترة ما من حياته، ألا تعلم أن وجودنا كله ليس إلا امتحان؟ لا أريد أن افرض آرائي عليك، ولكنني أرى أنــك مُتعــب، دع قلبــك يُرشدك إلى أين الطريق، وأنا متأكد بأنه سيقودك إلى ابنك..

استقبلتني نهاد بأذرع مفتوحة وقالت بصوتها العذب:

- بابا لم أرك منذ مدة طويلة ولديَّ الكثير من القصص لأقولها لك.

حملتها بين ذراعي وجلست قائلاً:

- هيا.. أريد أن استمع لكل قصصك فأنا بشوق لسماعها..

فهمست بأذني:

- لا، ليس هنا، يوجد شيء أريد أن أخبرك به ولا أريد أن يسمعه أحد.

ابتسمت وأمسكت بيدها لنذهب إلى غرفة المكتب:

- هيا أخبريني ما هو هذا الشيء؟

- هل تعدني أن يبقى سر بيننا؟

- أجل..

- حسنًا.. توجد مشاكل كثيرة بين ماما وأختي مريم، فماما تصرخ بوجهها وهي أيضًا تقول لها أشياء غير مؤدبة.. ويتحدثن عنك بأشياء غير لطيفة..

- مثل ماذا؟

- ماما تقول إنك أصبحت كبير في السن ومريم تقول إنك لا تعرف شيء مما يدور بهذا البيت، لماذا يقلن هذه الأشياء عنك يا أبي..

أجبتها وأنا اصطنع الابتسام:

- هذا ليس مهم يا حبيبتي، إنها كلمات غبية لا تفكري بها..

فنظرت لي بتردد وقالت:

- ولكن ما قصة جدتي؟

- أي جدة فلك اثنتان؟

- جدتي التي ماتت.. أمك، هل صحيح أنها كانت تضربك وتضرب إخوتك وأنك حين كبرت هربت من البيت وأن والدك مات بسببها..

لم أعد أستطيع الاستماع أكثر ولا الحديث فقلت لها فجأة:

- حبيبتي نهاد.. كل هذا كلام فارغ، اذهبي للعب الآن لأنني تذكرت أمر مهم لابد أن اكتبه فورًا..

- ولكن.. ألا تريد سماع قصصي..

- في مرة أخرى..

خرجت بخطوات حزينة، أغلقت باب المكتب وجلست مُحدقا بالفراغ، لا أدري كم مرَّ من الوقت ولم أعد أفكر بالوقت ولا بالمكان، تحول وجودي كله إلى شيء هلامي، كل ما عرفته زوجتي عن أمي أصبح وسيلة لانتقادي وإهانتي إن لم يكن أمامي فمن وراء ظهري وابنتي تُشاركها هذا الانتقاد والاستخفاف بذكرياتي ومشاعري، في لحظة ما من الثقة بزوجتي أخبرتها عن طفولتي وعن أبي، ومعاناته مع أمي، وها هي الآن تطعنني، كدت أنسى ذلك الألم وها هو يأخذ شكل جديد ووجه جديد ولكن جذوره واحدة، وشعرت أن هذا البيت لم يعد بيتي ولم يكن لمشاعري تجاه ربا علاقة بما أفكر به حتى أنني لم أفكر بربا طوال ذلك الوقت، كل ما شعرت به هو أنني أدور في عالم فقد كل ثوابته.

(٣٨)

لقد بعثرت زوجتي أسرار علاقة زوجية استمرت لسنوات ولم تهتم إن كان ذلك أمام ابنتي الكبرى أو الصغرى، وأتخيل بأنها أفرغت محتويات هذا الزواج أمام قريباتها وصديقاتها فبعض النساء حين يعتبرن أنفسهن جريحات يمنحن أنفسهن الحق بالتدمير والتشويه، وابنتي كانت تشاركها حديثها وأفكارها، أيام مرَّت وأنا في صراع للفصل بين من يطلبه المجتمع مني كزوج ومشاعري التي ترفض كل أنواع الخيانة والكذب والخداع، لا أستطيع أن اطلب من مشاعري أن تسير باتجاه ما وأن أطلب من أفكاري أن تسير باتجاه آخر، وكلما تجنبت مشاعري ازداد انفصالي عن واقعي، كأنني ضيف ثقيل على حياتي، وانعكس هذا التشتت على عملي، فحجزت للسفر برحلة لمدة أسبوع في إحدى الفنادق قرب شاطئ البحر، فوجدت نفسي في الطائرة أحلق بعيدًا عن أرض الواقع، وأغلقت عيناي لأنني أريد الابتعاد بمشاعري وأفكاري وجسدي..

لم أخبر ربا بهذه الرحلة ولم أرغب بالاتصال بها حتى ولو غضبت أو حتى ولو قررت بأن تنتهي العلاقة القصيرة التي جمعتنا، لم يعد

يهمني شيء وأشعر بأنني على استعداد للحياة وحيدًا خلال ما تبقى لي بهذه الحياة، بل إنني أشعر بهذه الحاجة للوحدة منذ الآن.

نظرت إلى البحر الممتد أمامي بعظمته وسحره وجماله وتنفست، ملأ صدري نسماته الرطبة، وأصغيت السمع لهدير أمواجه ولمست رماله الناعمة الدافئة، وشعرت أن كل الحواس تتفاعل مع البحر وجماله وصوته ورائحته، وأنه يسرى بعروقي، وأمام هذا الامتداد الشاسع أبدو صغيرًا وضئيلاً وتبدو كل حياتي ليست سوى حبيبات من الرمال تذروها الرياح حيث تشاء..

حين كنت صغيرًا كان أبي يأخذنا في رحلة إلى البحر من حين لآخر، وكنت أخاف دائمًا من اتساعه وشدة زرقته، ولم أستطع أن أكوِّن أي علاقة مع البحر، أستطيع أن أتذكر الآن أن النضج شيء صعب، وأنه مراحل من القلق والضعف والتردد والتقدم والتراجع، والآن أشعر ولأول مرة بأنني سعيد لأنني تقدمت في السن رغم كل ما مررت به، لأول مرة وأمام هذه النسمات العذبة أشعر بأن سني هذه تمنحني الحرية لأكون من أريد وليس ما أخبروني أن أكون، هذه النسمات تتسلل إلى روحي وتدفعها لأن تُقرر ما أريده حقًا لحياتي حتى ولو تبقى لي بهذه الحياة أشهر أو أيام أو ساعات..

أفكر بكل ما امتلكته، وبأنني كنت سعيد بأن امتلك ذلك البيت وتلك السيارة وأن أرى نجاحي يزيد في كل سنة وأن يكون لدي أسرة..

ولكنني الآن أقف أمام هذا البحر الأخاذ مُجردًا من كل تلك الممتلكات، وأقف أيضًا مجردًا أمام روحي، وحيد لأن من وثقت بهم رحلوا، وأنه لم يعد لدى من أثق به، وأن الثقة بأحد ما هو شعور بالأمان، ويبدو أنني فقدت هذا الشعور، كنت أعتقد بأنني أبحث عن حب ما يُخرجني من حياتي الروتينية، ولكنني في الحقيقة كنتُ في بحث عميق عن إنسانة ما أثق بها، إنسانة تقول لي إنها لي رغم كل الظروف، ولا أشعر قربها بالشك أو القلق، أو اضطر لإخفاء أحداث من حياتي كي أحافظ على صلابة صورتي أمامها.

بدأت الشمس في الغروب وتناثرت أشعتها الذهبية على المياه المُتماوجة، وكلما رأيت غروب الشمس تذكرت أن لحياة أي منا غروب, لم أعد أحزن على ذكريات كثيرة مرَّت بحياتي ولكنني أحزن فقط لأنني قد أودع هذه الحياة وأنا أشعر بهذه الوحدة العميقة، وحين عدت لغرفتي كانت ربا قد أرسلت رسالة لي على هاتفي الخلوي: "أعرف أنك مسافر، أتمنى لك رحلة جميلة".

لقد أحببت كلماتها لأنها لم تلمني لغيابي المُفاجئ ولعدم اتصالي بها ولم تطلب مني أن اتصل بها، ولم أرغب بالرد عليها, وأخشى من علاقة جدية ربما ترى بي فرصة أخيرة للزواج وكان لابد أن اختبر تفكيرها بي هل أنا مجرد فرصة أخيرة للزواج أم أنها تريدني أنا فقط لذاتي ولمشاعرها تجاهي؟ هل ستبدأ بلومي بمجرد أن

أتوقف عن الاتصال بها وإرسال رسائل لها، هل ستتصرف مثل نجوى؟ لم أرد على رسالتها وكان يجب أن أمضي بقية تلك الأيام دون أن أهتم لما يفكر به من حولي أو حتى ما أفكر به أنا أيضًا.

وقررت خلال الأيام الباقية ألا أفكر بأي شيء، وأن أعيش بقرب البحر واستمتع بجماله وبدفء الشمس وكأنني هبطت لهذه البقعة من الأرض فاقدًا للذاكرة، من أجمل اللحظات التي عشتها خلال وجودي بقرب البحر هو صلاتي على الرمال الناعمة وأن أسجد لله تعالى دون سجادة صلاة على التراب، وألا يكون هناك جدران ولا أبواب تفصل ما بيني وبين السماء، وأن استمع لنبضات قلبي الراضية خشوعًا لله، وحين انتهي من الصلاة أسير بجانب الشاطئ أتفكر بهذا الخلق العظيم في ذاتي وفي الكون من حولي.

بعد مرور تلك الأيام القليلة عاد السكون إلى نفسي، لأنني أدركت في النهاية أن السعادة ليست في البحث عن الآخر، ولكن في إيجاد الذات، استعددت للعودة وتأملت البحر الرائع قبل أن أغادر وكنت اعرف أن كل إنسان يمر بالبحر لابد أن يتحدث معه بصمت، وأن لكل ما بهذه الحياة من مخلوقات روح تستمع وتتحدث وتحب وتكره ولقد قال لي البحر كل ما كنت بحاجة لسماعه..

(٣٩)

دخلتُ إلى المنزل واستقبلتني زوجتي بوجه مُتجهم، لـم تستفسر عن رحلتي كعادتها في السابق، ولم يبدُ عليها أي شعور بالغيرة لغيابي لمدة أسبوع، لم أرغب بتوجيه أي لوم لها، كل ما رغبت به هو الصمت إلى أن اتخذ قرار ما، طلبت منها أن تنادي مريم لأنني أريد الحديث معها، أتت مريم وقبلتني وطلبتُ منها الجلوس:

- أنا اعرف بموضوع الإنترنت وحديثك مع أشخاص لا تعرفينهم، أو ربما تعرفينهم هذا لا يهم..

فقاطعتني غاضبة:

- هي التي أخبرتك.. حسنًا سوف أقول لك عنها..

- اصمتي.. لا أريد أن اسمع عنها شيئًا.. أتحدث عنك الآن.. من الآن فصاعدًا سوف افصل اشتراك شبكة الإنترنت..

فصرخت قائلة:

- هذا ظلم.. ألا يكفي أنني محرومة من أولادي، لا أستطيع أن عيش دون الإنترنت، أنا أتحدث أحيانًا مع بعض الأصدقاء ولكن الإنترنت عالم بحد ذاته اقرأ وأرى وأتعرف على أشياء كثيرة من خلاله، أرجوك إنها تكذب بل إنها كذبت عليك..

ساد الصمت لأنها ترددت بالبوح بما تعتقد أنها تُخفيه عني فقلت لها:

- هي لم تُخبرني بشيء ولكنني عرفت بطريقتي، ثم ألم تعترفي بنفسك بأنك كنت على علاقة مع زوجك السابق من خلال الإنترنت؟

-أجل ولكنني كنت أعرفه من قبل في الجامعة..

- انتهى الحديث الآن، ولا أريد أن تتسببي بأي مشاكل في البيت مع زوجتي أو مع أختك الصغيرة..

بدأت بالبكاء وغادرت المكان.

منذ عودتي من تلك الرحلة لم أتحدث بأي موضوع مع زوجتي، عدا عن تلبية طلباتها في ما يتعلق بأمور البيت، وطلبت منها تجهيز غرفة أخرى لأنام بها مُتذرعًا بأنني أقلق كثيرًا ولا أريد إزعاجها فاستجابت لطلبي دون نقاش، مرَّت أسابيع عديدة ولم اتصل بربا، ثم اتصلت هي بي وقالت ضاحكة:

- ألم تشتاق لي؟ عمومًا حتى ولو لم تشتاق لي فأنا اشتقت لك..

تحدثنا قليلاً ولم أطلب أن أراها، فشعرت ببرودي وأنهت المكالمة دون أن تطلب رؤيتي أيضًا، ومنذ تلك المكالمة لم تتصل بي أو ترسل أي رسالة..

قبل أن أنام قالت لي زوجتي ببرود:

- ابنتك تخرج كل يوم لتذهب لمقهى الإنترنت وتعود قبل موعد عودتك، ربما من الأفضل أن تُعيد اشتراك الشبكة بدلاً من أن تحصل مشكلة ما معها..

صمت ولم أدري بماذا أرد، فذهبت لغرفة مريم وسألتها:

- هل تذهبين حقًا إلى مقهى الإنترنت بكل يوم حتى موعد عودتي للبيت؟

فنهضت صارخة:

- إنها كاذبة.. كاذبة.. وسوف أخبرك فورًا عن كل شيء عنها..

- اعرف كل شيء عنك وعنها وعن ما خططته ونفذتيه معها حين حاولت الانتحار وبمساعدتك اتصلت بالإسعاف قبل أن تصل لمرحلة الخطر وذلك لإجباري على عدم الزواج مرة أخرى، لا أريد لومك فأنت ابنتي، أما فيما يتعلق بزوجتي فهذا أمر يخُصني ولا علاقة لك به، ولكن أحذرك في المستقبل من هذه المؤامرات الدنيئة لأنها تدمر أي أمل بنجاح أي شيء خصوصًا حين تُمثليها على زوجك، فوالدك قد يسامحك ولكن الزوج لا يُسامح، وحتى لو سامح لن ينسى.. المهم، أتحدث معك أنت وبخصوصك أنت، ماذا تريدين؟ أن تتلطخ سمعتك؟ لديك أولاد حتى ولو لم يعيشوا معك فسوف يدفعون ثمن أخطاءك..

قالت باستسلام:

- حسنًا يا أبي.. لقد كنت اتصل مع زوجي الثاني محاولة أن نعود للحياة معًا فأنا لم أعد أطيق هذه الحياة بعيدًا عن ابنتي..

- وماذا كان جوابه؟

- هو يرغب بذلك ولكنه اشترط علي أشياء معينة لمتابعة الحياة معًا.

- مثل ماذا؟

- ألا أكون عنيدة وألا أتحدث عن حياتي الزوجية مع أي شخص كان، وأن أقبل به بكل عيوبه وإيجابياته، ولقد قبلت بكل شروطه، هذا صحيح بيتي وأنت أبي ولكنه لن يكون بيتي الخاص بي، وأنا أصبحت بحاجة لأن تكون لي حياة مستقلة، هذا هو سبب بقائي للحديث على الإنترنت، فأنا أحاول إقناعه منذ عدة أشهر ولم أرغب بأن أخبرك خشية أن يرفض العودة لي وتُصبح الأمور أصعب وأكثر إيلامًا بالنسبة لي ولك، ولابد أن استمر بالحديث معه لمدة أخرى بناءً على طلبه، لأنه يريد العودة لي حين يتأكد بأنني بالفعل تغيرت وحين أكون جاهزة للحياة معه..

- كان يجب أن تُخبريني بهذه الأمور من قبل.. حسنًا سوف أعيد اشتراك الإنترنت إذا كان هذا سوف يجعل الأمور تتحسن، فأنا لا أريد إلا سعادتك، وأن أراك في بيت زوجك مستقرة وسعيدة.

بعد خروجي من غرفتها لحقت بي زوجتي لتسألني ماذا سأفعل حيال موضوع مريم فأجبتها باقتضاب:

- سوف أعيد اشتراك الإنترنت..

- ماذا؟ هل جُننت؟ أم أنك لم تعد تهتم حتى بابنتك..

نظرت إليها بصمت وقلت بهدوء:

- أجل.. أنا أتقدم بالسن ولا أريد ممارسة سلطة على ابنتي فهي ليست صغيرة وحديثها عبر الإنترنت كان مع زوجها الثاني محاولة أن تعود له.. هل هذا واضح؟

- أجل.. واضح بل وأتمنى أن تعود له..

وبعد شهرين حضر زوجها لبيتي طالبًا مني أن يتزوجها مرة أخرى وأحضر معه ابنته الصغيرة، ركضت مريم باتجاه ابنتها واحتضنتها وجلست بجواره مبتسمة بخجل وكأنها لأول مرة تراه، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى بها السعادة الحقيقية تبدو على وجه مريم فسألتها دون أن ابحث عن صيغة أخرى لسؤالي:

- أنت بالفعل تُحبينه؟

ضحكت بخجل وأجابت:

- أجل..

وبعد أيام تم عقد قرانها وغادرت مع زوجها من جديد، فلم تكن تحضر إلا للزيارة وبعد طلب موافقته فأخبرتها بجدية:

- الآن أنت زوجته وهو مسؤول عنك، لن أساندك في المواقف التي تُخطئين بها كما وأنني لن أقدم لك أي مساعدة مالية لأنك لابد أن تشعري بحاجتك لزوجك وأنه الرجل الذي سيعتني بك، وأن تقبلي ظروفه دون تذمر..

فأجابتني مبتسمة:

- لقد أخطأت وتعلمت وفهمت

شعور جديد ينتابني، وهو أن الرجل كأب لا يستطيع أن يكون الأب الحامي طوال حياة ابنته فلابد لها أن تخوض تجربتها الخاصة بها حتى ولو كانت مؤلمة، ولا أستطيع أن أكون حصنها المنيع في كل المواقف، بل أحيانًا لابد أن تشعر بالضعف وبالحاجة لزوجها كرجل أهم مني بحياتها، ولن تستطيع أن تشعر بهذا الشعور تجاه زوجها طالما أنا أقف، ليس كأب ولكن كحامي ومُدافع، في هذه اللحظة بالذات جعلتها تفهم بأنني لم أعد الأب المُدافع ولكن الداعم فقط لحياتها القادمة، صمتت قليلاً وبكت فقلت لها بجدية:

- مريم، لن تحلي مشاكلك بالبكاء، توقفي وفكري بكل كلمة وتصرف تقومين به ولا تكرري أخطاءك، إذا لم تتعلمي من الزواج التنازل عن بعض ما تعتبرينه ملكك لن ينجح الزواج، وإن لم تتنازلي لن يتنازل زوجك..

قالت بحزن:

- أشعر أنك تتخلى عني.

- لا أتخلى عنك، ولكنني لن أكون دائمًا على قيد الحياة، لابد أن تتعلمي أن تقودي حياتك بنفسك دون التفكير بأن هناك من سيحميك، الأب لا يتخلى عن ابنته، ولكن لأنك تربيت بعيدًا عن أمك منحتك رعاية أكثر مما يجب والآن أدرك خطأي، هذه حياتك وأنت مسؤولة عنها من الآن فصاعدًا، وأنا أيضًا لا يزال لي حياة خاصة بي لابد أن اعتني بها.

- لقد تغيرت..

- لم أتغير، ولكنني فهمت أنني لا أستطيع أن احصل على علاقة صحية معك إن لم تستقلي بتفكيرك ومشاعرك، حتى الخطة التي نفذتيها مع زوجتي لم تكن إلا لخوفك من فقدي، لأنني كنت الأب الحامي وليس الداعم لك، هل فهمت الآن؟

- لقد فهمت منذ البداية ولكن الصعوبة تكمن في تطبيق ما فهمته، وكأنك تطلب مني أن أكون إنسانة أخرى!!

- اطلبه منك قبل أن تُجبرك الحياة على أن تكوني إنسانة أخرى.

openkenaz.com

(٤٠)

توشح البيت بالصمت بعد مغادرة مريم لبيت زوجها، أو أن الصمت الذي أصابني ألقى بظلاله على المكان، لم يعد لدي ما أقوله لزوجتي وما يُجبرني على الحديث هو ابنتي الصغيرة، ولم تعترض زوجتي على صمتي بعد أن سألتني عدة مرات وأجبتها أنه الإرهاق بسبب العمل، ولم تعد تُبدي غيرتها لاعتقادها مثل السابق أن سبب هذا الصمت هو وجود امرأة أخرى بحياتي، فهي مُطمئنة بأنه لم يعد لدي القدرة لأن أكون زوج لامرأة أخرى..

كان يمكن لهذه الحياة أن تستمر دائمًا على هذه الصورة لأنني مُرهق بسبب صراعاتي النفسية السابقة، ولم أعد أرغب بأن أذهب لغرفة المكتب، وأن ألعب لعبة الذكريات القديمة، فبقدر ما كانت مُمتعة كانت مُرهقة، لأنها أيقظت ما كان يجب أن يبقى نائمًا أو حتى ميتًا... ولكنني في قرارة نفسي أدرك بأنها كانت مرحلة مهمة بحياتي، فعبر تلك الرحلة نحو الماضي فهمت نفسي والآخرين بشكل أعمق، فهل يبدو أن الفهم العميق للذات والآخرين ليس مجرد أفكار تدور بعقولنا، ولكنها أيضًا قوة دافعة من الروح تُجبرنا على تغيير ما يجب تغييره؟ وحين نعجز عن التغيير يُصيبنا الإرهاق لفشلنا أمام ذواتنا رغم نجاحاتنا في الحياة الخارجية؟

هل مواجهة الذات والذكرى والآخر أصعب من ضـــغوطات الحيـــاة وامتحاناتها؟ أن نذهب بعيدًا في أعماق ذواتنا ونبحث عـــن ذلـــك الجزء الذي يرفض أن يعمل مع بقية أجهزة الجسم، يتمرد ويغضب أحيانًا، وأحيانًا ينكمش ويتقوقع على نفسه، وفي كلتا الحـــالتين لا يتأقلم مع الجسد أو الروح أو العقل، نستطيع أن نُتابع الحياة دون ذلك الجزء الذي يرفض التأقلم، ولكننا نمضي دون إشـــراق ودون سعادة، وكأننا نسير تحت غيمة شتاء ترفض أن تُمطر وترفض أن تدع دفء الشمس يتسلل لحياتنا..

فهل يحق لنا أن نتوقف في لحظة ما في الحياة بسن الثلاثـــين أو الأربعين أو حتى الستين، ونسأل أنفسنا ما هو هذا الجزء المشلول ولماذا أصابه الشلل؟ ولأجل أن نعرف الإجابة لابد أن نُحلـــل كـــل أجزاء جسدنا وعقلنا وروحنا إلى أن نصل لذلك الجزء المُحتـــضر لزمن طويل ولكنه لا يموت..

ولقد أردت منذ البداية أن أعرف أين هو ولماذا يؤلمني وكيف لي أن أعيد نبض الحياة إليه لتُصبح حياتي خفيفة رغم المسؤوليات، وجميلة رغم التشويه الذي قد يُصيبها في مراحل ما من الحيـــاة، وبعد رحلة طويلة مع ذاتي، وبعد ذلك الغوص العميق بـــذكرياتي، وبحياة من حولي، أعرف ما هو ذلك الجزء الصامت ولكنه صاخب بروحي، وأدرك أن الروح في رحلة الحياة رغم كل الظروف تبحث

عن السعادة، وتُخبرنا في كل يوم وفي كل سنة وحتى خلال عشرات السنين بصوت هامس أنا لستُ سعيدة.. لستُ سعيدة..

ونقول لأنفسنا لنتجنب التغيير أو حتى التمرد، لا.. قد لا ينجح هذا الخيار وقد نندم وقد.. وقد..، ولكن الروح تبقى على موقفها الصلب، رغم شفافيتها ترفض المُساومة، وترفض كل السلع المادية التي نشتريها لنملأ الفراغ النفسي، فتمتلئ بيوتنا وخزائننا بالمشتريات ونفخر بالامتلاك المادي، ولكننا نعرف بقرارة أنفسنا بأن هناك حفرة عميقة لا تردمها كل سلع الأرض، وأن جمال كل ما حولنا بهذا الكون لا يكتمل دون الحب الصادق والواثق دون أن يرافقنا من نحب ونثق بحبه وقبوله لنا دون مجاملات ولا مصالح.

حين ذهبت بتلك الرحلة بقرب البحر، تأملت الغروب وروعته ولكن وفي تلك اللحظة فقط أدركت أنني وحيد بحياتي، لأنه لا يوجد من يشاركني التمتع بهذا الجمال الأخاذ، لا أبحث عن حب يُخرجني من روتين الحياة ومللها، ولكنني وبهذه السن أعرف ما فقدته، وما أفتقده، ولا ابحث عن زوجة أخرى، لأنني وببساطة لا أريد تغيير حياتي ولكنني أردت أن اعرف ما ينقُصني، فمن الرائع أن أعرف وأن أبقى على أمل بأن أقابل هذه الإنسانة التي أتمنى أن أراقب غروب الشمس بجانبها، قد تأتي أو لا تأتي، ولكنني بحاجة لهذا الحلم حتى ولو تبقى لي أيام بهذه الحياة..

لم أعد أستطيع تمثيل دور الزوج، فأنا لم أعد أشعر أنني انتمي لزوجتي، ولا أقبل أن يربطني بها عقد ببنود مُحدده، فكان لابد أن ينتهي هذا الفصل من حياتي ولربما يكون الأخير ولربما أموت غدًا ولكن أتمسك بحقي بألا أحيا إلى النهاية حياة عبارة عن أكوام مُتراصة من المجاملات، لم أعد أستطيع ولن أكون نسخة عن والدي الذي عاش ومات بصمت..

- أريد أن نتحدث الآن..

جلست صامتة والقلق يبدو على وجهها:

- أجل تفضل..

- لا أعتقد أنني أستطيع الاستمرار بهذا الزواج، ليس لأنني أريد الزواج مرة أخرى، ولكنني لا أستطيع أن أبقى مع زوجة مارست على زوجها أشد أنواع الضغط النفسي بتهديده بالانتحار إذا فكر بالزواج رغم أنه حقي الشرعي ولم أكن أنوي التخلي عنك، أو أن أطلقك، ولم يكن انتحار حقيقيًا بل تمثيلية عانيت بسببها ألم نفسي لا يُطاق، الآن أقول لك إن عقد ملكيتي قد نفذت صلاحيته..

قاطعتني غاضبة:

- ابنتك كاذبة وغير مؤدبة وأنت تُصدقها دائمًا، أنا مستعدة دائمًا للموت لأجلك وأنت تعلم هذا، ثم لماذا أردت أن تتزوج امرأة أخرى ماذا كان ينقُصك معي؟ وهل قصرت بحقك بأي يوم؟

- لم تقصري وكنت أم مثالية، وابنتي لم تُخبرني، ولكنني سمعت شجاركما معًا وعرفت كل شيء، منذ أن افتعلت تلك الحادثة وأنت لم تعدي زوجتي بمشاعري، ولكنني ورغم كل شيء سامحتك وتناسيت هذا الموضوع، حين خيرتك بين الطلاق وبين أن تبقي معي فاخترتني واقتنعت بأن أتابع حياتي معك وأن ابدأ صفحة جديدة، ولكنك لم تكتفي بذلك بل بدأتِ بتشويه صورتي حتى أمام ابنتي الصغيرة، لقد أخبرتني نهاد الصغيرة بحديثك مع مريم، وأنا متأكد أنك لم تقولي هذا لمريم فقط فأنا أعرف طبيعة شبكة علاقاتك مع صديقاتك وأقاربك، لقد وثقت بك وأخبرتك أمور حساسة تتعلق بحياتي ولا يجوز بل لا يحق للمرأة إفشائها حتى ولو بعد الطلاق لأي شخص، ولكنك وعند أول خلاف وجفاء أعلنت حربًا من خلفي وهدفك هو التجريح بي حتى ولو لم تعترفي بذلك.

- أنت لم تحبني ولو ليوم طوال زواجنا، وأنا لست غبية.

- لقد أحببتك كزوجة وأم لبناتي وبدوري لم أقصر معك بأي شيء ولن أتخلى عنك حتى بعد كل هذه الخلافات، ولكن لابد أن تفهمي بأنني لن أكون أبدًا صورة عن أبي بسلبيته والتخلي عن حياته حتى الموت، لن أكون هذا الرجل حتى ولو عشت وحيدًا ما تبقى لي من الحياة، سوف تبقين بهذا البيت وتبقى نهاد معك، ويصلك مصروف البيت كالعادة وسوف تتم تلبية كل ما تحتاجين له. لقد اشتريت بيتًا

قريبًا من هذا البيت لتتمكن نهاد من رؤيتي متى شاءت، وسوف تصلك ورقة الطلاق خلال أيام..

نهضتْ من مكانها وقالت:

- أريدك أن تنظر عبر النافذة، هل ترى كل هذه البيوت، هل تعتقد أن كل الأزواج الذين يعيشون بهذه البيوت يحبون بعضهم بعضًا، بل بإمكاني أن أقول لك بأن البعض منهم يتمنى موت الطرف الآخر، بل وقد يفرح إن حلت به مصيبة ما، ألا ترى بأننا لا نزال على ما يرام رغم كل شيء؟

تأملت تلك البيوت وأجبتها بهدوء:

- أجل معك حق وهو بالذات ما لا أريده، أن أحيا شبه حياة، أن أعيش مع إنسانة قد يبدو موتي بالنسبة لها ضمانة أكبر من حياتي، لأنني خلال حياتي قد أتزوج عليها، لقد عشت طوال حياتك معي مع حسابات مادية أعرفها جيدًا وكنت أتجاهل حساباتك تلك وأنت تعتقدين بأنني لا انتبه لنظرتك المادية لكل شيء، حتى بنات عمتي لطالما اعترضتِ على إنفاقي عليهن، وخصوصًا على ابن رهام المُعاق، المشكلة ليست في المسرحية التي افتعلتها مع مريم ولا بنظرتك المادية للأمور، لقد قررت الانفصال عنك لأنك بحت بأمور أخبرتها لك بلحظات ألم من حياتي، كيف تريدين مني أن أعيش مع زوجة لا أثق بها، زوجة قد تستخدم لحظات ضعفي

وخصوصياتي سلاح ضدي لكشف ما كتمته لسنوات طويلة، لقد أخبرت البنات بأن أمي كانت السبب بموت أبي، أنا لم أقل لك هذا أنت استنتجتيه بناءً على ما أخبرتك به عن معاناة والدي خلال سنوات من حياته، لا تعتقدي أن الكلام يتناثر في الهواء بل يبقى ويقتل ويجرح ويدمر، وأنت دمرت آخر محاولاتي للاستمرار معك.

بدأت بالبكاء وصرخت قائلة:

- الآن تتخلى عني بعد كل هذه السنوات.. أنت إنسان..

- يمكنك قول ما تشائين، ولكن كما قلت لك لن أكون رهينة ولا ضحية، أنا رجل حتى أخر يوم بحياتي، وتهديدك لي هو استخفاف برجولتي، وحتى لو تقدمت بالسن فرجولتي لا تهرم لأنها جزء من تكويني النفسي والعقلي، كما أن كونك أنثى لا يتبدل مع ما يطرأ على جسدك من تغيرات مع مرور الزمن..

خرجت من البيت وشعرت بالهدوء يستقر بأوصالي، مشيت عبر الشوارع، وأدركت أننا بحياتنا قد نبحث عن نموذج راسخ بذاكرتنا وقد نهرب من نموذج ترسخ بذاكرتنا، وأنني أحببت أبي كثيرًا، ولكنني ومنذ طفولتي أهرب من تحولي لرجل مثله، وأن كل تلك الذكريات المُحتشدة بعقلي والتي كانت بكماء أصبح لها صوت اليوم، أسير بهدوء وأشعر بأنني ولأول مرة أتخلص من عبء تلك الذكريات، لأنني أخيرًا قررت أن أختار حياتي حتى ولو كان ثمن ذلك الأمان وحدتي.

(٤١)

سنة مرت على لعبتي أو صراعاتي مع ذكرياتي وعـواطفي التـي شرعت لها أبواب حياتي دون قيود أو رفض، ورغم أنني استطعت أن انظم أشياء كثيرة بحياتي بعد مواجهتي لتلك المشاعر والذكريات إلا أنني أدركت أنه رغم اعتقادنا أن حياة كل منا واسـعة وتـضج بالأشخاص والأحداث، إلا أن هناك حياة أخرى في الخارج أوسـع وأعمق وأكثر ثراء، وأن للإنسان خيارات عديدة بين أن يتمركـز حول حياته، وما يريد أولا يريد، وبين أن يرى العالم مـن خـلال نافذته الواسعة، وألا ينفصل عالمه عن ذلك العـالم الـذي يـدور حوله، وأننا لا نحيا هذه الحياة لنكون ذواتنا فقط، بل لنكون أيضًا جزء من حياة الآخرين، حتى أولئك الذين لا نعرفهم، ولكن نعـرف أنهم يعيشون معاناة ما لا يتحدثون عنها، أو لا نملـك الوقـت ولا الرغبة للحديث عن معاناتهم..

أشعر الآن بأنني رجل حر، لأنني وفي مرحلة ما من حياتي وقبـل أن يكون الوقت متأخر اخترت ما أريد، ورفضت ما لا أريـد، الآن فقط أشعر بحريتي، بسعادة عميقة بذاتي، منفصلة عن إيجادي أو عدم إيجادي لامرأة حياتي التي كنت اعتقد بأنها ما ينقصني بهـذه

الحياة، واكتشف الآن أنه ليس الحب الكبير ولا إيجاد شقيقة الروح هو ما يجلب هذا النوع من السعادة الهادئة والعميقة، بل هو المعرفة العميقة للذات وللآخرين من حولي، وعقد السلام مع الذات والآخرين، ومن الجمل الرائعة التي قرأتها في الكتب الدينية التي أهدتني إياها عمتي: "أحبب من شئت فأنت مُفارقه".

توقفت طويلاً أمام هذه الجملة بعظمة معانيها وأدركت بالفعل أنني لم أكن برحلة بحث عن الحب الكبير، ولكن برحلة بحث عن الذات وعما تريده هذه الذات من الحياة، خصوصًا حين يقترب موعد مغادرتها لهذه الحياة، وتتحول كل الأحداث والكلمات والأصوات لصمت أبدي.

كان يمكن لي أن امضي بهذه الحياة دون أن أدع فيضان مشاعري وذكرياتي ينساب كما يشاء في وقائع حياتي، فتتغير معالم الأشياء وأماكنها بل ويختفي وجود بعضها، كان يمكن أن امضي خجلاً من الذكرى ومن مشاعري، لأني رجل لا يليق بي أن أغرق بعالم ذكرياتي ومشاعري ولو لسنة واحدة من حياتي، رغم أنني عشت عشرات السنين بهذه الحياة، فهل كل الأخطاء التي أراها حولي وكل هذا الانفصام بين ما لا نرغب وما نحيا سببه هذا الانسلاخ عن الذكرى والمشاعر؟ وأننا مهما حاولنا أن نتجنب ذكرياتنا وأن نضعها في خانة الماضي ونُغلق عليها الأدراج والأبواب؛ لابد أن تتسلل

عبر سلوكنا الحياتي وعبر اختيارنا لأصدقائنا وأزواجنا، بل ويتسلل عبر علاقتنا مع أولادنا..

سنة من حياتي اختلستها من الموروث الثقافي الشرقي الذي يستنكر أن أغرق ولو لبعض من الوقت بمشاعري وذكرياتي، أن ارفض أن تكون حياتي مجرد وقائع يومية غير مترابطة طالما أنها تؤدي للربح أو للخسارة، للحياة كزوج وأب دون أن أتمعن بكوني إنسان قبل أن أكون رجل أو زوج أو أب، سنة من حياتي اختلستها رغم شرقيتي العنيدة لأعترف بضعفي أمام ذكرياتي ومشاعري، وأن اعترف بوجودها، ليس لأصارعها، ولكن لكي أعقد الصلح معها.. أرفض كوني عقد أمان لزوجتي، وأطالب بعقد زواج يتعدى حدود الأمن والأمان، وأن أحلم بأن أقابل من لا ترى بي مجرد ميناء سلامة، ولكن حبيب وصديق وزوج، حتى ولو أحاطت بنا كل عواصف الحياة، سنة من حياتي اختلستها من عمري ولخصت بها أحداث عشرات السنين كي أفهم ما أريد قبل أن يأتي الفصل الأخير من وجودي، فلا أشعر ولا أفهم وأرحل كأنني كنت ضيف.

هذه هي الليلة الأخيرة التي أقضيها مع ذاتي الدفينة، ولابد أن أعرف ما الذي سأبدؤه في الغد، لأن هذا الغد سيكون بداية لحياة أخرى أردتها لنفسي، طال تفكيري وطالت حيرتي وغفوت قليلاً دون أن أجد فكرة ما، استيقظت على آذان الفجر فتوضأت وذهبت

للصلاة في المسجد وشعرت بسكون الكون من حولي وخشوعه لله، ومن جديد عادت لي تلك الحرية المُطلقة حين أقف للصلاة، وإنني لا أنشد السعادة ولا الحرية ولا الأمن إلا من الملاذ الوحيد بحياتي وهو الله تعالى، وبعد الصلاة جلست في إحدى زوايا المسجد اقرأ القرآن الكريم فوقع نظري على أخر آية أنزلت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "واتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله ثمّ توفى كلُ نفسٍ مّا كسبت وهم لا يُظلمون".

خرجتُ من المسجد وأنا أعرف ما الذي أريده من ما تبقى من حياتي، تبرعت بجزء من أموالي لأعمال الخير، وقمت بإنشاء جمعية خيرية تعنى بالعنف الواقع على الأولاد، وأن يتم علاج ذلك العنف ليس بمعاقبة الأهل، ولكن بمساعدتهم ماديًا ونفسيًا لتجاوز ذلك الدمار الذي يلحق بهم وبأولادهم دون لومهم أو احتقارهم، وكانت صورة أم جمال ترتسم بذاكرتي كلما رأيت أحد هؤلاء الأطفال يبتسم ويستعيد جمال طفولته حين نتمكن من مساعدته، ومساعدة أهله..

ولم أنسَ بأن هناك امرأة أحبتني بصدق وعمق وحين ابتعدت عنها انسحبت بصمت ودون لوم أو غضب، حتى حين كنت أراها من حين لآخر كانت تبتسم بلطفها المُعتاد وتُلقي التحية وتختفي دون أن تقترب مني، أرسلت لي رسالة واحدة فقط خلال كل تلك المدة:

"لقد أحببتك دون توقعات صغيرة أو كبيرة، وأشكرك على المشاعر الجميلة التي جلبتها لحياتي حتى ولو كانت أحيانًا مؤلمة، سوف تبقى دائمًا إنسان خاص بالنسبة لي".

ولم أكن أنوي أن امضي بحياتي وحيدًا، وأن أتجاهل كوني إنسان بحاجة للحب والدفء، اتصلت بها وأتى صوتها هادئًا دون أن تُبدي استغرابها، فاستغربت أنا هدوئها ذلك فقالت:

- لقد كنت أعرف بأنك ستتصل عاجلاً أم آجلا..

- لماذا؟

- لأن محبة الأرواح أقوى من رغبات النظر والنفس والجسد وما كان يجمعني بك هو ذلك التعلق الروحي..

وخلال أيام أصبحت زوجتي وجلستْ بقربي نشاهد معًا غروب الشمس ينعكس على أمواج البحر، احتضنتها وشعرت باستكانتها وانتمائها لي، وكان ذلك الشعور ببساطته هو ما بحثتُ عنه طويلاً، عن المرأة التي أردتها لحياتي.

انتهت

obeikandl.com

obeikandl.com

شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤ (+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥
www.shams-group.net